

ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة

القسم الأول

القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية

د. عاطف العراقي

مكتبة سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET



ت ٠٢/٥٢٥٤٣٨ - ألكندرية

منتدی سور الانزبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET

ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة
القسم الأول
القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية

د. عاطف العراقى
أستاذ الفلسفة العربية
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر
دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر
ت : ٥٣٥٤٤٣٨ - اسكندرية

ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة
القسم الأول

القضايا والمشكلات من منظور الثورة النقدية

ثورة النقد في عالم الأدب والفلسفة والسياسة

القسم الأول

قضايا ومشكلات من منظور الثورة النقدية

د. عاطف العراقي

كمبيوتر: (دار الوفاء)

الطباعة: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر

شارع ملك حفنى، قبلى السكة الحديد

بجوار مساكن درباله أمام بلوك ٣

الرقم البريدى: ٢١٤١١ فيكتوريا - اسكندرية

رقم الإيداع: ٣٢٢٥ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولى: 3 - 051 - 327 - 977



الزعيم الخالد / مصطفى النحاس باشا

الإهداء

إلى روح الرجل الذى تجسدت فيه القيم النبيلة والأفكار السامية.
إلى من خصص حياته لخدمة أبناء مصر والعروبة.
إلى من التقيت به وأنا فى المهد صبيًا. واستوعبت كلماته منذ سنوات الشباب.
إلى من ظلم حياً وظلم ميتاً.
إلى الزعامة والزعيم " مصطفى النحاس باشا "
أهدى هذا الكتاب حتى تسعد روحه فى السماء.
وأنا أقول فى شوق لها مخاطباً بعد حياتي التى امتزج فيها الألم بالشقاء:
اذكرينى.... فقد أن الأوان للقاء الروح بالروح،
بعد أن باعد بيننا الزمان والمكان.

عاطف العراقى

١٩٩٩/٨/٢٣ م

شكر وتقدير

يتوجه المؤلف بأعمق آيات الشكر والتقدير لجميع المؤسسات الفكرية والثقافية داخل مصر وخارجها والتي استمر التعاون معها طوال فترة إعدادى لهذا الكتاب، وما زال التعاون بينى وبينها مستمراً. كما أتوجه بشكرى إلى جميع الزملاء والأصدقاء الذين شاركوا فى المعارك الفكرية التى أشرت إليها فى هذا الكتاب، رغم الخلاف بينى وبينهم. لقد كانت آراؤهم النقدية فى مجالات الأدب والفلسفة والسياسة عاملاً رئيساً لتعميق دائرة الحوار وإبراز الثورة النقدية.

عاطف العراقى

تصدير عام

النقد الحقيقي والنقد الزائف: (نقاد وأشباه نقاد)

ليس لدينا نقد ولا نقاد. هذا ما قلت به منذ عشرات السنين، ولم أجد مبرراً للتراجع عنه وإذا وجدنا القليل من النقاد المعاصرين من أمثال د. طه حسين، عباس العقاد، وتوفيق الحكيم، د. محمد مندور، وزكى نجيب محمود، د. فؤاد زكريا، ولويس عوض وفاروق عبد القادر، فإن هذا لا يدلنا على أن النقد في مصر قد أصبح ظاهرة ملموسة وعامة.

لقد اختفى النقد الحقيقي أو كاد، وسط النقد الزائف. اختفى النقاد الحقيقيون وسط مئات من أشباه النقاد، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

لا تصدقوا أيها السادة قول من يزعم لنفسه إنه يعد ناقداً، إذ أن المسافة بينه وبين النقد كما ينبغي أن يكون، تعد أبعد من المسافة بين الإنسان والجن، والمسافة بين الشرق والغرب. وإذا زعم مجموعة من الناس في مصرنا المعاصرة وعالمنا العربي، بأنهم يدخلون في دائرة النقاد، فلهم دينهم ولنا دين، إنهم يعبرون في نقدهم عن النقد الزائف، النقد الذي لا يقوم على أساس علمي موضوعي.

النقد يا سادة يعد علماً ولا يعد فناً. يعد معبراً عن جانب موضوعي مشترك، وليس عن بعد ذاتي. إن الفنان أو الأديب يعد عمل كل منهما معبراً عن بعد ذاتي إلى حد كبير، ونحن نقول: العلم نحن والفن أنا. ولكن إذا درس الناقد عملاً من الأعمال الفنية أو الأعمال الأدبية، فهنا لابد أن يدخل في دائرة الموضوعية، فالنقد له أسسه الموضوعية المشتركة. وراجعوا ما

شئت أمي كاتب من الكتب التي تدرس وتحلل أبعاد المنهج النقدي، بشرط أن يكون من الكتب الجادة التي يعد صاحبها من النقاد الجادين الدارسين، وخاصة الكتب المؤلفة بلغات غير العربية، وسوف تذهبون معي إلى القول بأن النقد يعد علما له أسسه المشتركة، وليس فنا له أبعاده الذاتية.

لو كنا قد وضعنا ذلك في اعتبارنا معشر العرب، لكانت الحال قد أصبحت غير الحال. ولكن ماذا نفعل إزاء المفسدين في الأرض، والذين تحكمهم الشللية والمصالح المادية الخاصة، ومن بينها البتروفر. إنهم أناس من الأشباه والأقزام وأنصاف الأدميين، يتكلمون في كل شيء، دون فهم من جانبهم لأي شيء. إنهم يسألون أولا: من ياترى مؤلف العمل الذي سنعرض لدراسته ونقده، فإذا كان صاحب العمل صاحب منصب يبتغون من ورائه مصلحة مادية على اختلاف صور هذه المصلحة، فإنهم وبدون قراءة واعية لهذا العمل أو ذاك من أعماله، يأخذون في الثناء على العمل وصاحبه!!!

نعم ليس لدينا نقد ولا نقاد. وأكثر الأعمال التي يزعم لنا أصحابها أنها تعد نقدا، فإن مكانها الحقيقي سلة المهملات. إنها تعد جهلا على جهل. أعمال قدمها لنا أناس بعضهم غادرنا إلى عالم الآخرة، وبعضهم الآخر لا يزال بيننا يفسد في أرضنا الثقافية والفكرية.

إن أعمالهم التافهة والصادرة عن نوع من الإسهال الفكري تعد صادرة عن إيمان من جانبهم بصناعة "عملة الأقزام" إنها صناعة تحاول أن تجعل من القزم عملاقا. وقد انتشرت للأسف الشديد هذه الصناعة التي تعد معبرة عن نوع من الغش الفكري والعياذ بالله. ولكن ماذا نفعل ونحن في عالمنا العربي نجد محاكم للغش التجاري، ولا نجد محاكم للغش الفكري، وكأننا في عالمنا العربي نهتم بغذاء البطون ولا نضع في اعتبارنا أن القضية، الرئيسة هي قضية الغش الفكري، التزوير الثقافي، وأننا إذا

كنا نتحدث عن تلوث غذائي، فإننا نجد في نفس الوقت تلوثاً خلقياً، تلوثاً في الضمائر، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

أين الضمير يا سادة حين يحاول أشباه النقاد خلع هالات الإعجاب والتقديس على مجموعة من الأعمال التافهة، وفي نفس الوقت نجدهم يوجهون مجموعة من الشتائم لأعمال جادة، بل يحاولون إخفاءها وجعلها في منطقة الظل. ولا أشك أن هذا العمل من جانبهم إنما يكشف عن تخلفهم العقلي والعياذ بالله.

لقد ظهرت إلى السطح شخصيات لا نجد لديها العمق الثقافي، أي عمق، في حين أننا تعمداً إخفاء أعمال أصحاب الثقافة الجادة، أعمال أناس آمنوا بربهم، وآمنوا بوطنهم.

نعم لا نجد لدينا نقداً ولا نقاداً. النقد يا سادة مكانه الآن في الغرب، والغرب فقط. إننا نجد في الغرب نقداً علمياً دقيقاً، نقداً جاداً، إن النقاد في الغرب بوجه عام لأن أخطر شيء هو الكلمة المطبوعة. والمؤلف، أي مؤلف، وفي أي ميدان من الميادين، يدرك أن عيون النقاد مسلطة على كل عمل يصدر عنه، يدرك أن النقد يعد بعيداً بعداً تاماً عن المجاملة، وعن عملة الأقرام، ولذا فإننا نراه قبل أن يكتب كلمة واحدة، يضع ذلك في اعتباره. إن ما يشفع له هو عمله، وليس الشلية، أو أن يكون صاحب منصب. وإلا كيف نبرر أننا من النادر أن نجد عندهم عملاً تافهاً وفي أي ميدان من الميادين الفكرية والثقافية والأدبية والفنية، في حين أننا في عالمنا العربي نجد كماً، وكماً هائلاً من التفاهات، ومن التضليل الفكري، لأن المؤلف مطمئن تماماً إلى أن النقد الجاد يعد في حالة سبات، والناقد الجاد يعد غائباً عن الوعي.

ماذا يضير المؤلف وهو مطمئن تماماً إلى أن العلاقات الشخصية، وتبادل المصالح، هي وحدها التي ستؤدي إلى التفخيم في كل عمل من الأعمال التي تصدر عنه، في حين أنها أعمال مكانها الطبيعي، كما قلت، هو سلة المهملات، وبحيث أننا لو التزمنا بالموضوعية فلا بد أن نقول لتلك الأعمال، إلى الجحيم وبئس المصير، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. ونود القول بأن النقد يرتبط ارتباطاً ضرورياً بأهمية العمل الفكري. فمن أسباب غياب النقد والنقاد، أننا من النادر أن نجد عملاً متميزاً يستحق أن تسلط عليه أضواء النقد.

لا بد إذن من وجود الأعمال الجادة، حتى نتوقع وجود النقد الجاد، وهل ننتظر من الناقد الجاد، أن يتصدى لنقد عمل، وهو يرى أن هذا العمل لا يصلح أساساً أن يقدم للمطبعة، وبحيث يعد جهلاً على جهل، وصادراً عن أفراد يكتبون في كل شيء، دون فهم - كما سبق أن أشرنا منذ قليل - من جانبهم لأي شيء. كلا ثم كلا. فإذا طلبت مثلاً من لاعب متميز من لاعبي كرة القدم، أن يشترك مع صغار من اللاعبين، فإنه سوف لا يتردد في الرفض وعدم القبول، وبحيث يقول إن أشباه أو صغار اللاعبين ليسوا في مستواه. وعلى أشباه اللاعبين البحث عن أشباه آخرين لكي يقوموا باللعب معهم.

هذا على وجه اليقين، ما أقصده. إن النقد لا يمكننا أن نتوقع ازدهاره إلا إذا وجدنا ازدهاراً في كل جوانب حياتنا الفكرية. ولعنة الله على بعض وسائلنا الإعلامية التي قامت بتسليط الأضواء حول أناس تحسبهم من الأدباء والمفكرين وهم من الأشباه والأقزام وصغار القوم وأنصاف أو أرباع المتقنين. لعنة الله على أكثر الجوائز التي انتشرت في عالمنا العربي، والتي لا تعطى في الأغلب والأعم إلا للأشباه والأقزام وأصحاب النفوذ

والمصالح، والذين يجيدون لعبة الملاكمة والمصارعة، وبحيث تكون أعمالهم صالحة لدنيا الأجسام، ولا صلة لها بدنيا الفكر، دنيا الثقافة.

نقول هذا ولا نتردد فى تكراره، طالما نجد فى أرضيتنا الثقافية النقدية، من يفسد فيها، ويريد لدنيانا الثقافية، أن تصبح خرابا بلقعا. نعم إن المتأمل فى حياتنا الثقافية يجد أن الفكر السائد الآن هو فكر الأقزام، وتوجد أسباب عديدة جعلت هذا الفكر - للأسف الشديد - هو السائد فى أكثر بلداننا العربية.

هذا الفكر يختلف عن فكر الدول الأوروبية بوجه عام، ففكر الدول الأوروبية يعد فكرا حيا ناضجا، أما فكرنا نحن فيعد فكرا فقيرا.. فكرا زائفا.. فكرا ميتا، ومن هنا لا نجد له أى أثر يذكر، ومن النادر أن تهتم به البلدان الأوروبية، لأنه فكر كسيح وليس فكرا ناضجا.

وتوجد أسباب عديدة جعلت فكرنا جافا زائفا لا فائدة منه، ولا بد من التصدى لهذه الظاهرة وعلاجها لا يكون عن طريق محلول معالجة الجفاف الذى يعطى للأطفال، ولا يكون عن طريق غرف الإنعاش فى المستشفيات، لأنه فكر أصبح ميتا أو فى طريقه إلى الموت.

قلنا أنه توجد أسباب عديدة أدت إلى ظاهرة الفكر الذى يعبر عن فكر الأقزام والكائنات المشوهة . من هذه الأسباب أننا فى أحيان كثيرة نقدر الفكر بمعيار صاحب المنصب وهذه تعد معبرة عن ظاهرة "عملقة الأقزام" بمعنى أن الفكر إذا صدر عن صاحب منصب، فإن السذج من الناس ونوى العقلية المسطحة يظنون أن هذا الفكر لابد أن يكون فكرا جيدا فى حين أنه على العكس تماما إذ يعد فكرا كسيحا، فكرا فقيرا وإلا كيف نبرر أن الفكر الجاد رفيع المستوى إنما هو من صدر عن أناس لم يتقلدوا منصبا من المناصب.

أذكر أنى حين أردت عمل نظارة طبية وسألت بعض الناس عن اسم طبيب له خبرة فى هذا المجال، رشح لى البعض اسم طبيب قلت لهم: هل أنتم على يقين من براعة هذا الطبيب؟.. فقالوا: نعم نحن على يقين، لأن هذا الطبيب كان صاحب منصب من المناصب الإدارية الكبرى.

أرايتم أيها القراء الأعزاء سيطرة المنصب وخداع أصحاب المناصب...!! إننى على يقين بأن هذا الفكر لو قال به صاحبه، بصرف النظر عن منصبه، فإن مكانه الطبيعى هو صناديق القمامة كما قلت والعياذ بالله. ومن العجيب أن الفيلسوف الانجليزى فرنسيس بيكون قد نبهنا إلى ذلك منذ أكثر من ثلاثة قرون، ولكننا لم نضع ذلك فى اعتبارنا واكتفينا بالبكاء على الأطلال وأخذنا نقول: أمجاد يا عرب أمجاد... نعم إننى مضطر لأن أذكر تلك الحقيقة المؤلمة، نظرا لأننا نجد على أرض حياتنا الثقافية من يفسد فيها.

سبب ثان وراء انتشار هذا الفكر، أى فكر المتخلفين عقليا وبالتالى غياب الروح النقدية هو ما نسميه انتشار ظاهرة "البتروفر"، أى الفكر الذى يرتبط بالبترول ارتباط البترول بالدولار، وأكثر من يكتبون الآن للأسف الشديد، إنما نجد فكرهم معبرا عن ظاهرة "البتروفر" فإذا كتبت مقالة عن فكر عقلية رجعية، فإنك ستنتال التقدير المادى. أما إذا كتبت عن عقلية تنويرية لا يرضى عنها من يملكون ثروات البترول والدولار "كابن رشد" مثلا فإنها فى الغالب سوف لا تنشر وبحيث يستحق صاحبها العقاب من هؤلاء الذين يتمسكون بالفكر الفقير: فكر الأقزام. وإلا كيف نبرر أن دول العالم الأوروبى بصفة خاصة هى التى اهتمت بفكر "ابن رشد" وقامت بالاحتفال بمرور ثمانية قرون ميلادية على وفاته. أما نحن فماذا فعلنا؟!.

سبب ثالث لهذه الظاهرة المؤسفة يتبلور حول عدم إهتمامنا بفتح النوافذ على الفكر الغربى فأصبح فكرنا ميتا وأصيب بضيق التنفس، وبحيث

لا نجد لدينا أية نظرية علمية، وأية نظرية فكرية أدبية فلسفية نقدية، ومن يزعم غير ذلك كمن يحارب طواحين الهواء. ومن أراد لنفسه الثقافة الجادة، الثقافة الحية، فلا مفر من أن ينهل من الفكر الأوروبي. هذا قدرنا، لأن فكرنا أصبح فكر أصحاب المناصب. أصبح فكرا معبرا عن البترول، فكرا يعد بعيدا بعدا تاما عن الفكر الجاد، وبحيث أصبحت المسافة بينه وبين الفكر العميق أبعد من المسافة بين الإنسان والجن. بين المشرق والمغرب.

لا يمكن أن نتنظر فكرا رفيع المستوى وبحيث نقدمه لأوروبا ونقول لهم هذه بضاعتنا الجديدة إلا إذا تخلصنا تماما من الفكر الذي يرتبط بالمنصب. الفكر الذي يرتبط بالبترول، الفكر الذي يحاط بهالات إعلامية دون مبرر. ويقينى أن هذه النوعية من الفكر إذا استطاعت خداع الناس لفترة من الزمان، فإنها لن تستطيع الإستمرار فى عملية الخداع.

أفيقوا يا عرب.. فنحن الآن فى عصر جديد نجده فى أوروبا، ولكن رغم ذلك فإنه لا يوجد دليل واحد على أننا سنبتعد عن الفكر الفقير، الفكر الزائف.. فكر الأقزام. ومن هنا فلا يصح أن نتوقع أن نجد لدينا نقدا جادا، نقدا علميا، نقدا موضوعيا. نقول هذا، لأنه يرتبط ارتباطا وثيقا بقضية المحلية والعالمية.

لقد كثر فى السنوات الأخيرة الحديث عن قضية العالمية، وهل يعد أدبنا العربى أدبا عالميا؟ ونود الكشف عن الأخطاء والمغالطات التى نجدها عند من يتصورون أن أدبنا العربى أدب عالمى . نود أن نبين أن أدبنا العربى وبكل صوره وأنواعه لا يخرج عن نطاق المحلية، وأن المسافة بينه وبين العالمية أبعد من المسافة بين الإنسان والجن، بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى.

إننا إذا نظرنا إلى أدبنا العربي شعرا كان أو نثرا وخاصة في عصرنا الحديث، فسنجد أنه يعد مسرفا في المحلية والإقليمية، إذا فهمه أبناء الوطن العربي، فإنه من منظور الغرب بصفة خاصة يعد أدبا هزيلا لا يزيد أكثره - وخاصة في مجال الشعر - عن كونه مجموعة من الكلمات المتقاطعة والتي لا يفهمها القائل بها، فضلا عن القراء..؟

فالعالمية لها شروطها وقواعدها. تقتضى العالمية أن يكون الأديب صاحب اتجاه ليس مجرد مقلد للآخرين . فصاحب الاتجاه والذي يلتزم بقواعد العمل الأدبي، تلك القواعد التي نجدها مذكورة في كل كتب النقد الأدبي الأجنبية بصفة خاصة، من حقه أن يكون داخلا في إطار العالمية ، وأن يكون أدبه متصفا بصفة العالمية. إن أدبه يتخطى حدود الزمان والمكان.. لغته الأدبية لا تكون موجهة إلى أبناء وطنه فقط وفي زمن معين، بل إنها تكون موجهة إلى أبناء البشرية وبصرف النظر عن الحدود الزمانية والقيود المكانية.

ندلل على ذلك بالقول بأن مسرحية لشكسبير أعظم شعراء العالم لا تكون موجهة إلى الشعب الانجليزي في عصر معين، ولكنها موجهة إلى كل أبناء العالم في كل زمان وفي كل مكان، أليس هذا على العكس تماما من أدبنا العربي. إن الأديب العربي لا يكتب إلا وهو يضع في اعتباره أن قصته لابد أن تكون ملائمة لإخراجها كمسلسل تليفزيوني، أو فيلم من الأفلام السينمائية، يقبل عليهما عامة الناس أساسا. وهذا يعد دليلا قويا على أدبنا العربي المحلي الضحل لقد ضربنا بقواعد العمل الأدبي عرض الحائط. واستحال النقد عندنا كما قلنا إلى نوع من الشللية، هذا في الوقت الذي كان ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن العمل الأدبي إذا كان معبرا عن الذات إلا أن النقد، نقد العمل الأدبي، يعد كما قلنا علما لافنا، يعد موضوعيا وله قواعده ولا صلة له بالذاتية.

هذا الفهم الخاطئ للنقد الأدبى، أدى بنا إلى الرجوع إلى الوراء، والصعود إلى الهاوية. وإذا كنا لا نجد نشاطا فى مجال النقد الأدبى، فإن سبب ذلك أننا لا نجد أعمالا أدبية تستحق أن يقف عندها الناقد الجاد. لقد اختفت الأعمال الأدبية الجادة التى كانت تدفع بحركة النقد إلى الأمام تماما كما نقول إننا إذا طلبنا من عالم كبير أن يتحاور مع مجموعة من المتخلفين عقليا، فإن ذلك العالم سوف لا يقبل ذلك، لأنه لا يتحاور إلا مع أمثاله. فإذا كنا نجد الآن مجموعة من القصص والمسرحيات لا تعبر إلا عن نوع من ثرثرة النساء، والحديث على المقاهى، فهل ننتظر من الناقد أن يتصدى لنقد هذه الأعمال الهزيلة.. إننا لا نجد الآن فى عالمنا العربى المعاصر شخصا واحدا يمكن أن نطلق عليه صفة الشاعر، إلا إذا فهمنا الشعر على أنه مجموعة من الكلمات المرصوفة بجوار بعضها البعض دون وعى ولا شعور. وإذا قيل بأن هذه الكلمات تعد شعرا حديثا لأنها لا تلتزم بقواعد الشعر كما ينبغي أن يكون وكما قال به شعراء عظام من أمثال أبى العلاء المعرى والمتنبى وابن الرومى فإن سبب ذلك أن من يطلقون على أنفسهم الآن أنهم من الشعراء، ليست لديهم القدرة على إبداع قصيدة واحدة تلتزم بقواعد العمل الفنى والأدبى. إنهم يمثلون العجز والإفلاس وإذا كان أدبنا العربى على اختلاف صورته يمثل هذه الحالة التى يؤسف لها، فمن الغريب إذن أن نجد بعض الأصوات التى تصدر عن أناس من متخلفى العقول، تقول عن إنتاجها الهزيل وكتاباتها الضعيفة إنها تستحق جائزة نوبل، وإنها ترقى إلى مستوى العالمية !!! إننا إذا استبعدنا الضجة الإعلامية والطبل الأجوف، فإننا نقول ونكرر القول بأننا إذا وجدنا اقترابا من دائرة العالمية فى أشعار العرب القدامى وسواء عبروا من خلال أشعارهم عن أدب التعبير (البحترى)، أو أدب التفسير (أبو العلاء المعرى والمتنبى)، فإننا نجد ابتعادا تاما عن دائرة

العالمية في كل أنشطة الإنتاج الأدبي الحديث، هذا إذا سلمنا أساساً بأن هذا الإنتاج يعد داخلاً في مجال الأدب.

أليس من مصائب الزمان أن نقول بما يسمى "الأدب النسائي" في الوقت الذي نجد فيه أن المرأة العربية بصفة خاصة ليست لديها القدرة أصلاً لكي تقدم لنا أى شئ في مجال الأدب. وحلوا ما شئتم من كتابات للمرأة، يقال عنها إنها تعد أعمالاً أدبية، وسترون أن كل هذه الأعمال لا صلة بينها وبين الأدب من قريب أو من بعيد، إنها أحاديث منزلية وكلمات تقال في صالونات المنازل.

وإذا قيل بأن أديبنا الكبير نجيب محفوظ قد حصل على جائزة نوبل، فإننا نقول إن هذا لا يعد دليلاً على العالمية. لقد ذكر لى أديبنا الكبير نجيب محفوظ في لقاء ثم بيننا أنه حصل على الجائزة لأنه لم يكن موجوداً في عصر العمالة من أمثال طاغور فإذا كان نجيب محفوظ وهو من هو في مجال الأدب الرفيع يقول، بهذا القول فهل يصح أن يذكر أشباه الأدباء عندنا، أن أدبهم قد دخل في نطاق العالمية. كلا ثم كلا. إن نتاج مطابعتنا العربية. لا يكشف إلا عن أدب ضعيف المستوى، أدب محلى مسرف في المحلية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

نقول هذا ولابد من تكرار القول به، لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بغياب النقد الجاد، النقد البناء، النقد الذي يعد كما قلنا علماً، وليس نوعاً من الفهولة والمجاملة بلا أدنى مبرر.

إنه غير مجد في ملتي واعتقادي قيامنا نحن كعرب بالتغنى بأمجاد الماضي والبكاء على الأطلال، وبحيث نقول باستمرار في المجال الفكري أمجاد يا عرب أمجاد. ليس من المناسب إذن أن نقف عند التراث لمجرد أنه تراث، بل لابد من أن نتجاوز مرحلة التراث، بحيث ننفث بكل قوتنا على

التيارات العلمية والفكرية والأدبية والفلسفية والتي تزدهر الآن فى البلدان الأوروبية بصفة خاصة.

إن من يتأمل تاريخنا الفكرى كعرب سوف يصاب بالدهشة البالغة حين يقارن بين الماضى والحاضر، الماضى يعد مزدهرا بصورة لا حد لها، أما الحاضر فقد أصبحنا للأسف الشديد وكأننا ليس لدينا إبداع فى أى مجال من مجالات العلوم الإنسانية وغير الإنسانية. أصبحنا أصحاب توكيلات فكرية وبحيث ساد فكرنا نوع من التراخى والإضمحلال وانتشر أناس من متخلفى العقول بيننا وأشبه الباحثين.

نعم.. كان الماضى السعيد مزدهرا بالعديد من التيارات العلمية والفكرية والفلسفية، وجدنا فى الماضى فلاسفة من طراز ممتاز أمثال الفارابى وابن سينا فى المشرق العربى، وابن ماجه وابن طفيل وابن رشد فى المغرب العربى. وجدنا أدباء قد يصل إنتاجهم الأدبى إلى مرحلة تقرب إلى العالمية من أمثال المتنبى وابن الرومى وأبى العلاء المعرى. وجدنا فى الماضى علماء آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم وقدموا لنا نتاجا علميا من أمثال جابر بن حيان والحسن بن الهيثم والبيرونى وابن سينا وأبى بكر الرازى. وكم استفاد العرب من مؤلفاتهم فى فجر نهضته العلمية وبعد أن تمت ترجمة كتبهم إلى العديد من اللغات الأوروبية.

هذا شئ لا بد أن نعترف به فالعيب إذن ليس فى طبيعة العربى. فإذا وجدنا نوعا من الصعود إلى الهاوية، وجدنا اضمحلالا ثقافيا، وجدنا تراجعاً عن الإزدهار العلمى وعدم مواصلة السير فى طريق العلم وبحيث يمكننا أن نقول دون أدنى مبالغة بأننا إذا أردنا كتابة تاريخ العلم الذى يؤدى إلى تطبيقات تكنولوجية، فإن العرب لا يستحقون إلا سطرا واحدا أو سطرين من هذا التاريخ الحافل، نقول... بأن المقارن بين حالتين، حالة الماضى وحالة الحاضر، بين مرحلتين: مرحلة كانت تمثل الماضى ومرحلة تمثل الحاضر

الذى نعيشه الآن، فإن المقارن سوف يشعر بالأسى والحزن والأسف حين يجد فى الماضى نماذج مشرقة ولا يجد فى الحاضر إلا نماذج خافتة شاحبة لا تمثل أى نوع من أنواع الإزدهار والتقدم.

ما هى الأسباب إذن التى أدت إلى هذا التناقض والخلاف الكبير بين أمجاد الماضى والجفاف الفكرى فى الحاضر لدينا نحن العرب؟

لابد أن نعترف صراحة بأننا لن نفتح على التيارات الفكرية والعلمية عند البلدان الأوروبية، إن حكمة الله تعالى قد تمثلت فى خلق عيوننا فى مقدمة رؤوسنا، وكأن الله تعالى يطلب منا أن ننظر إلى الأمام باستمرار، ننظر إلى المستقبل المشرق الوضاء، وبحيث ننظر فى غضب إلى الماضى إذا وجدنا فيه كما من الخرافات قد لا تصلح لعصرنا الحديث، عصر العلم عصر العقل عصر النور والتتوير.

إن معالجة الجفاف الفكرى والذى انتشر بيننا الآن كعرب، لا يكون علاجه بطبيعة الحال عن طريق محلول الجفاف والذى يعطى للأطفال، بل إن معالجة الجفاف الفكرى لا يكون إلا عن طريق فتح النوافذ أمام كل التيارات الحديثة، التيارات التى توجد الآن فى البلدان الأوروبية. ولا يصح أن نخشى شيئاً من انفتاحنا على هذه التيارات والتأثر بها والأخذ عنها، إذ أن صاحب المعدة القوية لا يخشى من تناول أى نوع من أنواع الطعام.

إن من قبيل إضاعة الوقت أن نتحدث عن قضايا أصبحت زائفة. قضايا فى خبر كان إن صح التعبير. قضايا لا يتحدث عنها الآن إلا من هم على درجة قليلة من الذكاء، وعلى درجة كبيرة من التخلف العقلى والعياذ بالله.

من هذه القضايا وعلى سبيل المثال لا الحصر، قضية الهجوم على الحضارة الأوروبية ومن المؤسف له أن من يهاجمون الحضارة

الأوروبية لا يضعون في اعتبارهم أن العالم أصبح قرية صغيرة وأنه لا مفر من التعرف على كل جوانب الثقافة الأوروبية.

من المؤسف له أن من يهاجمون الحضارة الأوروبية يكونون عادة من أكثر الناس استفادة من تطبيقات هذه الحضارة بل إن من يهاجم هذه الحضارة ويسعى في نفس الوقت إلى الاستفادة من منجزاتها الرائعة إنما يعبر موقفه عن نوع من التناقض، إذ كيف أهاجم الحضارة الأوروبية عن طريق ميكروفون، وهذا الميكروفون ثمرة من ثمرات الحضارة الأوروبية عن طريق ميكروفون، حين أقوم بتأليف كتاب يطبع في المطبعة، والمطبعة ثمرة من ثمرات هذه الحضارة. كيف أهاجم الحضارة الأوروبية وأقوم في نفس الوقت باستخدام الطائرة والسيارة في تنقلاتي وكلها تعد إنتاجا أوروبيا؟!.. وهكذا إلى آخر الأمثلة التي أضاع العرب وقتهم فيها دون فائدة وبحيث أصبحنا كعرب أضحوكة بين أمم العالم الأخرى، الأمم التي أرادت لنفسها التقدم إلى الأمام. ومن حكمة الله تعالى أن المتأخر لا بد أن يلحق بالمتقدم، ولا يصح أن نطلب من المتقدم أن يقف في مكانه حتى يلحق به المتأخر. هذه سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

أفيقوا يا عرب، فالعالم ليس فيه مكان للضعيف نظرا وعملا. العالم ليس فيه مكان إلا للقوى علما وعملا. ألم نضع في اعتبارنا أن أكثر - إن لم يكن كل الإنجازات العلمية - التي ننعم بها الآن إنما تمت خلال قرون ثلاثة فقط هي القرن الثامن عشر، والتاسع عشر، والقرن العشرون. إن الإنجازات التي تمت خلال هذه القرون إنما كان أكثرها آتيا من العالم الأوروبى. العالم الذى لم يقف عند تراثه فقط وبحيث يقوم بالتغنى بأمجاد ماضية كما نفعل نحن العرب حاليا، بل إنه ترك ماضيا وانطلق للإبداع بكل صوره، أما نحن العرب فقد أصبحنا نأخذ من الحضارة الأوروبية، نستهلك

الحضارة ولا نسهم بنصيب، أى نصيب. أصبحنا كما نقول أصحاب
توكيلات فكرية.

كم من القضايا الزائفة التى قمنا بإضاعة وقتنا فى بحثها كقضية
أسلمة العلوم، وقضية تصور صراع بين التقدم العلمى والأخلاق، وغيرهما
من قضايا ثار حولها الجدل، بل اللغط . إن غياب البعد النقدى هو الذى أدى
إلى هذا الكم من الأخطاء، بل المغالطات.

فلننتقل إذن كعرب حتى نحاول وصل ما انقطع، وصل حاضرننا
بماضيها السعيد وحتى لا نستمر فى لطم الخدود والبكاء على الأطلال، وبحيث
نسهم مستقبلا فى بناء الحضارة الإنسانية العالمية، وحتى لا نكون مجرد
أخذين من الحضارات الأخرى. لا نكون مجرد متفرجين أو مشاهدين، بل
نقوم بعمل إيجابى، بفعل حيوى نشيط.

إنها دعوة من جانبنا نرجو أن تجد صداها فى نفوس وعقول الذين
يعتزون بعروبيتهم، الذين يشعرون بالأسى والحسرة حين يقارنون بين الماضى
السعيد وبين الحاضر الذى إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على أننا فى حالة
صعود ولكنه ليس صعودا إلى الأمام بل هو صعود إلى الهاوية وبئس
المصير.

نعم لابد من القيام بثورة نقدية، ويقتضى أن هذه الثورة ستؤدى إلى
تصحيح العديد من الأخطاء والمغالطات. إنها ثورة ستكشف لنا عن الشهرة
الزائفة، الشهرة العمياء، ستبين لنا أن أكثر من نقول عنهم فى أوطاننا العربية
إنهم من المثقفين، وإنهم من النقاد، ليسوا بمثقفين بل أشباه مثقفين، ليسوا نقادا
بل أصحاب النقد الزائف، النقد الخادع، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

ثانيا: موضوعات الكتاب من منظور ثورة النقد:

قسمنا كتابنا "ثورة النقد" إلى قسمين رئيسيين: قسم ركز على القضايا والمشكلات من منظور ما قصدنا إليه من مصطلح "ثورة النقد" ونحن نعلم أن رأينا سيثير في نفوس ووجدان الكثير من متقينا العديد من أوجه الخلاف. ولكن الاختلاف في الرأي من طبيعة الفلسفة والتفلسف. أما إذا كان الخلاف مركزا على الأصول والأسس، فإننا نقول للمخالفين: لكم دينكم ولنا دين.

لقد حاولنا في الفصل الأول من هذا القسم الكشف عن مجموعة من الأحكام الخاطئة في مجال الفكر العربى وذلك بعد اهتمامنا بفكرنا العربى منذ أكثر من أربعين عاما. وحاولنا في الفصل الثانى الإجابة عن سؤال محدد هو: هل استعد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟ وميزنا فى الفصل الثالث بين المتقنين الذين يبحثون عن نور الوجود، وأشباه المتقنين الذين ارتضوا لأنفسهم ظلام العدم وبئس المصير.

والتمييز بين المتقنين وأشباه المتقنين أدى بنا إلى البحث عن العديد من القضايا والمشكلات ابتداء من "البتروفر" ثم البحث عن تحديد لمعنى "المتقف" و المتقف والمجتمع، وشبابنا وقضية الثقافة، ولغة النور ولغة الظلام وثقافة النور وأساطير الظلام، وأسطورة الغزو الثقافى، والفكر المصرى وتقديس العقل والتتوير، والتليفزيون وإعلان الحرب على الثقافة، واغترابه عن العقل، وقصة الهجوم على الرواد من جانب الصغار والأقزام، وجائزة نوبل وقصة المحلية والعالمية.. إلى آخر تلك القضايا والمشكلات التى قمنا بحصرها وسبر أغوارها لأنها ترتبط فى رأينا ارتباطا وثيقا بالحديث عن "النقد" وثورة النقد.

أما موضوع الفصل الرابع، فكان عن التسامح الدينى وذلك من خلال دراسة موضوعات الإرهاب، والوحدة الوطنية، والكتاب الدينى، والرؤية القبطية فى الثقافة، المصرية والعربية.

ودرسنا فى الفصل الخامس أحوال جامعاتنا العربية وكيف تخرج من واقع حاضر مؤلم إلى مستقبل مشرق، تخرج من حالة اغترابها عن العقل والثقافة إلى الدخول فى حالة ازدهار ثقافى مؤثر وواضح وملاموس.

أما موضوع الفصل السادس، فكان يدور حول مجموعة من القضايا التى يغلب عليها البعد السياسى، ومن بينها الإجابة عن سؤال هو: كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة؟ وذلك بعد أن انتشرت حالات التزوير فى مجال كتابة التاريخ، وحالات المذكرات الكاذبة. وقد يكون من الشائع فيما نرى من جانبنا أن تكتب راقصة مذكراتها وتزعم لنفسها وللناس مجموعة من الأحداث التى تعد خيالاً فى خيال. أما أن نلجأ إلى الكذب تارة، والتزوير تارة أخرى فى مجال الكتابة التاريخية، فإن هذا هو الشر المستطير، والكارثة الكبرى، الكارثة التى ستؤدى إلى القضاء على الصالح، والإبقاء على الفاسد، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

وأشرنا فى هذا الفصل إلى مجموعة من القضايا الأخرى، من بينها: العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى، وأزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل، وهل تسهم أحزابنا العربية فى البناء الثقافى، وحرب أكتوبر والرؤية النقدية.

إنها قضايا نحسبها رئيسية، فالإنسان حيوان سياسى كما يقال. وثورة النقد لا تقتصر عادة على مجال دون مجال آخر، بل إنها تشمل العديد من المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية، والسياسية.

أما الفصول الثلاثة التالية، فقد درسنا من خلالها موضوع روايات الخيال العلمي، ورؤيتنا النقدية لما يسمى بأدب المرأة في عالمنا العربي، وقضية الإستشراق والمستشرقين.

هذه مجموعة من نماذج المشكلات والقضايا التي قمنا بمعالجتها وقمنا بتقديم رأينا حول كل مشكلة أو قضية، وكل ما قصدنا إليه خلال الفصول التسعة التي تضمنها القسم الأول من كتابنا تقديم رؤيتنا النقدية والتي تقوم على اقتلاع الطالح والإبقاء على الصالح.

أما القسم الثاني، فكان جانباً تطبيقياً يتصل اتصالاً ضرورياً ولا زماً بالموضوعات والقضايا التي قمنا بإثارتها في القسم الأول من كتابنا. لقد كان محور القسم الثاني تقديم رؤيتنا النقدية حول مجموعة من الكتب والشخصيات في عالم الأدب والفلسفة والسياسة. وشملت رؤيتنا النقدية الحديث عن الماضي القديم، كما شملت دراسة الحاضر الحديث. وقد تضمن هذا القسم من كتابنا ستة وثلاثين فصلاً، تمت كتابتها خلال سنوات زادت عن ربع قرن من الزمان، وأعدنا النظر فيها مرات ومرات حتى وصلنا إلى ما ارتأيناه ضرورياً من خلال التزامنا بالنقد كما تصورناه من جانبنا،

كلمة أخيرة نراها ضرورية. لقد قمنا بإهداء كتابنا إلى روح زعيم غادرنا إلى عالم الآخرة زعيم آمن بربه وآمن بوطنه، زعيم ظلم حياً وظلم ميتاً زعيم التقيت به في شبابه واتفقت معه كثيراً واختلفت معه قليلاً لقد فرق الموت بيني وبين أن التقي به وأنا استعد لمغادرة دنيانا الفانية، الدنيا التي لم أجد فيها إلا الألم والشقاء . إنه الزعيم مصطفى النحاس باشا. وبشاء القدر أن أكتب آخر كلمات تصديري لكتابي هذا في ذكرى اليوم الذي اهترت فيه مصر من أقصاها إلى أقصاها، يوم موت الزعيم، في الثالث والعشرين من شهر أغسطس. إنه نفس اليوم ونفس الشهر الذي توفي فيه الزعيم سعد زغلول. إنه القدر، وما أعجب حكم القدر. إنه نفس اليوم ونفس الشهر، وإن

كان سعد زغلول قد توفي عام ١٩٢٧م، فقد توفي مصطفى النحاس عام ١٩٦٥م.

نرجو بعد هذا كله أن نكون قد سبرنا أغوار العديد من مشكلاتنا الأدبية والفلسفية والسياسة من خلال منظور "ثورة النقد" منظور تكونت لدينا خيوطه طوال أعوام عديدة متصلة قضيناها في صومعتنا الفكرية في غربة عن الناس والمجتمع الصومعة التي نقول فيها دوماً: لقد أن لنا أن نستريح من شقاء الدنيا وألم الحياة والوجود وغدر الإنسان بأخيه الإنسان. فمرحبا بالموت وما فيه من سعادة الأبد. مرحبا بعدم حياة وجدت فيها صدق التشاؤم وكذب التفاؤل، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. والله هو الموفق للسداد.

مدينة نصر في الثالث والعشرين من شهر أغسطس عام ١٩٩٩م

عاطف العراقي

القسم الأول

قضايا ومشكلات (من منظور ثورة النقد)

ويتضمن هذا القسم الفصول والقضايا والمشكلات التالية:

الفصل الأول: أحكام خاطئة في مجال الفكر العربى.

الفصل الثانى: هل استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟ (منظور نقدى).

الفصل الثالث: مثقفون وأشباه مثقفين (الفكر والبتروفيكر).

الفصل الرابع: التسامح الدينى.

الفصل الخامس: جامعاتنا والطريق نحو المستقبل.

الفصل السادس: العرب ونماذج من القضايا السياسية.

الفصل السابع: دفاع عن الإستشراق والمستشرقين.

الفصل الثامن: روايات الخيال العلمى (برؤية نقدية)

الفصل التاسع: رؤية نقدية حول ما يسمى بأدب المرأة فى عالمنا العربى.

الفصل الأول

أحكام خاطئة في مجال الفكر العربى

(تصحيح المسار برؤية نقدية)

"من الأحكام الخاطئة، القول بأن النقد لا يعد علما. كلا: إن الفن إذا كان يعبر عن روح ذاتية، إلا أن النقد يعد معبرا عن الاتجاه الموضوعى، عن الوقفة الموضوعية. إنه يعد علما. ولكن ماذا نفعل أمام صغار الباحثين وأشباه الدارسين والذين تعد كتاباتهم جهلا على جهل وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

الفصل الأول

أحكام خاطئة في مجال الفكر العربى

" تصحيح المسار برؤية نقدية "

المحلل والدارس لكثير من الأحكام التى يصدرها البعض منا نحن العرب على فكرنا العربى سواء ما يمتل منه مجال الأدب أو الفلسفة أو غيرهما من مجالات تدخل فى إطار الفكر والثقافة، يجد أن الكثير من هذه الأحكام خاطئة ومشوهة وبلغت حد السذاجة والسطحية إلى أكبر درجة.

ومن الغريب أننا إذا كنا نقوم بالرد على بعض المستشرقين حين يصدرن بعض الأحكام على فكرنا العربى، فإننا فى الواقع نصدر من جانبنا أحكاما تعد معبرة عن الجهل وعدم الموضوعية أكثر من الأحكام التى يصدرها بعض المستشرقين نعم لقد أصدر نفر منا الكثير من الأحكام التى شوهت فكرنا العربى؟ وهذا يعنى أننا قمنا بتشويه فكرنا العربى أكثر من محاولات بعض المستشرقين.

من الأحكام الخاطئة، القول بأن النقد لا يعد علما. كلا إن الفن إذا كان يعبر عن روح ذاتية، إلا أن النقد يعد معبرا عن الإتجاه الموضوعى، عن الوقفة الموضوعية. إنه يعد علما. ولكن ماذا نفعل أمام صغار الباحثين وأشباه الدارسين، والذين تعد كتاباتهم جهلا على جهل، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. ومن هذه الأحكام التى نرى من جانبنا أنها تعد أيضا أحكاما خاطئة، الحكم على مفكرينا من أمثال محمد عبده وطه حسين وعباس العقاد، بأنهم لم يقدموا شيئا جديدا لأنهم كانوا عالة على أكثر من مفكر أو فيلسوف أو أديب غربى سبقهم إلى الوجود.

إن هذا يعد حكما خاطئا لأن من أصدروه يكشفون عن جهلهم أو تجاهلهم بأن المفكر أو الأديب لابد وأن يتأثر بالسابقين بأى صورة من صور التأثير ولكن هذا لا يجعله صورة طبق الأصل من مفكر أو أديب سبقه، إذ لو كان صورة طبق الأصل لما أفردنا له مجالا فى تاريخ الأدب أو تاريخ الفكر بصورة عامة. بالإضافة إلى أننا يجب أن نضع نصب أعيننا أن التأثير بالسابقين يعد ظاهرة صحية ولا يعد ظاهرة أو علامة مرضية.

حكم آخر من الأحكام الخاطئة يعد مختلفا تماما عن الحكم السابق. يذهب بعض الباحثين المتسرعين إلى نفي تأثر مفكرينا بمن سبقهم من مفكرين. فإذا قال فلاسفة العرب مجموعة من الأفكار استفادوها من فلاسفة اليونان، فإننا نجد أمرا يدعو إلى العجب من جانب بعض الباحثين الذين يتصورون أن فلاسفتنا قد قالوا بما قالوا به من أفكار لأول مرة ولم يكونوا مسبوقين بغيرهم من الفلاسفة والمفكرين. إن هذا الحكم من جانب بعض المتسرعين يكشف عن جهلهم بتاريخ الأفكار أدبية كانت أو فلسفية (ولو كلفوا أنفسهم الرجوع إلى الماضى لما وقعوا فى تلك الأحكام الساذجة والخاطئة).

من الأخطاء التى تقع فيها أيضا أننا فى أحكامنا على مفكرينا نلجأ إلى الأحكام العامة بمعنى أننا نقول أن "أ" من المفكرين كان مفكرا ممتازا، "ب" من المفكرين كان سيئا فى تفكيره وهكذا. ولعمري أن تلك الأحكام تعد أحكاما خاطئة قلبا وقالبا. إننا إذا قمنا بدراسة تراث كل أديب أو مفكر فيجب علينا التنبيه إلى إيجابياته وسلبياته أيضا. فإذا كان لشوقي دوره الكبير فى مجال الشعر، إلا أننا يجب أن ننبه إلى أن البعد الذاتى الذى يجب أن يتوافر فى الشعر، غير واضح عند شوقي ومن هنا كان شعره أقرب إلى النظم منه إلى الشعر بمعناه الدقيق. وإذا كان لجمال الدين الأفغانى إيجابياته فى مجال السياسة ومجال الإصلاح الدينى، إلا أننا يجب أن ننبه إلى عدم دقته فى

أحكامه الفلسفية وضحالة بضاعته الفلسفية وموقفه الخاطئ من العلم والحضارة الأوروبية.

ومن أحكامنا الخاطئة التي شاعت كثيرا في السنوات الأخيرة سواء في كتبنا وصحفنا، أننا نسارع بإثبات تأثير أفكار فلاسفتنا وأدبائنا على المفكرين الذين عاشوا بعد مفكرينا العرب. وأمثلة تلك الأخطاء لا حصر لها ومن بينها الذهاب خطأ إلى تأثير ديكارت بالغزالي وتأثير كانت Kant بالغزالي وتأثير ديفيد هيوم الفيلسوف الإنجليزي بالغزالي وتأثير الوجوديين من الأدباء والفلاسفة بالمعتزلة في قولهم بحرية الإرادة الإنسانية وهكذا (إلى آخر الأخطاء التي يقع فيها أكثر الباحثين عندنا. إننا نظن أن مكانة المفكر تتحدد على أساس تأثر من عاشوا بعده به وهذا يعد خطأ نظرا لأننا نعلق أهمية مفكرينا على مدى تأثر اللاحقين بهم في حين أننا يجب أن نعتقد أن أبا العلاء المعري يعد عظيما حتى إذا لم يتأثر به دانتى، والمعتزلة عظماء حتى إذا لم يتأثر بهم أصحاب المذهب الوجودى وهكذا).

هذا يعنى أننا يجب أن نكون على حذر تام حين نتحدث عن فكرة التأثير والتأثير، تأثر مفكرينا بمن سبقهم وتأثيرهم فيمن عاشوا بعدهم، لأن الفكرة إذا انتقلت من بيئة إلى بيئة أخرى، فقد تكون لها دلالات فى البيئة الجديدة تختلف اختلافا يكاد يكون جذريا عن بيئتها القديمة (إن المتسرعين فى إثبات فكرة التأثير والتأثير قد أساءوا إلى فكرنا العربى وشوهوا أفكار مفكرينا من العرب وكانوا كالدبة التى أرادت حماية صاحبها ولكنها أصابت منه مقتلا).

خطأ آخر ضمن أخطاء لا حصر لها يقع فيها الدارسون لفكرنا العربى. وهذا الخطأ يتمثل فى تقديس التراث بكل ما فيه حتى لو تضمن مجموعة من الخرافات. إن التراث يعنى ما خلفه السابقون علينا. والسابقون علينا هم مجموعة من أفراد البشر. والبشر معرضون للوقوع فى العديد من

الأخطاء و لقد قالوا ما قالوا به بحكم عصرهم ومكانهم (أى البيئة التى عاشوا فيها والزمان الذى عاشوا خلاله). وعصرنا الآن غير عصرهم فليس من الضروري إذن أن يكون كل ما قالوه صوابا. إننا لن نستطيع التقدم خطوة إلى الأمام ولن نجد أى أمل فى ظهور فلاسفة عرب إلا إذا كان لدينا الحس النقدي الذى بواسطته يكون لدينا القدرة على قبول فكرة من التراث ورفض فكرة أخرى. فليس كل ما نجده فى التراث يعد صالحا لعصرنا وبيئتنا، ولا يصلح أيضا أن نرفض التراث كلية حتى لا نصاب بفقدان الذاكرة، بل يجب أن تكون أحكامنا فى دراستنا للتراث العربى قائمة على أساس الروح النقدية.

من أخطائنا الأخرى التى نقع فيها دائما أننا نلجأ إلى التعسف فى فهم بعض أفكار مفكرينا فمن الحقائق الثابتة أن الفيلسوف العربى ابن رشد يقول بقدوم العالم، أى بوجود مادة قديمة وليس عنده الإعتراف بوجود العالم من العدم، ومع ذلك نجد البعض يلجأ إلى التعسف وسوء الفهم بسبب ضحالة بضاعته الفلسفيه بحيث ينسب آراء إلى هذا المفكر أو ذاك لم يقل بها. إن هذا الفريق من أشباه الدارسين قد أساء إلى فكرنا العربى إساءة بالغة، إساءة تتمثل فى نسبة آراء لبعض مفكرينا لم يقولوا بها إطلاقا.

من أخطائنا التى ترتبط بما ذكرناه منذ قليل، أن البعض منا بسبب التزامه باتجاه معين، يقع فى الخطأ حين دراسته لاتجاهات أخرى تختلف عن اتجاهه الذى يظن أنه الإتجاه الصحيح. فإذا غلب التيار الأشعرى أو التيار الصوفى على دارس معين فإننا سرعان ما نجده يقوم بالهجوم على المفكرين العقلين رغم أنهم أحسن ما عندنا وذلك لأنه يعلم أن التيار الأشعرى يعبر فى أكثر زواياه عن اللامعقول وكذلك الإتجاه الصوفى الذى يدخل فى اللامعقول إلى حد كبير. إن الموضوعية تفرض علينا وتلزمنا بأن نحترم رأى الذى نقوم بدراسته وتحليله، لا أن نلجأ إلى تشويهه وتزييفه، وإظهاره بصورة غير الصورة التى ذهب إليها القائل به.

الواقع أن أخطاءنا في مجال الفكر العربى تعد عديدة ولا حصر لها، وحينما يشيع الخطأ عدة سنوات، يظن البعض أنه أصبح حقيقة وواجبنا إعادة النظر فى أكثر أحكامنا الخاطئة فى مجال الفكر العربى وما أكثر مجالاته من أدب وفلسفة وفكر بوجه عام. لقد أدت بنا أحكامنا غير الناضجة والمتسرعة إلى القول على سبيل المثال بأن الغزالي يعد فيلسوفا فى حين أن الواقع يقول إنه لا يعد فيلسوفا من قريب.... أو من بعيد. لقد أدت بنا أحكامنا الخاطئة إلى تصور أن الشهرة هى معيار أن يكون الأديب، أديبا ممتازا، والواقع يقول إن الشهرة عمية. لقد أدت بنا أحكامنا الخاطئة إلى القول بوجود فلاسفة عرب فى عالمنا العربى المعاصر، والواقع يقول لا. وكل ما نرجوه هو أن نعيد دراسة أحكامنا التى أصدرناها على مجالات فكرنا العربى لأن أكثرها يعد خاطئا وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

والتساؤل هل لدينا مذاهب أدبية، هل لدينا فلسفة عربية، هل لدينا فلاسفة، يعد من أهم التساؤلات التى لا بد أن يسألها الإنسان فى عالمنا العربى، الإنسان الذى يجد أنه على الرغم من وجود مذاهب أدبية وفلسفية فى الماضى، إلا أنه لا يجد فى وقتنا الحاضر أى مذاهب أدبية، بل لا يجد أدبا يعد داخلا من قريب أو من بعيد فى إطار المذاهب الأدبية. إن العيب أو الخطأ الذى نقع فيه باستمرار هو أن نلجأ إلى البحث عن مجموعة من التبريرات، نبرر بها أخطاءنا، نبرر بها قصورنا عن إيجاد مذاهب أدبية.

إننا إذا تساءلنا: هل لدينا مذاهب أدبية؟ فإننا نقول إذا تمسكنا بالموضوعية والإدراك الشامل العميق، وتسلحنا بالشجاعة بعدم وجود مذاهب أدبية لدينا .

وما يقال عن المذاهب الأدبية، يقال عن المذاهب الفلسفية^(١)، فليس لدينا فى عالمنا العربى المعاصر، فلاسفة. ولا يمكن أن نعلل ذلك بقصر الفترة الزمنية بين إنشاء الجامعة المصرية، وبين ما نعيشه الآن. والواقع - فيما أرى من جانبى - أننا إذا كنا لا نجد مذاهب أدبية أو مذاهب فلسفية فإن ذلك لا يرجع إلى الحكم العثمانى، بل يرجع إلى مجموعة من الأسباب أشرنا إليها وهى كلها تعد أهم من الحكم العثمانى . علينا أن نبحث عن العيب فى أنفسنا فهذا أفضل من القول بأسباب سطحية، وإلا لحقتنا لعنة الأدباء والفلاسفة.

(١) سيجد القارئ أسباب ذلك فى كتابنا الذى سيظهر قريباً بعنوان "هل لدينا فى عالمنا العربى المعاصر فلاسفة؟"

الفصل الثانى

هل استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟

(منظور نقدى)

"الرؤية المستقبلية فيما نراها من جانبنا تقوم على الإنفتاح على كل الأفكار والتيارات من خلال منظور نقدى وبعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض. أما أن نظل فى حالة تقوقع حول أنفسنا بحجة التراث تارة، وبحجة أن الغرب سيقوم بابتلاعنا تارة أخرى، فإنها تعد من الحجج الزائفة وسنظل جامدين عندها دون أمل فى أدنى تقدم. ولا بد من وقفة نقدية تدك أرض التقليد دكا"

الفصل الثانى

هل استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد؟

(منظور نقدى)

التساؤل عن مدى استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد، يعد تساؤلاً هاماً، إذ أنه يرتبط بنوع من التحديات التي تواجه المسلمين سواء الآن، أو في القرون القادمة، تحديات سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية. فتقافة القرن الجديد تعد إذن نوعاً من أنواع هذه التحديات وما أكثرها. ويقينى أن هذا النوع، التحدى الثقافى يعد على رأس هذه التحديات إننا نستطيع الحكم على أى مجتمع من المجتمعات إذا عرفنا نوعيته ثقافته، وطبيعة الثقافة السائدة، بالإضافة إلى أن كل التطبيقات التكنولوجية إنما ترتبط بأفكار، ترتبط بقيم ثقافية معينة، سائدة فى مجتمع دون مجتمع آخر، بل إن الجوانب الاجتماعية والسياسية والحربية لا يمكن فصلها عن الجوانب الفكرية والثقافية.

نقول هذا رداً من جانبنا على ما يشاع فى الكثير من المجتمعات العربية الإسلامية الآن من أنه من الضرورى الأخذ بالتطبيقات التكنولوجية التى نجدها نتاجاً لأمريكا ودول أوروبا، دون أن نلزم أنفسنا بالأخذ بالأفكار. إنها فيما أرى تعد نوعاً من المغالطة لأن الأفكار ينتج عنها تطبيقات. وإذا اقتصرنا على أخذ التطبيقات فسوف لا نسهم مستقبلاً فى دنيا المعرفة والإبداع. ودليلنا على ذلك أن التطبيقات التكنولوجية التى وجدناها فى قرون ثلاثة فقط وهى القرون الثامن عشر والتاسع عشر وهذا القرن العشرون، تعد أضعاف أضعاف ما وجدناه طوال تاريخ الإنسان. وهذه التطبيقات وجدنا

أغلبها في أمريكا وأوروبا بوجه عام نظرا لأنها مرتبطة أساسا كما قلت بأفكار وجدت في هذه الدول دون غيرها.

السؤال إذن عن التحديات في القرن القادم، التحديات التي تواجه المسلمين، يعد سؤالاً جوهرياً وبالغ الأهمية. ونظراً لأنه تساؤل يرتبط بالعديد من القضايا والأبعاد والمجالات، فإننا سنقتصر على دراسة جانب واحد منه، وهو الجانب المثار الآن والذي يمثل تحدياً للعرب، وهو موضوع العولمة. وسوف تكون دراستنا لهذا الجانب قائمة على الربط بين الماضي والحاضر، وبحيث ننقل منهما إلى المستقبل، فالتاريخ ليس مجموعة من الحلقات المنفصلة، بل كل حلقة ترتبط بالحلقة السابقة عليها، وتكون مؤدية إلى الحلقة التالية لها.

سنتحدث إذن عن قضية العولمة في صلتها بالتتوير من جهة، وبالاتجاه النقدي من جهة أخرى إذ أن المفكرين العرب، أصحاب الفكر التجديدي قد أثاروا العديد من القضايا التي ترتبط بالتحديات التي تواجه المسلمين. ومعنى هذا أن الفكر التتويري بوجه عام لم يكن مقطوع الصلة بإثارة موضوع التحديات التي تواجه أو ستواجه المسلمين، بل إن أصحاب هذا الفكر كانت تشغلهم بالدرجة الأولى هموم أوطانهم.

نعم أثاروا العديد من القضايا المرتبطة بهذه التحديات، ومن بينها قضايا التقدم العلمي والأخلاقي^(١)، قضايا الهوية، وهل سنفقد هويتنا نحن المسلمين والعرب إذا أخذنا بالثقافة الغربية الأوروبية بوجه عام وغيرها من قضايا أحسبها تحتل مكانة كبرى في فكر كل مسلم وكل عربي.

وإذا كنا سنبلور الإجابة عن هذا السؤال وهو عن مدى استعداد العرب للدخول إلى ثقافة قرن جديد، حول موضوع العولمة، فإننا نبادر بالقول

^(١) يمكن للقارئ الرجوع إلى كتابنا: العقل والتتوير في الفكر العربي المعاصر.

بأن هذا الاختيار ، اختيار العولمة، ليس من الضروري أن يكون هو الاختيار الوحيد أمامنا، بل إن المسلمين عن طريق شخصيتهم المتميزة وعن طريق العمل الدائب من جانبهم يستطيعون الوقوف موقف المؤيد لفكرة ما، والرافض لفكرة أخرى، وخاصة بعد زوال الاستعمار.

وقد لا أكون مبالغا في القول بأن البحث في موضوع العولمة وما يرتبط بها من قضايا سياسية واقتصادية واجتماعية وفكرية، يعد من البحوث الهامة والتي تشغل دول العالم الآن وستظل إلى فترات طويلة محاور الحديث ليس في الدول المتقدمة فحسب، بل في الدول النامية أيضا. إن البحث في موضوع العولمة وقضاياها يثير نقاط خلاف رئيسة وجوهرية. وقد نجد من يسعى بكل قوته إلى تأييد هذه الثقافة بكل أبعادها وجوانبها وذلك تصور من جانبه نحو عالم أفضل، وقد نجد على العكس من الفريق الأول من يحارب بلا هوادة فتح النوافذ على هذه الثقافة بكل أبعادها واتجاهاتها وتطبيقاتها. وقد نجد أيضا من يذكر العديد من التحفظات على هذه الثقافة.

وإذا كان البحث في هذه القضية، قضية العولمة يرتبط كما أشرنا منذ قليل بالعديد من القضايا والأفكار في المجال الإقتصادي والسياسي وغيرهما من المجالات، فإننا نود من جانبنا دراسة هذه القضية من خلال منظور التنوير، إذ أننا نعتقد من جانبنا أن التركيز على الجانب الفكري من هذه الثقافة، ثقافة العولمة، وخاصة بالنسبة للهوية الثقافية، لابد وأن يرتبط ارتباطا رئيسا بالقضية الكبرى ، قضية التنوير إنها قضية مصير. وكما قال شكسبير: أن أكون أو لا أكون، ذلك هو السؤال.

إننا في عالم متغير عالم يسوده الكثير من التيارات. عالم ليس فيه مكان للضعيف في مجال السياسة والإقتصاد والفكر. ومن هنا فلا بد أن نفتح على هذه الثقافة، وقد أصبح العالم قرية صغيرة. إنها ثقافة العولمة، ولا يصح أن نخشى من تلك الثقافة بل يجب أن نتعامل معها ونأخذ في

حوار مع قضاياها، وهى قضايا بالغة الأهمية. أما أن نتفوق حول أنفسنا، فإن هذا لا يعد حلاً بأية صورة من الصور وصاحب المعدة القوية لا يخشى من تناول أى نوع من أنواع الأطعمة.

إننا الآن فى عصر تتصارع فيه القوى المختلفة. وإذا لم نبادر بتحديد هويتنا الثقافية العربية من خلال قضايا العولمة، ونبادر أيضاً باتخاذ المواقف من جانبنا، فلن يكون لنا وجود فى المستقبل، لن تكون لنا حياة، كما ينبغى أن تكون الحياة. سنصبح فى خبر كان؛ إن صح هذا التعبير وسيأتى يوم علينا يتحدث فيه العالم عنا؛ كما يتحدث عن الهنود الحمر أو كما يتحدث عن شعوب أصبحت منقرضة وزالت عن الوجود.

وغير خاف علينا أننا الآن فى حالة فقدان الوعى، فقدان الإحزان، أو مرحلة إنعدام الوزن، إننا الآن فى حالة غريبة من الغيبوبة والعالم يتحرك من حولنا حركة سريعة، حركة بغير حدود، إننا فى الوقت الذى نصعد فيه إلى الهاوية، ويكون الحوار أقرب إلى إثارة الخلافات اللفظية الشكالية، بل أقرب إلى إثارة النساء، نجد الدول المتقدمة، وخاصة الدول الغربية تبادر إلى إتخاذ المواقف الفكرية البناءة، إن، المواقف التى تصدر عن هذه الدول الغربية المتقدمة يجب أن نتعلم منها القدرة على إتخاذ المواقف، ولن يكون ذلك بإمكاننا إلا إذا أقمنا الجسور - كما قلت - بين أبناء الدول العربية كلها، وأقمنا الحوار الفكرى بين متقفى الأمة العربية، ومتقفى بقية بلدان العالم من مشرق الأرض إلى مغربها. وهذا هو التنوير فى علاقته بالعولمة.

إن المتقف كما ينبغى أن يكون، هو الذى يهتم اهتماماً بالغاً بكل قضايا التنوير والقضايا النقدية ولا يمكن أن ننتظر حلولاً إيجابية لكل القضايا التى نبحث فيها. سواء أكانت قضايا فكرية، أو كانت سياسية، أو كانت قضايا اجتماعية إلا من خلال التنوير. إن الفرد التنويرى هو الذى تؤرقه هموم الأمة العربية وبحيث تصبح حياته الفكرية هى القضايا المصيرية لعالمنا العربى فلا

يحيا إلا بهذه القضايا ولا يعيش إلا من أجل هذه القضايا ولا يتنفس إلا هواء هذه القضايا.

هذا هو المتقف التنويرى فى رؤيته المستقبلية، وأقول بالرؤية المستقبلية لأننا للأسف الشديد سواء فى الماضى، الماضى القريب على الأقل، وفى الحاضر أيضا بكل تأكيد لا نجد رؤية واضحة، رؤية محددة المعالم، بل رؤية كلها ظلام فى ظلام رؤية يسودها الضباب الكثيف. ودعونا نتكلم بصراحة وموضوعية لأننا أمام قضية مصير قضية تحديد لهويتنا، قضية أن نكون أو لا نكون، ولنبتعد تماما عن التناول الساذج والقول بأن كل شئ تمام.. لقد أسرفنا فى التناول وما فيه من سذاجة وأدى هذا كله إلى أن أصبحنا فى وضع لا نحسد عليه وأصبح أكثر متقفينا فى واد، وقضايا الأمة العربية فى واد آخر، أصبح حديثهم عن قضايا الأمة العربية حديثا يثير القلق والغثيان حديثا سطحيا، تماما كما يتحدث السائح عن بلدة من البلدان التى زارها وبقي فيها ساعة من الزمان، إنه حديث سطحى لأنه لا يقوم على رؤية تحليلية دقيقة.

لقد أدت بنا الرؤية الظلامية، الرؤية الضبابية التى يسعى إليها أنصار الاتجاهات التقليدية، إلى العديد من التصورات الخاطئة التى تقوم على المبالغة، والمناداة بأن الحل إنما يتمثل فى الرجوع إلى الماضى السعيد، ماضى التراث وما فيه من أخطاء ومغالطات. ولكن ماذا نفعل إزاء أناس فقدوا الملكة النقدية.

إننا إذا كنا قد وجدنا فكرا تنويريا فى بعض بلدان عالمنا العربى فى منتصف القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، لكن ماذا حدث بعد ذلك؟ إننا نجد نوعا من الردة.. أو التراجع عن المكاسب التنويرية فى العديد من المجالات، سواء كانت سياسية أو فكرية أو إجتماعية، نجد

تراجعا في مجال حرية الفرد واتجاهها نحو نوع من الديكتاتورية الفكرية الرجعية.

هل من المعقول أن ننتظر حلا لمشكلاتنا الفكرية والسياسية في الوقت الذي نعلن فيه الهجوم على ثقافة العولمة بدون التسلح برؤية نقدية دقيقة في الوقت الذي نضيع فيه جهدنا في محاولة الإجابة على أسئلة عفا عليها الزمن، أسئلة فردية شخصية جزئية، لماذا لا يتجاوز المتقفون العرب من خلال رؤية تنويرية عوائق البحث عن أفضل حل فكري لنا نحن أبناء الوطن العربي، رؤية تنويرية تتخطى الخلافات الزائلة الطارئة وبحيث تضع المستقبل أمامها دائما. إن أكثر المتقفين العرب وللأسف الشديد يدورون في حلقات مفرغة ويلجأون إلى منطق التبرير وهو منطق زائف لأنه يؤدي إلى الدفاع عن سلبيات الماضي وسلبيات الحاضر وما أكثرها من سلبيات. علينا أن نعتقد بأن الفكر التنويري هو الذي يوجه التطبيقات السياسية والعكس غير صحيح، وهذا الاعتقاد يؤدي إلى بث الثقة في نفوس المتقفين العرب. ودولة بغير فكر تنويري يقوم على أسس فكر العولمة هي تماما كجسد بلا دماغ، وإذا خلا الجسد من الدماغ فإنه سيكون أقل مرتبة من الحيوانات الضالّة، نعم ينبغي علينا أن نستوعب هذا الدرس أو هذا المبدأ جيدا وإلا ستلحقنا اللعنة في كل زمان وكل مكان.

الرؤية المستقبلية فيما نراها من جانبنا تقوم على الإنفتاح على كل الأفكار والتيارات من خلال منظور نقدي وبعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض، أما أن نظل في حالة تقوقع حول أنفسنا بحجة التراث تارة وبحجة أن الغرب سيقوم بابتلاعنا تارة أخرى، فإنها تعد من الحجج الزائفة وسنظل جامدين عندها دون أمل في أدنى تقدم ولا بد من وقفة نقدية تدرك أرض التقليد دكا. إن التراث الماضي قد صنعه مفكرون مثلنا صنعه أفراد بشر كانوا معرضين للوقوع في الأخطاء فلماذا إذن نقف عند

محاولاتهم ونحن نبكى على الأطلال . لماذا الخوف إذن من ثقافة العولمة هل من المعقول أن يكون تصورنا للمستقبل محكوما بكتب التراث الصفرى محكوما بأفكار مجموعة من المفكرين القدامى. إن كتب التراث إذا كنا نجد فيها بعض الأفكار البناءة الممتازة والتي تفيدنا فى حياتنا المعاصرة، إلا أننا نجد فيها آلاف الأخطاء بل آلاف الخرافات، إن كتب التراث كلها فى المجالات العلمية لن تساعدنا على إختراع أبسط نوع من أنواع المخترعات البشرية وزماننا الآن غير زمانهم ونحن بشر وهم مثلنا بشر فلماذا إذن يصر بعضنا على الوقوف عندهم، فلنأخذ إذن من التراث ما نأخذ ولكن ما نأخذه ينبغى ألا يكون عقبة فى طريق تقدمنا وازدهارنا نحن أبناء الأمة العربية الحديثة. لماذا لا نفتح على الغرب فى رؤيتنا المستقبلية، لماذا نصر على رفض كل غربى وشن الهجوم على الغرب. هل ننتظر من الغرب أن يتأخر مثلنا . إن واجبنا أن نسعى إلى أن نتقدم مثله لا أن ندعو إلى أن يتأخر هو مثلنا، إنها سنة الله فى خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. إن هذه الأفكار التقدمية الجديدة نأخذها من ثقافة العولمة، الثقافة المستقبلية.

هذه معالم رؤية مستقبلية تنويرية نقدية نقدمها من خلال إدراكنا للقيم الإيجابية لثقافة العولمة.. معالم عامة وكبرى تجعل الهدف من التنوير دك أرض التقليد دكا، وتقيم أساس البناء على العقل. والعقل وحده كما نعلم أشرف ما خلقه الله فىنا نحن بنى الإنسان.

ولا يخفى علينا أن المناخ الفكرى السائد فى أكثر بلداننا يعد مناخا غير تنويرى مناخا غير مؤهل للثقافة الجديدة، ثقافة العولمة، وصاحب الرؤية الملتزمة والجادة، صاحب الأيديولوجية التقدمية قد يجد صعوبة بالغة فى التعبير عن رأيه أو موقفه، ومن هنا يشعر بالإغتراب عن الواقع. ولكن هذا لا يعنى أن نطلب منه وهو فى هذه الحالة، أن تدور أفكاره بينه وبين نفسه فحسب، بحيث تكون حوارا مع الذات، بل أن يحاول بكل ما يملك من طاقة

نقدية بناءة وعن طريق تعاطفه مع غيره من أصحاب الفكر التقدمي التجديدي البناء، نشر أفكاره والدفاع عنها سواء ما تعلق منها بدور العالم الثالث وما يحدث فيه من تغيرات، أو ما تعلق منها بالصلة بين بلدان العالم الثالث، والقوى الكبرى العالمية.

والبحث عن أيديولوجية فكرية عربية مستقبلية، لا يمكن أن يتم إلا بالتعاون بين المفكرين والمتقنين من خلال إيمانهم بالأسس الكبرى والقيم البناءة في ثقافة العولمة. هذا التعاون الذي نجده في مجتمع النمل ولا نجده في مجتمع الصراصير، والأليق بنا كمفكرين أن نرتضى لأنفسنا التعاون وأن ننبد التقاتل والخلاف كما ينبغي علينا القضاء على الشللية والمصالح الشخصية.

إن مشروعا حضاريا للأمة العربية لا يمكن أن يتم أو يتحقق إلا بصدق الفكر مع نفسه وبحيث لا تحركه المصالح المادية، كما ينبغي أن يكون متفتح النظرة واسع الأفق، وهل ننكر أن موقف بعض دول الغرب مع هذه الدولة العربية أو تلك قد يكون مفيدا وفي صالحها في الوقت الذي تجد فيه الخطر، بل العدوان من جارتها العربية؟ هل ننكر سيادة الفكر الرجعي الآن حيث تكون له أدواته وأمواله وصحفه ومجلاته، هل ننكر، أن أكثر بلداننا العربية تعطي أقل قدر من المساحة للرأي التقدمي النقدي في مقابل المساحة السواسعة الضخمة التي تعطي للرأي الرجعي التبريري إن هذا نجده في مجال السياسة وفي مجال الفكر أيضا، إن تأسيس مشروع حضاري للأمة العربية ينبغي أن يكون قائما على العقل، والعقل فقط، ينبغي أن يكون مؤسسا على الفكر التجديدي العلمي البناء وبحيث نطرد تماما كل فكر رجعي، نحذف تماما كل فكر لا معقول كل فكر ميت يعبر عن التخلف لا التقدم، يعبر عن الصعود إلى الهاوية لا السير إلى الأمام.

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا بأننا الآن في أمس الحاجة إلى السعي نحو الثورة النقدية، نحو التتوير الثقافي، التتوير الذي يقوم على الإنفتاح على

ثقافة العولمة، التتوير الذى يقوم على تقديس العقل والإيمان بأن الثقافة الخالدة، إنما هى الثقافة الأساسية التى تتخطى حدود الرمان والمكان وبحيث تتحرر من العادات والتقاليد الرجعية وتتطلق ساعية إلى تحقيق سعادة الإنسان، بما تتضمن من آداب وعلوم وفنون سامية رفيعة وعن طريق التتوير نستطيع إرساء نظام ثقافى عربى جديد.

إن أوروبا لم تتقدم إلا عن طريق السعى بكل قوتها وابتداء من عصر النهضة نحو تحقيق مبدأ التتوير وبحيث وجدنا ثقافة أوروبية جديدة، تختلف فى أساسها ومنهجها عن ثقافة العصور الوسطى.

والسعى نحو نظام ثقافى عربى جديد لا يعد شيئا صعبا أو مستحيل التحقيق، إذ نجد العديد من الأفكار التى دعا إليها مفكرون كبار فى العصر الحديث على إمتداد مساحة العالم العربى من مشرقه إلى مغربه، وليكن عملنا هو الاستفادة من أفكارهم وجعلها واقعا حيا نعيشه ونتعايش معه . وهل يمكن أن نقلل من أفكار تتويرية غاية فى الأهمية نجدها عند رفاعلة الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وقاسم أمين وسلامة موسى وطه حسين وزكى نجيب محمود فى مصر . وعند مالك بن نبي فى الجزائر، وعبد الرحمن الكواكبي فى سوريا وغيرهم من مفكرين كبار كانت لهم رؤيتهم المستقبلية.

وإذا كنا نعيش الآن فى عالم جديد عالم به العديد من المتغيرات عالم أصبح بفضل التطورات العلمية الحديثة قرية صغيرة، فلا بد من تغيير أفكارنا تغييرا جذريا لآبد من ثورة فكرية تخلق إنسانا عربيا جديدا، وتوجد نظاما ثقافيا عربيا جديدا، وإذا لم نفعل ذلك فسنكون فى واد والعالم المتقدم، العالم الأوروبى بصفة خاصة فى واد آخر،. سنكون كمن يتحدث على موجة غير الموجة التى يستخدمها الطرف الآخر.

لابد أن نقضى على الفصل الموجود فى أكثر بلداننا العربية، بين ما يسمى بالتعليم الدينى، والتعليم المدنى الإنسانى، لابد من التنبية إلى الإنغلاق

الفكرى الذى نجده عند أناس يتحدثون عما يسمونه بالغزو الثقافى، إننا إذا وجدنا عالما متقدما كالعالم الأوروبى فهل نطلب منه أن يتأخر مثلنا، أم أنه من الضرورى أن نفعل مثل ما فعل، وبحيث نتقدم مثله؟ هل من المعقول وقد وصلنا إلى أواخر القرن العشرين وبدأنا نستعد للدخول فى قرن جديد، أن نقول بأنه لابد من الوقوف عند كتب التراث وبحيث نقوم بحفظها وترديد ما فيها دون وعى. هل يصح أن يقوم نفر منا بالهجوم على منجزات الحضارة الغربية فى الوقت الذى لا يمكن فيه الإستغناء عن هذه المنجزات الكبرى. كيف أنفاعل مع العالم وأحدث عن نظام ثقافى عربى جديد فى الوقت الذى أتناقض فيه مع نفسى، أقع فى نوع من الإزدواجية حين أهاجم الحضارة الحديثة الأوروبية وأكون فى نفس الوقت ساعيا إلى الإستفادة من منجزاتها. إن نظاما ثقافيا عربيا جديدا لا يمكن أن يتحقق إلا بالتأكيد على أهمية العلم والقضاء على الخرافات التى تعوق مسيرتنا العلمية والإيمان بأن العلم يمثل مجتمع المستقبل.

إن هذه أفكار رئيسية نتعلمها من أسس ثقافة العولمة.

فنحن إذن بين طريقين: طريق يمثل الظلام، الطريق المسدود وطريق يمثل النور والضياء وحتى نوجد نظاما ثقافيا عربيا جديدا فلا مفر من الطريق الذى يمثل الإيمان بالتتوير، يمثل النواذ على كل التيارات الأدبية والفكرية ولا يوجد مبرر للحساسية من الثقافات الأخرى. إن هذه الثقافات لا يخشاها إلا ضعاف الناس. وقد انفتح العرب منذ قرون وفى أيام العصر العباسى على الثقافات الوافدة وحدث الإمتزاج أو الإقتران السعيد بن ثقافة داخلية وثقافة وافدة ولم يقل أحد بأن هذه الثقافات قد أدت إلى إلغاء شخصية الإنسان العربى.

إن عالمنا العربى يمتلك طاقة اقتصادية هائلة.. ومن واجبنا تسخير هذه الطاقة وتوجيهها بحيث تحقق نظاما ثقافيا فى المقام الأول، فالثقافة هى

الأساس وما يمكن أن يؤدي إلى الترابط بين الشعوب العربية، إنما يكون أساسا في نوع من الوحدة الثقافية ولتتنا نخصص جزءا كبيرا من دخل البترول في إرساء دعائم التنوير الفكرى والثقافى. التنوير القائم على ثقافة العولمة، وبحيث نتجنب تماما كل الأفكار الرجعية المتطرفة والفكر المغلق وهل يستطيع أن يتنفس الإنسان إلا فى الهواء المتجدد إن الفكر الذى لا يتخذ من التنوير أساسا له يعد فكرا ميتا يصيب الإنسان بالإختناق.

ولا نستطيع أن نتصور نظاما ثقافيا عربيا جديدا إذا لم نأخذ من تراثنا كل ما يؤدي إلى نهضتنا وبحيث لا يكون معوقا لمسيرتنا الإنسانية - نستطيع أن نسعى إلى النظام الجديد إذا اعتقدنا بأن النزعة الإنسانية التنويرية هى التى يجب أن تكون سائدة فى مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا وكتابات مفكرينا. وكم ارتبط النور بالتقدم والسير إلى الأمام وارتبط الظلام بالتأخر والرجوع إلى الوراء والصعود إلى الهاوية.

ولن يصبح لنا دورنا الحيوى النشط والرائد فى العالم الذى نعيش فيه إلا إذا حددنا دور الثقافة فى مجتمعنا العربى، وقلنا بأن المثقف وهو الكائن الاجتماعى الذى لا بد و أن تكون أفكاره مؤدية إلى سعادة وتقدم مجتمعه. ولن يؤدي إلى تحقيق تقدم مجتمعنا العربى إلا أن يكون رائدنا هو العقل وطريقنا هو طريق التنوير وخصائص ثقافتنا تتمثل فى البعد الإنسانى أساسا عن طريق هذا كله يمكن تحقيق نظام ثقافى عربى جديد نفاخر به ونتفاخر بين دول العالم من مشرقها إلى مغربها بحيث نقول: هذه بضاعتنا الثقافية التنويرية التى تتخطى حدود الزمان والمكان.. البضاعة التنويرية التى إذا كانت قد استعادت بعض جذورها من الماضى، إلا أنها لا تقف عنده وبحيث يكون حالها كمن يبكى على الأطلال بل تركز على الحاضر وتتطلق منه إلى المستقبل.

نقول ونكرر القول بأن فكرنا العربى بوجه عام يعد معبرا عن حالات من الضياع والظلام والموت. إنه فكر يخلو من أيديولوجية معينة، ومن هنا نرى أكثره معبرا عن مجموعة من الكلمات المتقاطعة التى قد لا يفهمها أحد وبالتالي لا يمكن إدراكها من جانب القراء لها.

نقول هذا ونحن نضع فى اعتبارنا ضرورة استبعاد الشعارات البراقة الزائفة والتى يزعم لنا أصحابها أنهم يقدمون لنا من خلالها مذاهب أدبية وفكرية فى حين أن الواقع الموضوعى يكشف لنا أن تلك المذاهب فى واد والفكر فى واد آخر، إنها مذاهب لا تستند إلى أساس فكرى أيديولوجى ولا تقوم بنقد الواقع أو التعبير عنه... تعبيراً صادقا.. ومن هنا كان فكرها فكرا مسطحا، فكرا أجوف. أنظروا إلى الفكر الأوروبى على سبيل المثال وقارنوا بينه وبين ما نطلق عليه فكرا عربيا على سبيل التجاوز وستجدون الفرق الكبير بين الفكر الدقيق الذى يقوم على أرض صلبة وبين الفكر الهش المظلم ونقصد به الفكر العربى فى كثير من جوانبه وأبعاده ومجالاته.

إننا نفتعل الكثير من المعارك ونطلق عليها معارك فكرية فى الوقت الذى تدور فيه هذه المعارك حول قضايا زائفة خيالية. كما نتحدث عن الغول والعفريت وأصبح من الأشياء الشائعة أن يتحدث كل واحد منا عن مشروع له حول الفكر العربى ثم نجد هذا المشروع خيالا فى خيال وليس له معالم محددة. ولا يستند إلى أى نوع من أنواع الصدق.

ويقبنى أنه لولا الهالات الإعلامية حول العديد من الكتب والمقالات لقلنا بصدق إننا لا نجد عندنا فكرا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة بل نجد أكثر بضاعتنا الفكرية بضاعة فاسدة لا صلة لها بالنقد كما ينبغى أن يكون النقد، لا صلة لها بالواقع، تماما كمن يبحث عن قطة سوداء فى الظلام أو مثل دون كيشوت الذى يحارب طواحين الهواء.

إننا نعيش الآن في عصر يعد معبرا عن الظلام وبئس المصير وإذا تحدثنا عن صعود فكرى فإنه يعد للأسف الشديد صعودا إلى الهاوية فأين الأيديولوجية إذن أين الضمير العلمى؟ أين الفكر التتويى الحضارى؟ إننا إذا وجدنا شعوبا متقدمة فكريا وحضاريا فإن الموقف منها يجب أن يتمثل فى أن نفعلى ما فعلت ولا يصح أن نقوم بالهجوم على فكرها تحت مقولة الغزو الثقافى أو الهجوم على الحضارة الوافدة فالمتأخر كما سبق أن قلنا يجب أن يلحق بالمتقدم ولا يصح أن أطلب من المتقدم تحت شعار المشاركة الوجدانية أن يتأخر مثلى لقد أدرك ذلك مفكرون كبار ابتداء من رفاعه الطهطاوى وأحمد لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود ولكننا للأسف الشديد لم نستفد من الدروس التى ركزوا حياتهم لغرسها فى نفوسنا ولو كنا قد استفدنا من دروسهم لما كنا قد وجدنا الآن تلك الحرب الشعواء ضد العولمة وثقافة العولمة.

ألا يوجد دليل على تخلفنا الفكرى أبلغ من القول بأننا نجد أفكارا تتويىية تحارب الآن ولم تكن تحارب منذ قرون وحتى فى العصر العباسى ألا يعد هذا دليلا على أننا نسير إلى الخلف ولا نمشى إلى الأمام. فنحن إذا تمسكنا بمجرد الترييد فإننا سنكون أصحاب توكيلات فكرية، تماما كالتوكيلات التجارية، فمن يقوم ببيع سلعة أجنبية يكون دوره مجرد البيع وليس المشاركة فى الإنتاج بالنسبة لهذه السلعة أو تلك.

إننا إذا أردنا أيديولوجية لفكرنا العربى فإن تلك الأيديولوجية لابد أن يكون شعارها تقديس العقل، لابد أن يكون محورها السعى إلى التتويى بكل قوة وجهد، لابد أن تكون قضيتها الكبرى تغيير الواقع بحثا عن الأفضل وليس مجرد تفسير الواقع أو تبريره. وإذا اقتصر الفرد منا على مجرد التفسير أو التبرير فإنه يكون مقلدا وليس مبدعا أو مجددا، سيكون فكره خاليا من الأيديولوجية ولا أساس له. ومن المؤسف أن يقوم أناس بمجرد التبرير أو

الدفاع فتحسبهم من المفكرين وما هم بمفكرين بل أشباه مفكرين، لأنهم يعبرون عن فكر ميت مزيف. وتغيير الواقع فيما نرى من جانبنا لا بد وأن يعتمد على أساس قوى، هو الأساس الذى ينظر للعالم على أنه قرية صغيرة إنه أساس العولمة أولا وقبل كل شئ.

إن قضية التتوير فى صلتها بثقافة العولمة تعد قضية مصيرية إنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالبحث عن أيديولوجية ولا بقاء لشعب من الشعوب إلا عن طريق السعى نحو النور والتتوير عن طريق السير نحو البحث عن أيديولوجية تحدد هويته الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية. لا بقاء لثقافة شعب من الشعوب، إلا بإحياء الروح النقدية.

ونود أن نشير إلى أن الحديث عن عوامل تدعيم الإبداع والمشكلات التى تواجه الإبداع ترتبط ارتباطا مباشرا بمشكلة التتوير وقضاياها ودليلنا على ذلك أن العوامل التى تؤدي إلى عرقلة الإبداع إذا كانت توجد بكثرة فى الدول النامية بوجه عام، الدول التى لا نجد فيها تتويرا مطلقا شاملا، فإنها لا توجد بنفس الدرجة فى الدول الأوروبية المتقدمة.

والعوامل التى تؤدي إلى عرقلة الإبداع ترتبط بمجالات كثيرة من بينها التعليم والثقافة والعلم والتكنولوجيا.

فمن الأمور التى تسترعى الانتباه أننا فى الدول النامية بوجه عام نعد أصحاب توكيلات فكرية، وهذا إن دلنا على شئ فإنما يدلنا على أنه لا نصيب لنا فى العملية الإبداعية، فصاحب التوكيل الفكرى إنما يكون مجرد كوبرى مرور لأراء وتجارب السابقين، دون جهد إبداعى من جانبه.

إننا فى عصر ثورة المعلومات وثورة الكمبيوتر والأقمار الصناعية فهل من المعقول أن نتحدث عن ظاهرة خيالية، هى ظاهرة الغزو الفكرى وذلك فى الوقت الذى أصبح العالم فيه قرية صغيرة، أعتقد أننا إذا قلنا بما يسمى الغزو الفكرى أو الثقافى فإن معنى ذلك أننا سنقضى تماما على أى أمل

فى التقدم نحو الإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا فى جو الحرية والإنتفاح على أفكار الآخرين فى دول العالم من مشرقه إلى مغربه. الإبداع يرتبط بالنور والضياء ومعوقات الإبداع لا يمكن أن تحيا إلا فى جو القيود والظلام هذا يعنى أننا إذا أردنا إيجاد القيادات المبدعة، فلا بد أولاً من الإيمان بأن قضية التنوير (فى صلتها بالعولمة) تعد ألزم القضايا لنا تماماً كحاجتنا إلى الماء والهواء. وليت الدول التى تعاني من عدم وجود قيادات مبدعة فى العديد من المجالات؛ ليتها تقوم بتطبيق تجارب الدول الأوروبية التى ينتشر فيها الإبداع بحيث تكون تلك الدول صورة إلى حد كبير من الدول الأوروبية. إن منطق الحياة منطق الوجود يفرض على المتأخر أن يلحق بالمتقدم وليس من المناسب إطلاقاً أن نطلب من الدول الإبداعية المتقدمة أن تقلد المتأخر هذا هو منطق الحياة. ويقينى أننا إذا انفتحنا على تجارب الآخرين الأكثر منا تقدماً، فإن الطريق إلى الإبداع سيكون سهلاً ميسراً. فالإبداع لا يبدأ من فراغ الإبداع إذا قصدنا به الأصالة بمعنى عدم التأثر بالسابقين فإننا لا نجد ذلك إطلاقاً أى لا نجد فينا أصيلاً. ومن هنا فإن المنطق يفرض علينا الإنتفاح والاستفادة من تجارب الآخرين يفرض علينا وجود موجة مشتركة بيننا وبين الأمم التى نجد فيها الكثير من الجوانب الإبداعية وإذ لم نفعل ذلك فسيكون حالنا كحال من يتكلم على موجة غير الموجة التى يتحدث عليها الآخرون، نقضى على أنفسنا بأنفسنا لأننا سنتنفس هواء راكدا ساكنا وغير متجدد وإذا نظرنا إلى النظريات العلمية الكبرى، وإلى النظريات الفلسفية التى غيرت من فكر الإنسان فإننا سنجد أن هذه النظريات لم تحدث أثرها إلا لكونها جاءت مخالفة تماماً لحالة السكون، حالة الركود.

الإبداع إذن يرتبط مباشرة بالسعى نحو التنوير والإنطلاق نحو ثقافة العولمة وهذا الارتباط يجعلنا نقول بأن عوامل عرقلة الإبداع فى العديد من

المجالات إن لم تكن كلها، إنما هي نفس عوامل عرقلة التنوير إلى حد كبير جدا.

فمن عوامل عرقلة الإبداع الخلط بين الدين والسياسة، من عوامل عرقلة الإبداع أننا ما زلنا ننظر إلى العلمانية وكأنها رفس من عمل الشيطان وأنها مرادفة للكفر والتكفير.

من عوامل عرقلة الإبداع الفصل بين التعليم الدينى والتعليم المدنى ويجب القضاء تماما على هذا الفصل إذ كيف نقول بالمجتمع الواحد، وفى نفس الوقت فصل بين تعليم وتعليم. من عوامل عرقلة الإبداع أيضا، المطالبة بتدريس الطب وبعض العلوم الحديثة باللغة العربية إن هذه العلوم قد تقدمت تقدما مذهلا فى أوروبا فكيف إذن يكون بالإمكان تدريس تلك العلوم بالعربية كيف سيتعامل المشتغل بتلك العلوم مع الكتب التى تصدر كل يوم وهى بلغات غير عربية.

الواقع إن نظام تعليمنا الحالى لا يؤدى إلى وجود تيارات مبدعة لا يؤدى إلى إحياء الروح النقدية الموضوعية. إنه لا يضع فى اعتباره أن العالم يتغير من حولنا وما كان مفيدا فى الماضى يعد اليوم عديم الفائدة. لابد من ثورة جذرية فى مجال التعليم، إذ ليس من المناسب إطلاقا أن نتغافل فى مناهجنا الحالية عن التطورات الحاسمة فى كل مجال من المجالات الفكرية والثقافية والعلمية فى العالم المتقدم.

وما يقال عن التعليم فى المدارس، ينطبق على التعليم فى جامعاتنا هل أدت المناهج الحالية إلى وجود قيادات مبدعة؟ الإجابة بالنفى بطبيعة الحال.

ومما يؤسف له أننا إذا كنا نتحدث عن الإبداع وعلاقته بالتنوير من منظور العولمة فإنه لا مفر من القول بأن مساحة الظلام فى المناهج الجامعية الحالية تعد أضعاف مساحة النور والتنوير. فإن مناهجنا الحالية تقسوم على الحفظ والترديد والتلقين والمقلد ينظر إلى أسفل، ولا ينظر إلى الأمام ومن هنا

فلا إبداع ولا مبدعون. المبدع له نظراته التقدمية أما المقلد فإنه يحاول الصعود إلى الهاوية ولن نجد تقدما في أى دولة من الدول إلا إذا وجد فيها عدد كبير من المبدعين في كل المجالات من تعليم وثقافة وفكر بوجه عام.

كيف نتحدث عن الإبداع وتنمية الروح النقدية في جامعاتنا في الوقت الذي نجد فيه بعض المناهج تدور حول ما يسمى بالفكر الأصولي هل يدخل هذا في دائرة المعقول أم دائرة اللامعقول؟ نعم لابد من القضاء على كل فكر رجعي غير تقدمي. إن هذا الفكر سيؤدي بنا إلى الرجوع إلى الوراء الرجوع إلى الخلف باستمرار. إذا قيل وأين مكن التراث في مناهجنا فإننا نقول إننا يجب أن ننظر إلى التراث نظرة صحيحة موضوعية وكم من خرافات نجدها في بعض كتب التراث؛ خرافات تزيد عددا عن مجموع سكان الدول العربية ينبغي أن نضع في اعتبارنا أن كتب القدامى من أجدادنا في مجالات كالطبيعة والكيمياء والفلك إنما تدور حول المحور الكيفي، والعلم الآن كم وكم فقط فهل يمكن أن ننتظر إبداعا ونحن حتى الآن نقوم بتقديس كتب التراث. إن تدريس آلاف الكتب التراثية في مجال العلم بفروعه لا يمكن أن يؤدي إلى تخريج طبيب أو عالم من علماء الطبيعة والفلك.

إن العالم يتغير من حولنا وإذا لم ننظر إلى قضية الإبداع نظرة فورية ومن اليوم، وبحيث لا نقوم بتأجيلها إلى الغد فإن الغد سيكون متأخرا من خلال منظور معين، وهو أن العالم تسوده اليوم ثورة التغيير.

نقول ونكرر القول إن تدعيم الإبداع لا يمكن أن يتحقق إلا إذا نظرنا إلى الإنسان نظرة جديدة، نظرنا نظرة شمولية إلى حقوق الإنسان، تلك الحقوق التي لا تقتصر على حقوق الحياة فقط بل حقه في السلام والتعليم والمعرفة نظرنا إلى الإنسان أيضا ككائن علمي، على أساس أن البحث العلمي نفسه يعد عملا إبداعيا، نظرنا إلى تربية الإنسان على أساس أنها لابد أن تؤدي إلى غد أفضل من الحاضر.

وأعتقد أن هذه النظرة لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال رؤية نقدية تنويرية عالمية رؤية تلتفت في غضب إلى الماضي وتقول له وداعا، إذ أن

العصر غير العصر ومطالب اليوم غير مطالب الأمس ، رؤية تقتلع جذور الظلام اقتلاعا لأن تلك الجذور قد فرضت على الناس فى الماضى دون إرادتهم أو طلب من جانبهم.

هذه النظرة التنويرية تقوم أساسا على احترام حقوق الإنسان والدفاع عن حريته إذ لا يمكن تصور الإبداع وسط الأغلال أو القيود فلنوفر المناخ أولا وبعد ذلك نبحث عن المبدعين فى كل المجالات العلمية والفكرية بوجه عام فلنسع بكل قوتنا نحو التنوير، لأنه لا يمكن تصور ابداع بدون تنوير يتمثل فى فتح النوافذ على الفكر الأوروبى الغربى.

ما أكثر العوامل التى تؤدى إلى عرقلة الإبداع والروح النقدية، وما أكثر أوجه القضاء على معوقات الإبداع ومعوقات النقد الموضوعى والمهم فى رأينا أن نحدد بصراحة وشجاعة تلك المعوقات، حتى يمكننا التصدى بحسم لها فلا مشكلة بدون حل والإرادة الإنسانية إذا اتخذت من العلم والمعرفة والإستتارة سلاحا فإنها كفيلة بتحقيق مستقبل أفضل للبشرية. مستقبل يزيد فيه عدد المبدعين فى كل مجالات المعرفة الإنسانية حتى يحقق الإنسان ذاته ويؤكد على حقه فى السلام والأمن والطمأنينة ولكن هل سيتم ذلك فى المستقبل القريب؟.. أعتقد بأننا إذا تأملنا بدقة فى الأساليب أو الأسلحة التى تعتمد عليها قوى عرقلة الإبداع والروح النقدية والتقدم، فإن التأمل الموضوعى لابد وأن يؤدى بنا إلى القول إن الاعتقاد بأن تغييرا سيتم من أجل الإبداع، لن يتحقق على أحسن الفروض إلا فى مستقبل بعيد وليس فى المستقبل القريب.

إن الطريق إلى أن تكون لنا إسهاماتنا مستقبلا لا يمكن أن نتصوره إلا بانفتاح على فكر الأمم الأخرى . لا أمل إذن إلا بالإنفتاح على كل تيارات وثقافة العالم الإنفتاح على كل تيارات الفكر الغربى، الإنفتاح على العلم والحضارة وكفانا تلك الدعوات التى تصدر عن أناس اعتبرهم من المتخلفين عقليا وأقصد بهم أولئك الذين يصورون لنا أن الغرب يعيش ظلاما فى ظلام

يصورون لنا العلم وكأنه شر مستطير، يصورون لنا الحضارة الأوروبية وكأنها الفك المفترس الذي يريد أن يتغذى على تراثنا القديم.

كلا يا سادة ليس العلم الغربى ظلاما، ليست الحضارة الأوروبية شرا، ولكن الشر يأتي من الدعوات المغلقة فالظلام يرتبط بضيق الأفق ومن يغلق عليه النوافذ لا بد أن يصاب بضيق التنفس أو سيتنفس هواء راكدا فاسدا. أقول لا بد أن نأخذ أسباب العلم والحضارة والعلم الآن بيد الغرب شئنا أم لم نشأ، الحضارة الآن تتمثل في أوروبا أردنا أم لم نرد فيجب أن نستيقظ ونعرف تماما أننا إذا أردنا لنا فكرا، إذا أردنا لنا اتجاها فلا مفر من الانفتاح على كل التيارات.

ثم بعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض أما أن نهاجم لمجرد الهجوم أن نرفض لمجرد الرفض فإنني بصراحة اعتبر هذا سلوكا عدوانيا يعد أدنى مرتبة من سلوك الحيوانات المفترسة، ولنعتزف بصراحة ولنكاشف أنفسنا على حقيقتها وسنرى أننا إذا فعلنا مستقبلا مثل ما نفعل حاليا فسوف نصل إلى حالة شديدة من التخلف وإذا أدعينا أننا نصعد، فهو صعود إلى الهاوية.

فلنعترف بصراحة أننا نمر الآن بحالة من الكسل العقلي أننا نمر الآن بحالة من جمود الفكر وضيق الأفق. ونحن الآن أمام موقفين كما قلنا يجب علينا أن نختار موقفا منهما، أما أن نباعد بيننا وبين العقل والحضارة والعلم وهذا سيؤدي بنا إلى التخلف والإنهيار والاضمحلال، أو أن نتمسك بأساليب العلم ونجعل العقل هو المعيار وهذا سيؤدي بنا إلى التقدم والازدهار بحيث يأخذ فكرنا العربى مكانة بين الفكر الغربى فالفكر الغربى يتقدم تقدما سريعا أما الفكر العربى فقد أصبح فكرا متوقعا فكرا محليا .

ويبدو لى - وقد وصلنا إلى تلك الحالة التى يرثى لها أنه لا مفر من الإطلاع على الفكر الغربى بكل ما نملك من قوى وأدوات. كفانا - كما قلت - هجوما على العلم وعلى الحضارة فى أوروبا إنه لمن مصائب الزمان أن يهاجم الفرد منا الحضارة والعلم من ميكروفون فى الوقت الذى يجب أن

نعلم فيه أن هذا الميكروفون ثمرة من ثمرات الحضارة، يهاجم الفرد منا العلم الأوروبي ثم يسارع لاستعمال السيارة، والسيارة تعد ثمرة من ثمرات العلم ولو كان هذا الفرد الذى يهاجم العلم متسقا مع نفسه وصريحا معها لاستخدم الدواب فى تنقلاته ولكنه للأسف الشديد يتناقض فى سلوكه مع أقواله. يهاجم الفرد منا العلم الأوروبى ويسود آلاف الصفحات يدفع بها إلى المطبعة والمطبعة أيضا تعد ثمرة من ثمرات الحضارة.

ومن هنا كان واجبا علينا وخاصة بعد أن وصلنا إلى تلك الحالة التى يرثى لها ، أن نقوم بالإطلاع على فكر الغرب ونأخذ منه ما نأخذ دون خوف على شخصيتنا فمن يؤمن بطريق النور والتوير لا خوف عليه لأن هذا الطريق سيؤدى به إلى التقدم إلى الأمام.

إن تراث السلف إذا قصدنا بالسلف أجدادنا من المفكرين لا يعد كله صوابا ولا يعد كله خطأ. إن تراث السلف فى بعضه ما يصلح لنا فى حياتنا الحاضرة. وفى بعضه الآخر ما يعد عائقا بيننا وبين التقدم ولنأخذ فى اعتبارنا أننا لو قرأنا على سبيل المثال كل كتب أجدادنا فى مجال العلوم فلن تساعدنا تلك الكتب على أن نتوصل إلى أى مخترع من المخترعات الحديثة، وجربوا ما شئتم حتى تصدقوا ما أقول به الآن، اجعلوا كتب الماضى هى الكتب المعتمدة والرئيسة فى كلية العلوم فى أى بلدة من البلدان العربية فإذا حدث، لن يكون فى إمكان خريجى تلك الكلية التوصل إلى أى شئ جديد لماذا؟ لأنهم وقفوا عند كتب التراث لأنهم تصوروا أن القديم لا بد أن يعد شيئا عظيما مقدسا لمجرد أنه قديم.

إننا أيها القراء أصبحنا كمن يبكى على الأطلال، إن تجاوز التراث والإنطلاق إلى الحديث والمعاصرة بعد أمرا ضروريا وقد قام أجدادنا بما استطاعوا القيام به فلنشكرهم على ما قاموا به. ولكن لا يصح أن نقف جامدين عند أقوالهم. إنهم أقاموا فكرهم العلمى وتصوراتهم المذهبية على أساس القول بالعناصر الأربعة التى قال بها القدماء وهى التراب والماء والهواء والنار... فهل عدد العناصر الآن أربعة كلا أيها القراء... العلم الآن غير العلم فى الماضى.. والمذاهب الفلسفية التى أقيمت على أساس النظام العلمى القديم أصبحت الآن فى خبر كان، أصبحت الآن تراثا ماضيا وولسى شأنها فلا يصح الوقوف عندها جامدين بل لابد من الإنطلاق منها إلى الفكر

العلمي الحديث لأن المنهج غير منهج الماضي. العلم الآن ليس فيه أى حديث عن الكيفيات بل العلم الآن كم وكم فقط ومن يحشر فى كلامه العلمى أى قول عن الكيفيات فلا أشك لحظة واحدة فى أنه لابد وأن يكون هاربا من مستشفى من مستشفيات الأمراض العقلية.

إن أوروبا لم تتقدم إلا عن طريق السعى بكل قوتها وابتداء من عصر النهضة نحو تحقيق مبدأ التنوير وبحيث وجدنا ثقافة أوروبية جديدة تختلف فى أساسها ومنهجها عن ثقافة العصور الوسطى . لم تقل أوروبا لنفسها أننا يجب أن نقف عند فلسفة فلاسفة الغرب فى العصور الوسطى. بل إنها أمنت بالإنطلاق نحو العقل، نحو الحضارة الحديثة، نحو التنوير، ولكن ماذا نقول وقد تحولت بعض مجلاتنا الفكرية أن لم تكن كلها إلى أبواق دعاية للظلام والرجعية والهجوم على التنوير وذلك لأسباب عديدة من بينها سحر الدولار وما أدراك ما الدولار.

تحديات كثيرة تواجه العرب إذن فى القرن القادم، تحديات ثقافية وتحديات اجتماعية، وتحديات سياسية، إلى آخر تلك التحديات وما أكثرها كما قلت. ولابد أن نواجه هذه التحديات. فمواجهة التحدى أفضل ألف مرة من السكوت واللامبالاة. إن مواجهة التحدى تعد تعبيراً عن "موقف" الإنسان العربى قادر على اتخاذ العديد من المواقف إزاء كل خطر يواجهه، قادر على أن يقرر لنفسه الحياة فى هذا الزمن والأزمان التالية والمهم هو أن يكون إيجابياً عن طريق التسلح بالروح النقدية وليس سلبياً، أو كما قال الشاعر الإنجليزي وليم شكسبير منذ زمان. أن أكون أو لا أكون هذا هو السؤال، أو هذه هى المشكلة.

هذا ما نقول به اليوم إيماننا من جانبنا بالثورة النقدية، نقول به وخاصة أننا ما زلنا لا نجد أماناً إلا النقد الكسيح، النقد الزائف، النقد السطحي، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

الفصل الثالث:

متقفون وأشباه متقفين (ظلمة العدم ونور الوجود).

ويتضمن هذا الفصل العناصر والمجالات التالية:

- ١ - البترو فكر.
- ٢ - من هو المتقف؟
- ٣ - المتقف والمجتمع.
- ٤ - شبابنا وقضية الثقافة.
- ٥ - لغة النور ولغة الظلام.
- ٦ - ثقافة النور وأساطير الظلام.
- ٧ - أسطورة الغزو الثقافي.
- ٨ - الفكر المصرى وتقديس العقل والتتوير.
- ٩ - التليفزيون وإعلان الحرب على الثقافة.
- ١٠ - التليفزيون وثقافة الجيل الجديد.
- ١١ - التليفزيون والإغتراب عن العقل.
- ١٢ - التكامل الثقافى بروية فلسفية.
- ١٣ - الهجوم على الرواد والانهيار الثقافى
- ١٤ - هل يوجد مستقبل لفكرنا العربى؟
- ١٥ - جائزة نوبل وقضية المحلية والعالمية.

"غير مجدية فى ملتى واعتقادى الدعوة إلى إغلاق النوافذ بحيث لا نجد إلا الهواء الفاسد الراكد الذى يؤدى بنا إلى الاختناق والصعود إلى الهاوية، يؤدى بنا إلى العدم. لابد إذن من فتح النوافذ حتى نجد الهواء النقى المتجدد. إن هذا يؤدى بنا إلى الوجود، إلى البقاء، فالوجود باستمرار يرتبط بالنور، وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

(١)

البتروفكر

"لقد وجدنا تحت تأثير البتروفكر قضايا زائفة، كقضايا الغزو الثقافي، والهجوم على الحضارة الغربية، والخلط بين الدين والعلم، وأسلمة العلوم، ونشر الفكر الأصولي، وتدعيم الفكر الإرهابي، والهجوم على الفكر الفلسفي وتدرسه بمدارسنا وجامعاتنا، والدفاع عن التراث جملة وتفصيلا رغم ما نجده في تراثنا من خرافات قد يكون عددها أكثر من عدد سكان الدول العربية من محيطها إلى خليجها ومن مشرقها إلى مغربها".

"البتروفر" فكر

قد لا أكون مبالغاً إذا قلت بأن ظاهرة "البتروفر" تعد من أكثر الظواهر شيوعاً في عالمنا العربي إنها للأسف الشديد تعد معبرة عن نوع من التخلف العقلي والصعود إلى الهاوية، وبحيث أدى انتشارها إلى ضعف ثقافتنا العربية، وجعلها ثقافة محلية راکدة لا نستطيع أن نخاطب بها مثقفي العالم الحر، المثقفين في البلدان المتقدمة. بل من المؤسف له أن نجد ثقافتنا العربية المعاصرة وكأنها أضعف من بيت العنكبوت. ثقافة أضعف بكثير من الثقافة التي وجدناها عند رواد التنوير في عالمنا العربي عامة، ومصر على وجه الخصوص، وذلك منذ أكثر من قرن من الزمان، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

لقد أثّرت تحت تأثير البتروفر مجموعة من القضايا الزائفة في الوقت الذي كنا ننتظر فيه أن تكون أموال البترول مؤدية إلى نشر الفكر الواعي المستنير في عالمنا العربي، وخاصة أن العروبة تعد ثقافة قبل أن تكون سياسة، ولكن حدث العكس. فتحت تأثير البتروفر وجدنا على سبيل المثال لا الحصر قضية الغزو الثقافي، قضية الهجوم على الحضارة الأوروبية، قضية الخلط بين الدين والعلم، قضية أسلمة العلوم، قضية نشر الفكر الأصولي وتدعيم الفكر الإرهابي، قضية الهجوم على الفكر الفلسفي وتدريبه بمدارسنا وجامعاتنا، قضية الدفاع عن التراث جملة وتفصيلاً رغم ما قد نجده في تراثنا من خرافات قد يكون عددها أكثر من عدد سكان الدول العربية من محيطها إلى خليجها ومن مشرقها إلى مغربها.

صدقوني أيها القراء الأعزاء حين أقول لكم بأن العيب ليس في الدين، بل في الفهم الخاطئ للدين. العيب ليس في التراث، ولكن العيب كل العيب إنما يكمن في الوقوف عند التراث ورفض التأويل، وبحيث أصبح حالنا كحال من يبكي على الأطلال.

لقد وجدنا في مصر وفي مطلع عصر التنوير مجموعة من الاتجاهات الفكرية والأدبية كان بالإمكان أن تتبلور في المستقبل إلى مذاهب أدبية ومذاهب فلسفية، ولكن حدثت النكسة، نكسة الفكر حين انتشرت بيننا ظاهرة البتروفيكر، أي الفكر الذي يدور في فلك البترول وارتباط البترول بالدولار، وما أدراك ما الدولار وسحر الدولار.

إنني أحمد الله تعالى على أنني لم أعمل بدولة من دول البترول، ومن هنا فإنني أتكلم بكل صراحة ووضوح. إن أكثر دراساتنا الحالية وخاصة من حيث المنهج، منهج دراستها، قد أصبحت أضحوكة عند الباحثين والمستشرقين الأوروبيين. وهل من المعقول أن يصبح فكر ابن تيمية وتحت تأثير البتروفيكر، هو الفكر المسيطر على أذهان المشتغلين بالفكر في بلداننا العربية، وذلك على الرغم من لا عقلانية فكر هذا الرجل، وما قد يؤدي إليه فكره من إيجاد نوع من الإرهاب الثقافي. هل يستطيع واحد من هؤلاء الذين يخضعون للبتروفيكر أن يكتب كلمة واحدة يدافع فيها عن الفكر الغربي الأوروبي وعن الحضارة الأوروبية؟ كلا ثم كلا. إن المثقف منا إذا كتب دراسة واحدة عن "ابن رشد" وحقيقة فلسفته، فإن الأبواب ستكون مغلقة تماماً أمامه. أما إذا كتب عن "ابن تيمية" وفكره، فإن الأبواب ستكون مفتوحة أمامه وأموال البترول ستكون طوع أمره. هذا ما نقوله بصراحة وبحيث يؤدي بنا إلى الاعتقاد بالصلة بين الغنى والتأخر الفكري، وبين الفقر والتقدم الفكري.

إن المناخ الفكرى السائد فى أكثر بلدان العالم العربى إنما يعد معبرا عن الترحيب بالفكر الذى لا يمكن اعتباره عقلانيا وبالتالي الضيق بالفكر الحر، الفكر العقلانى التتويى. ومن المؤسف له أن الأفكار التى وجدناها فى عالمنا العربى وقبل انتشار ظاهرة البتروفر، تلك الأفكار الحية والتتويى، قد لا يستطيع أحد القول بها حاليا وإلا سيكون مصيره التصفية الجسدية وهذا إن دلنا على شئ، فإنما يدلنا على أننا نرجع إلى السوراء فكرىا ولا نتقدم إلى الأمام ولا تصدقوا فردا من الأفراد يزعم بأن لدينا مذاهب نقدية أدبية، ومذاهب فلسفية، إذ أن الواقع يبين لنا أننا لا نجد فى عالمنا العربى المعاصر فردا واحدا يمكن أن نطلق عليه لفظ "الشاعر" إلا إذا قلنا بأن الشعر إنما يتمثل فى الكلمات المتقاطعة. لا نجد لدينا حركة نقدية، إذ أن ظاهرة البتروفر قد أدت إلى ضرورة القول برأى واحد مقرر على الكل. ألم يذهب ابن تيمية منذ قديم الزمان فى هجومه على الفلسفة إلى القول بأن الفلسفة قد أدت إلى اختلاف الناس؟

لا نجد لدينا مذاهب فلسفية، وإذا قال فرد بغير ذلك، وادعى لنفسه أنه يعد فيلسوفا، فإن هذا القول يعد نوعا من تضخم الأنا، نوعا من السلب والنهب، تماما كشركات توظيف الأموال التى اتخذت من الدين ستارا تخفى وراءه ما تقوم به من إرهاب اقتصادى وخداع للآخرين.

وتحت تأثير البتروفر وجدنا أناسا يقومون بالهجوم على منجزات الحضارة الأوروبية ويقولون بأن كل ما أتى من الغرب إنما يعد فسادا فى فساد. وضلالا ما بعده ضلال. ومن المؤسف له أن هؤلاء الناس الذين يقعون تحت سطوة البتروفر، يتناقض سلوكهم مع أقوالهم. إنهم من أكثر الناس استفادة من منجزات الحضارة الأوروبية. وإذا أصاب واحدا منهم المرض، فإنه يكون من أسبق الناس طلبا للعلاج بالخارج. ويذهب إلى الخارج بطائرة، والطائرة من منجزات الحضارة الأوروبية. إن الواحد من هؤلاء إذا أراد

أن يكون متناسقا مع نفسه، فلا بد ادرك أن يطلب العلاج على أيدي حلاقى الصحة، ولكي ينتقل إليهم فلا مفر من استخدامه الدواب في الترحال.

وظاهرة "البتروفر" قد أدت بما أدت إليه إلى انتشار الخلط بين الدين والعلم. لقد وجد بيننا أناس تصوروا أن الانتصار للدين إنما يتمثل في دفاعهم عن القول بإمكانية استخراج كل النظريات العلمية من الآيات القرآنية. وهذا لعمري يعد نوعا من الإساءة إلى الدين. فالدين ثابت والعلم متغير، فكيف إذن نلحق الثابت بالمتغير؟ وإذا قلنا مثلا بأن نظرية النسبية للعقري أينشتين يمكن استخراجها من الآيات القرآنية، فكيف يكون الحال إذا خرج عالم من العلماء على نظرية النسبية وقال لنا بنظرية علمية أخرى. أذكر أن عالما كبيرا من رجال الدين في دولة بترولية قد ذهب إلى القول بأن الأرض ثابتة وليست متحركة ويدلل على رأيه بالعديد من الحجج المضحكة. وحين قابلت عالما من علماء الجغرافيا بمصر وكان قادما لتوه من تلك الدولة العربية، سألته عن كيفية تدريسه للجغرافيا في تلك البلدة رغم اعتقاد بعض رجالها بأن الأرض ثابتة، فأجابني قائلا: إنني كنت أبدأ دروس الجغرافيا بالقول: يقول الكفار والعياذ بالله بأن الأرض متحركة، فالحقيقة الجغرافية إذن كنت أنسبها إلى الكفار. أرايت أيها القراء الأعزاء مثلا أوضح من هذا المثال وتحت تأثير البتروفر أيضا انتشر القول "بأسلمة العلوم" والواقع أن القائلين بهذا الرأي لم يضعوا في اعتبارهم أن العلم عند العرب لم ينشأ أساسا كعلم دقيق إلا في العصر العباسي، لسبب بسيط جدا وهو حركة الترجمة، ترجمة الكتب العلمية من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. وهذا يعني أننا لا نجد نتاجا علميا للعرب إلا ابتداء من العصر العباسي، وكل ما وجدناه قبل ذلك إنما يعد من قبيل الخبرات، ولا تدخل هذه الخبرات في مجال الفكر العلمي من قريب أو من بعيد.

لقد انتشر بيننا الفقر الفكري، وأصبحت ثقافتنا كلاماً في كلام، وشروحا على شروح ووقفنا عند كتب التراث الصغرى، دون أن نضع في اعتبارنا أن التراث يعنى ما تركه السابقون علينا. وهم مجموعة من أفراد البشر قالوا ما قالوا به بحكم عصرهم، وعصرنا الآن غير عصرهم وليس من الضروري إذن أن يكون كل ما قالوه صواباً. وهل من المعقول أن أقف عند حدود علمهم الذى قام على نظرية العناصر الأربعة، وبحيث أضرب عرض الحائط بالعلم الحديث، البالغ الدقة واليقين.

بل إن ظاهرة التأكيد على القول بأن فلسفتنا تعد فلسفة إسلامية، إنما تعد تلك الظاهرة معبرة عن الوقوع تحت تأثير "البتروفر"، إذ أن الصحيح هو القول بأن فلسفتنا تعد فلسفة عربية، تماماً كما نقول الفلسفة الإنجليزية والفلسفة الفرنسية والفلسفة الألمانية. صحيح أننا وجدنا أناساً قالوا إن فلسفتنا تعد فلسفة إسلامية وقبل انتشار ظاهرة البتروفر، ولكن من الصحيح أيضاً أن الترويج حالياً لتسمية فلسفتنا بأنها فلسفة إسلامية، إنما تم تحت تأثير البتروفر، تماماً كما وجدنا حالياً وتحت تأثير البتروفر، ظاهرة الخلط بين الدين والسياسة.

والواقع أنه ليس بالإمكان الحديث عن سلبات وأخطاء ظاهرة البتروفر. ونقول كم من الأخطاء والكوارث حدثت تحت تأثير تلك الظاهرة. لقد خلطنا الأوراق، وأدى الخلط إلى الإرهاب الفكرى والثقافى، أدى إلى حياة الظلام والكهوف والمغارات. ويقينى أن التنبيه إلى أخطار ومفاسد البتروفر سيؤدى إلى كشف العلاقة بين الأصولية والإرهاب وسيؤدى إلى القول بأن الطريق إلى التنوير، الطريق إلى المستقبل الوضاء المشرق سوف لا يتم إلا بالإيمان بقدرة العقل، العقل الذى خلقه الله فينا. ويوم ينتشر بيننا الفكر العقلانى المستنير وبحيث نبتعد تماماً عن ظاهرة "البتروفر" وبحيث نقول لأصحابها إلى الجحيم وبنس المصير وأن لكم دينكم ولنا دين، فسوف يصبح الحال غير الحال و عندها تصبح لنا كعرب قوة مؤثرة في مجال التيارات الفكرية والعلمية.

(٢)

من هو المثقف؟

"غير مجد في ملتى واعتقادي، التوحيد بين المثقف من جهة، والمتخصص في مجال من المجالات الأكاديمية من جهة أخرى. فإذا اقتصر المتخصص على مجال معين من المجالات، فإنه لا يعد بالضرورة مثقفا. إنه لا يكون مثقفا إلا إذا أضاف إلى تخصصه، اهتماما بالمجالات الثقافية على اختلاف أنواعها ومظاهرها وبما تشمله من فنون وآداب".

(٢)

من هو المثقف؟

كثُر في السنوات الأخيرة وخاصة في عالمنا العربي، الحديث عن الثقافة، وتحديد الشروط التي من أجلها نقول إن فردا من الأفراد يعد مثقفا، أى من هو المثقف، وحاول الكثيرون التفرقة بين المثقف وغير المثقف، وتحديد المصادر التي يأخذ منها المثقف ثقافته.

ومن الأمور التي يؤسف لها في عالمنا العربي، أننا مازلنا نخلط خلطا غريبا بين المثقف من جهة، والمتخصص الدقيق في مجال من مجالات العلوم الإنسانية وغيرها من العلوم من جهة أخرى. بل حاول بعضنا قصر الثقافة على نوع واحد هو الثقافة الدينية، بمعنى أن الفرد لا يعد مثقفا إلا إذا كانت ثقافته تعد أساسا ثقافة دينية، بل إن الثقافات الأخرى الإنسانية لا تعد عندهم ثقافة، بل تعد جهلا وضلالا، تعد نوعا من الانحراف الفكرى وبحيث يكون صاحبها داخلا في دائرة الجهل ومبتعدا بالتالى عن دائرة الثقافة.

بل إن بعض الباحثين في قضايا الثقافة في بعض بلدان العالم العربى، قاموا بالربط بين الثقافة من جهة والالتزام بأيديولوجية فكرية وسياسية واجتماعية معينة، من جهة أخرى، حتى أنهم يصفون غيرهم، أى الذين لا يلتزمون بتلك الأيديولوجية، وليكن مثلا الفكر الاشتراكي، فإذا خرجوا عن إطار هذا الفكر وما يقوم عليه من أيديولوجية محددة، فإنهم يكونون إذن من غير المثقفين، والثقافة منهم براء. وهكذا إلى آخر الأخطاء وما أكثرها، والتي نجدها شائعة في أكثر بلدان عالمنا العربى من شرقه إلى مغربه.

ولهذا كله وجدنا من جانبنا أنه من الضروري أن ننبه إلى الأخطاء العديدة التي تشيع في بلداننا العربية شرقا وغربا، الأخطاء التي تتعلق بقضايا الثقافة، وتحديد من هو المثقف.

غير مجد في ملتي واعتقادي التوحيد بين المثقف من جهة، والمتخصص في مجال من المجالات الأكاديمية من جهة أخرى. فإذا اقتصر المتخصص على مجال معين من المجالات فإنه ليس من الضروري أن يكون مثقفا بل إنه لا يكون مثقفا إلا إذا أضاف إلى تخصصه اهتماما بالمجالات الثقافية على اختلاف أنواعها ومظاهرها وبما تشملها من فنون وآداب.

وإذا كنا نعيش في عالم متغير متطور. عالم نجد فيه العديد من المذاهب الأدبية والاجتماعية والفنية بالإضافة إلى المخترعات العلمية، فإن الفرد منا لا يكون مثقفا إلا إذا ألم بهذه التيارات والمذاهب الأدبية والفنية على اختلاف صورها. ومن هنا يجيء دور الكتاب ودور الأجهزة الثقافية ووسائل الإعلام أيضا في تشكيل الفرد وبناء شخصيته وذلك حتى يكون مثقفا ثقافة شاملة إلى حد كبير ولعل الكتاب يأتي في مقدمة المصادر الثقافية وسيظل الطريق الذهبي نحو الثقافة في أعلى صورها. فيجب علينا إذن الاستفادة من الكتاب وغيره من المصادر الثقافية وذلك حتى نكون مثقفين ثقافة حقيقية وحتى نستطع مواكبة العصر الذي نعيش فيه. ولننظر إلى ما كان يفعله الناس في عصر التنوير في أوروبا وما كان يفعله مفكرون الكبار من أمثال لطفى السيد وطه حسين وسلامة موسى. إن كتاباتهم تشهد على أنهم نظروا إلى الثقافة، نظرة حقيقية. ومن هنا نجدهم يكتبون في شتى المجالات الفكرية والثقافية والاجتماعية الأدبية والفنية. وليس من المنطقي ولا من المناسب أن يكون الفرد وهو يعيش في القرن الواحد والعشرين، غير ملم بأبرز التيارات الاجتماعية والسياسية وأهم المذاهب الأدبية والفنية. إنه إذا

لم يفعل ذلك فإنه سيكون غريبا عن عصره ، سيكون فى واد وعصره فى واد آخر تماما كما يجلس الفرد الذى يجهل لغة من اللغات وسط أناس يتكلمون تلك اللغة التى يجهلها، إن التفاهم بينه وبينهم سيكون مستحيلا. سيكون الحوار بينه وبينهم مقطوعا تماما.

يجب إذن أن نعيش عصرنا. وكم قلنا ونكرر القول بأن كتب التراث إذا كانت مفيدة فى الماضى، فإنه ليس من الضرورى أن تكون لها نفس الفائدة فى العصور الحاضرة أو المستقبلية. بل إن دور المتقف الآن يختلف عن دوره منذ ربع قرن أو نصف قرن، وذلك لأن المتقف الحالى مطالب بالإلمام بكل التغيرات التى تحدث فى السنوات التى يعيشها.

ومن علامات المتقف وخصائصه أن يكون مستتيرا، ألا يكون مغلقا ومنغلقا على نفسه. أن يكون عقله مفتوحا على كل التيارات الفكرية وأن يكون وجدانه ثريا وبحيث لا يتردد فى داسة الأفكار الأدبية والتيارات الفنية. كما أن المتقف ثقافة حقيقية لا يلجأ إلى أى نوع من أنواع الإرهاب الفكرى، فالعقل أعدل الأشياء قسمة بين البشر، فإذا كان يقول بمجموعة من الحجج والأدلة، فإن غيره يستند أيضا إلى أنواع من الحجج والأدلة. ومن هنا فإن المتقف يلجأ إلى الحوار الهادئ المستتير ولا يلجأ إلى الضغط أو الإرهاب. وانظروا أيها القراء الأعزاء إلى بلدان كثيرة وفى عصور متعددة وخاصة عصر التنوير بأوروبا وستجدون أوروبا تموج بالعديد من التيارات الفكرية والأدبية ويكون الناس حريصين على الإطلاع عليها، دون أن يلجأ الواحد منهم إلى السخرية من آراء لا تتفق والآراء التى يقول بها.

من علامات المتقف أيضا، أن تكون له وجهة نظر. وكم أكد على هذا المعنى الكثير من كتاب الغرب، بل كتابنا العرب أيضا ومن بينهم زكى نجيب محمود. فالفرد إذا اطلع - كما قلنا - على العديد من التيارات والمذاهب الفكرية والسياسية والاجتماعية، فإنها لابد أن تؤدى به إلى تشكيل وجهة نظر

له يدافع عنها، ويناقش في هدوء أوجه النظر الأخرى. ومن ليست له وجهة نظر فإنه لا يمكن أن يكون متقفا على وجه الحقيقة.

نضيف إلى ذلك قولنا بأن سلوك المتقف حتى في حياته العادية اليومية، يختلف عن سلوك غير المتقف. فالمتقف حين يقرأ جريدة يومية فإنه لا يقف عند السطور، بل يتعدى ظاهر السطور، إلى ما وراء السطور إن صح هذا التعبير إنه بمقتضى ثقافته التي كونها لنفسه يمتلك قدرة نقدية. يمتلك القدرة على التحليل والموازنة والحكم على الأحداث الاجتماعية والسياسية. أما غير المتقف فإنه يفتقد هذه القدرة، هذه الملكة النقدية ولذلك نراه يقف عند السطح، يقف عند الظاهر إنه يكون مجرد متابع للآخرين، في حين نجد المتقف وقد امتلك الروح النقدية، قادرا على المقارنة، ويتسم بالروح الشكية، إنه يعتز بشخصه فهو لا يتابع الآخرين مجرد متابعة يعرف تماما...، أنه لا توجد بصمة من البصمات تطابق تمام المطابقة بصمة أخرى. يدرك تمام الإدراك أنه لا توجد ورقة شجر إلا وتختلف عن أوراق الشجر الأخرى في كل أرجاء العالم شرقا وغربا. ومن هنا فلا بد أن تكون للمتقف شخصيته التي تتميز عن الشخصيات الأخرى. وإذا لم نجد للفرد شخصية محددة المعالم، ومتميزة الملامح، فإن معنى ذلك أنه لا يعد متقفا ثقافة حقيقية. معنى ذلك أن المصادر الثقافية التي أطلع عليها لم يستفد منها الاستفادة الحقيقية.

وإذا كان المتقف هو - كما قلنا - من يكون حريصا على الإطلاع على كافة التيارات الفكرية والثقافية والفنية، فإن هذا لا بد أن يقوم على تفضيله للجوانب المعنوية ورفعها فوق الجوانب المادية الجسدية. وكلما ارتقى فكر الإنسان واتسعت دائرة معرفته كلما كان مفضلا لكل ما هو معنوي ومدركا لأهميته لأن دور المتقف الحقيقي إنما يتمثل في القراءة والقراءة المستمرة وذلك حتى يكون متقفا، وحتى يكون مختلفا عن الحيوان، إذ أن

الإنسان في حقيقته إنما هو حيوان متقف. حيوان حضارى يسعى إلى ما هو أعلى، إلى ما يحقق إشباعا لذاته الفكرية وروحه السامية، وحتى يكون جديرا بصفة الإنسانية.

والمتقف لابد أن يكون له منهجه فى القراءة. فلا يمكن أن يكون الفرد منا متقفا إذا كانت معارفه عبارة عن شتات من المعلومات المتناثرة وغير المتواصلة أو المنظمة. إنه عادة يكون له منهجه فى القراءة والإستزادة من المعرفة. يكون له القدرة على الحكم على الأحداث الإجتماعية والسياسية بعد التعمق فى الثقافة من كافة مصادرها ووسائلها، وبعد التأمل الطويل والتأنى فى إصدار الأحكام، إذ أن هذا كله سيؤدى به إلى الابتعاد تماما عن كل ما هو خرافى ، كل ما هو أسطورى، كل ما يعد تعبيرا عن اللامعقول والدجل والشعوذة.

(٣)

المنقف والمجتمع

"ليس من المناسب إطلاقاً أن يزعم الفرد منا لنفسه وللآخرين أنه يعد مثقفاً في الوقت الذي لا تكون له اهتماماته الفكرية والسياسية، فالإنسان حيوان مفكر حيوان سياسي، وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

(٣)

المنقّف والمجتمع

نحن نعيش في عالم متغير، عالم يخضع للعديد من التطورات الاجتماعية والسياسية والفكرية الهائلة. ولا يصح إطلاقاً أن يكون المنقّف في واد وما يحدث في مجتمعه من تطورات وتغييرات جذرية في واد آخر بل إننا لا نبالغ في القول إذا ذهبنا إلى الاعتقاد بأن الفرد منا لا يكون منقفاً، إلا إذا حاول من جانبه الإسهام في حل مشكلات المجتمع الذي يعيش فيه وتقديم رؤية مستقبلية تنطلق إلى حد كبير من الواقع السياسى والاجتماعى والفكرى ليس لمجتمعه فقط، بل لسائر المجتمعات الأخرى شرقاً وغرباً وخاصة أن دول العالم تتشابه الآن تشابكاً عجيباً في المصالح والأغراض.

ليس من المناسب إطلاقاً أن يزعم الفرد منا لنفسه وللآخرين أنه يعد منقفاً في الوقت الذي لا تكون له اهتماماته الفكرية والسياسية، إذ أن الإنسان حيوان مفكر، حيوان سياسى. وإذا ضرب الفرد منا بالجوانب الفكرية والسياسية عرض الحائط، فإن معنى ذلك أنه لا ينتسب إلى الدائرة الإنسانية من قريب أو من بعيد، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. إننا نستطيع بسهولة أن نفرق بين متخصص في مجال من المجالات الأكاديمية وبحيث يحصر نفسه في هذا المجال، وبين متخصص في دائرة من دوائر العلوم الإنسانية كانت أو مادية، وفي نفس الوقت تكون له إسهاماته البارزة ليس في المجال النظرى فقط بل في مجال العمل، العمل الاجتماعى والسياسى، وله موقفه الذى يتميز عن موقف الآخرين في مجال رؤيته لحل مشكلتنا الفكرية والسياسية

والإقتصادية وغيرها من المشكلات. وانظروا إلى مفكرينا من المعاصرين. لقد جمع طه حسين بين دوره كأستاذ بالجامعة متخصص فى الأدب أساسا وبين الريادة الفكرية فى مجتمعه. وكم جمع عباس العقاد بين المجالات النظرية والإهتمامات السياسية والفكرية. وكان أحمد لطفى السيد رئيسا للجامعة وفى نفس الوقت أستاذا لجيل وأجيال فى القضايا الإجتماعية والفكرية التى بحث فيها وكم نجد ذلك واضحا غاية الوضوح ولا يحتاج إلى دليل أو برهان عند مفكرنا زكى نجيب محمود حين يجمع بين عمله الأكاديمي فى الجامعة وبين ريادته الفكرية وخوضه العديد من المعارك الفكرية، إلى آخر الأمثلة التى تبين لنا أنه من الضروري لكل فرد يريد لنفسه أن يكون متقفا أن تكون له إسهاماته الفكرية والإجتماعية، تكون له وقفة ورؤية فى مجال الحاضر، بل فى مجال المستقبل أيضا.

ويقيني أننا إذا فعلنا ذلك، فإنه سيكون بالإمكان حل أكثر مشكلاتنا سواء فى مصر، أو فى غيرها من بلدان العالم العربى، ولكننا للأسف الشديد نلهو بالثقافة، نتأثر بظروفنا الإجتماعية وفى نفس الوقت لا نكن مؤثرين فى مجال تشكيل ثقافتنا وفكرنا وواقعنا الذى نعيش فيه. إن أكثر العلوم والفنون لها دورها الإجتماعى، بل دورها السياسى أيضا. ولنفهم هذا جيدا. لا يصح للفرد منا أن يعيش فى برج العاجى أو ينظر إلى الحاضر أو المستقبل من خلال منظور الماضى. أليس مما يدعو إلى الحزن والأسى أن يحاول البعض منا البحث عن حلول لمشكلاتنا الفكرية والسياسية والإجتماعية فى واقعنا المعاصر، عن طريق التمسك بآراء الأقدمين، عن طريق الإلتزام بكل فكرة موجودة فى الكتب الصفراء، كتب التراث، رغم ما قد نجده فى بعض كتب التراث من أباطيل وخرافات. أليس من المناسب والأجدى أن تكون لدينا القدرة على أن نأخذ منها مانأخذ ولكن لا بد أن نرفض منها ما لا يتفق وواقع مجتمعاتنا المعاصرة وإلا سنكون كمن يبكى على

الأطلال. لقد كان مؤلفو تلك الكتب أفرادا بشرا مثلى ومثلك أيها القارئ العزيز ولم يكونوا قديسين. والوقوع فى الأخطاء من طبيعة البشر. هل ننتظر لأنفسنا تقدما فى المجالات الطبيعية والكيميائية والفلكية مثلا إذا جعلنا مناهج كلياتنا العلمية قائمة على دراسة الآراء العلمية عند أمثال جابر بن حيان وابن سينا والحسن بن الهيثم وأبى بكر الرازى وغيرهم؟ لقد أدى هؤلاء دورهم الممتاز ولكن فى الماضى ولكن ليس من الضرورى أن نقف عندهم وعند آرائهم التى تقوم على نظرية العناصر الأربعة التى تستند إلى الجوانب الكيفية، فى حين أن العلم اليوم كم، وكم فقط. هل يمكن أن نقف بحوثنا فى مجال الطيران عند عباس بن فرناس الذى حاول الصعود إلى أعلى عن طريق تركيب جناحين فقط له وكانت النتيجة الحتمية أن يكون صعوده، صعودا إلى الهاوية؟

إن المتقف الحقيقى هو من يحاول أن يسأل نفسه قائلا: ما الدور الذى أستطيع أن أقوم به فى مجتمعى من خلال المجال الذى تخصصت فيه وجعلته هواية لى؟ ونجد ذلك واضحا غاية الوضوح عند طراز ممتاز من المفكرين أصحاب الفكر التجديدى. إنهم لم يقفوا عند اجترار الماضى والتغنى بأمجاده وإلا لكانوا من المقلدين الكسالى، بل حاولوا الربط بين القضايا الفكرية وبين أحداث المجتمعات التى عاشوا فيها. ويقينى أن كل مجال من المجالات العلمية والأدبية والفكرية يمكن أن يكون - كما أشرت منذ قليل - له أبعاده الوظيفية والاجتماعية. وانظروا إلى الدراسات التى تدخل فى مجال علم الجمال على سبيل المثال، عند مفكرين أمثال توفيق الحكيم فى كتابه الممتاز "تحت شمس الفكر"، وعباس العقاد فى كتابه "مراجعات فى الآداب والفنون". أليس هذا أفضل لنا ولمجتمعنا من أن نجعل دراساتنا فى هذا المجال مجموعة من الكلمات المتقاطعة قد لا يفهمها حتى من يكتبها نفسه لأنها كلام فى كلام. إننى لا أقصد من هذه الأمثلة أن أباعد عن إيمانى بأن الفن للفن ولكن

كل ما أود أن أشير إليه أن الباحث أو المتخصص منا في مجال من المجالات من واجبه أن ينطلق من القاعدة النظرية إلى القاعدة الإجتماعية العملية الإنسانية إن هذا واجب علينا جميعا وإلا سنكون كالفرد الذى يتكلم مع نفسه ويدور فى حلقة مفرغة. إننا إذا لم نفعل ذلك وبكل ما نملك من قوة وجهد، فسنجد نوعا من الانفصام بين الفكر والواقع، بين النظر والعمل. إن أى مجال من المجالات الأدبية والفنية والفلسفية يمكننا أن نربط بينه وبين الواقع. وكم نبهنا الفيلسوف الإنجليزي "رسل" إلى ذلك، حتى أنه فى دراسته لتاريخ الفلسفة ابتداء من الفلسفة قبل الميلاد، قد حاول أن يبين لنا صلة الفكر بالواقع، صلة الفلسفة بالمجتمع. نعم يجب علينا الربط بين "المتقف" و"المجتمع" وإذا لم نفعل ذلك فإننا سنكون فى حالة سكون وجمود أو سنرجع إلى الوراء فى حين أن العالم يتحرك من حولنا وذلك حين يحاول الربط الوثيق بين الفكر والواقع، كما يحاول توظيف العديد من الأفكار فى أكثر المجالات العلمية والأدبية. وكم نجد ذلك واضحا فى تاريخنا المعاصر القريب عند أمثال د. أحمد زكى، د. على مشرفة، أحمد أمين، سلامة موسى، لويس عوض وذلك بالإضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من أسماء شخصيات حاولت وما زالت تحاول تأصيل أفكارنا وغرس جذورها فى أعماق مجتمعنا العربى من مشرقه إلى مغربه. فلنبادر إذن إلى ذلك العمل الحيوى وإلا لحقتنا لعنة المفكرين فى كل زمان وكل مكان، وبحيث تتحول حياتنا إلى سواد فى سواد، ونشقى بثقافة الظلام، الثقافة الجرداء فى الأرض القاحلة، وبحيث نباعد بيننا وبين ثقافة النور، ثقافة الإنفتاح على كل التيارات العالمية، وبشرط أن نغرس أفكارنا فى المجتمع، ونربط بين الأبعاد النظرية، والمجالات أو الميادين العملية الواقعية الإجتماعية.

غير مجد فى يقينى واعتقادى أن نباعد بين أفكارنا وبين ما تعانیه مجتمعاتنا العربية من مشكلات، وما يهيم مجتمعنا العربى من خليجه إلى

محيطه من قضايا نجد بعضها يعد داخلا فى إطار القضايا المصيرية. والعجيب أننا نسرف أحيانا فى بحث قضايا يغلب على أبعادها الطابع النظرى، المسرف فى تجريداته، قضايا سوف لا نجد حلولاً لها حتى على مستوى الفكر، لأن طريقة طرحها، إنما كانت خاطئة من الأساس. وانظروا إلى ما يثار من قضايا، وستجدون أن أكثرها ربما يعد مقطوع الصلة بواقعنا الفكرى وأهدافنا التى نسعى إلى تحقيقها، وكم أسرفنا فى بحث قضايا العلاقة بين الدين والعلم، الدين والفلسفة، و لم ينتج عن بحوثنا إلا ما قد يعد نوعاً من الإساءة إلى الدين، أو الإساءة إلى العلم، لأن لكل منهما مجاله وأدواته ووظائفه. كم أخطأنا وأسرفنا فى الكلام عن الغزو الثقافى، مع أن الثقافة لا وطن لها كما نقول اطلبوا العلم ولو فى الصين. ولكن ماذا نفعل إزاء قوم يظنون أو يتوهمون عن طريق خيالهم وأمزجتهم وجود غزو ثقافى، وكأن هذا الغزو له جيوشه. كفانا إذن البحث فى قضايا فارغة، ولنوجه كل مجهوداتنا نحن المتقفون إلى الربط بين أفكارنا وبين ما يحدث بمجتمعاتنا، وذلك حتى نشعر بأن للفكر وظيفته السامية، وأن للعقل قيمته الإبداعية الخلاقة والمؤثرة.

(٤)

شبابنا وقضية الثقافة

"سل أكثر شباب اليوم عن القضايا الفكرية وما تخرجه مطابع العالم من كتب، وستجد أن الشباب بوجه عام يحفظ عن ظهر قلب كل ما يتعلق بكرة القدم وأخبار السينما، ولكنه لا يكاد يدرى شيئاً عن الثقافة، وقضايا الثقافة".

(٤)

شبابنا وقضية الثقافة

اعتقد اعتقادا راسخا أن من يتأمل بعمق وموضوعية أحوال شبابنا اليوم وموقفه من الثقافة لابد وأن ينتهى به الأمر، إن كان دقيقا فى أحكامه وأخذ الأمور مأخذ الجد لا الهزل، إلى الاعتقاد بأن شباب اليوم - على الرغم من أنه فى حد ذاته وطبيعته يعد خيرا وعلى درجة كبيرة من الذكاء - قد وصل إلى حالة يرثى لها، حالة تعد معبرة عن الجهل لا عن الثقافة، تعد معبرة عن السطحية والسذاجة وليست معبرة عن العمق والثراء الفكرى. لا أقول هذا من جانبى تعبيرا عن الاعتقاد بالتساؤم وفقدان الأمل فى إصلاح أحوال شبابنا، ولكننى أضع فى الاعتبار المقارنة بين شباب الماضى الذى كانت الثقافة بالنسبة له مذهباً وعقيدة يؤمن بها ويجد فى طلبها والبحث عنها، وبين شباب اليوم الذى يكاد يعلن الحرب على الثقافة حتى أصبح فى واد والثقافة فى واد آخر، شباب اليوم الذى لا يكاد يهتم بالجوانب الفكرية أو الثقافية من قريب أو بعيد، شباب اليوم الذى أصبح البعد بينه وبين الثقافة كالبعد بين الجن والإنس أصبح البعد بينه وبين الثقافة كالبعد بين السماء والأرض. وإذا اعتقد البعض بأن هذا الحكم يعد قاسياً، فلهم دينهم ولنا دين.

وإذا تساءلنا عن نوعية الكتب التى يقبل عليها شباب اليوم، فإننا للأسف الشديد نجد أن أغلب الشباب لا يقبل على الكتب الأكاديمية الجادة، لا يقبل إلا على الكتب المسطحة التى تقدم له معلومات غير ناضجة، معلومات لا ينتظر من ورائها تكوين العقلية الناضجة، العقلية التى نجدها عند

شباب الماضي. سل شباب اليوم عن القضايا الفكرية، سل شباب اليوم عن محتويات ما تخرجه المطابع من كتب، وستجد أن الشباب بوجه عام يحفظ عن ظهر قلب كل ما يتعلق بكرة القدم مثلا أو أخبار السينما، ولكنه لا يكاد يدري شيئا عن الثقافة وقضايا الثقافة. وإذا انتظرت من أكثر شبابنا إجابة عن أسئلة تدخل في مجال الثقافة الجادة، فوقتك ضائع عبثا، لأن إجاباتهم تعد جهلا على جهل. إن جيل اليوم من الشباب هو جيل الأشياء المسلوقة الفجة، جيل التلفزيون، جيل الساندوتش إن صح هذا التعبير.

ولكن ما الذي أدى بشبابنا إلى أن يصل إلى تلك الحالة من عدم الإقبال على القراءة وعدم الإهتمام بالقضايا الفكرية؟ سؤال لا بد من طرحه ومحاولة الإجابة عنه، إذ أن العيب قد لا يكون عيب الشباب كشباب، بل ما يحيط به من ظروف وأحوال. إن ما يقدم لشباب اليوم - فيما نرى من جانبنا - لا يعد ثقافة بالمعنى الدقيق لكلمة ثقافة. فإذا قلنا أن للجامعة وظيفتها التعليمية الأكاديمية ووظيفتها الثقافية أيضا، فإننا نلاحظ أن الجامعات لم تحقق بصورة واضحة بارزة وظيفتها الأكاديمية ولا وظيفتها الثقافية. ولا نريد أن ندخل في تفاصيل تتعلق بمشكلات التعليم الجامعي أكثر من تعلقها بقضية الثقافة التي نثيرها هنا، ولكننا نكتفي بالقول بأنه من الصعب بل من المستحيل أن تؤدي الجامعة وظيفتها الأكاديمية ووظيفتها الثقافية في ظل آلاف الآلاف من الطلاب الذين يحشرون حشرا في قاعات الدرس. لا يمكن أن يتحقق الهدف الثقافي في الوقت الذي نجد فيه نفرا من الذين يقومون بالتدريس لم يعدوا إعدادا كافيا، وفاقد الشيء لا يعطيه. أذكر أننا حينما كنا طلابا منذ ثلاث قرن أو يزيد، كنا نحرص على حضور ندوات العقاد الفكرية كما كنا نحرص على حضور محاضرات طه حسين وزكي نجيب محمود وتوفيق الطويل لأنهم أعلام في تخصصاتهم الأكاديمية، ونوابغ في دنيا الثقافة وكل واحد منهم

يعد هـرما شامخا عملاقا فى فكرنا العربى وكانوا جميعا هم المثل الأعلى لنا، المثل الذى نحتذيه. فـقارن هذا أيها القارئ العزيز بحالة شباب اليوم. ولكن رغم ذلك كله، فإن شبابنا وفيه الخير كل الخير، يعد معذورا من بعض الجوانب، إذ أن مناهج الجامعات بصورتها الحالية قد وصلت إلى صورة غير متكاملة. ماذا يفعل شباب اليوم وهو يجد أن الكتب الثقافية التى تعمق شخصيته وتؤدى إلى نضجه الثقافى وتكامله قد أصبحت أثمانها فوق طاقته بكثير. إننى اقترح أن تدخل فى مناهج جامعاتنا، مناهج جديدة فى كل كليات الجامعة سواء كانت كليات نظرية أو كليات عملية. ومن هذه المناهج التى اقترحها اليوم، المناهج الخاصة بتكوين الروح العلمية حتى نبعد عن شبابنا الخرافة واللامعقول. المناهج الخاصة بتاريخ الفكر المصرى والعربى حتى نخلق لديه القدوة الحسنة. المناهج الخاصة بأبعاد الشخصية المصرية حتى ننمى لديه الإحساس بالمواطنة. للأسف الشديد هذه مناهج لا نجدها فى أكثر جامعاتنا إن لم يكن فى كلها.

إن شبابنا إذا كان لا يعد قارنا فإن الأسباب المحيطة به قد يكون لها بعض الدور فى ذلك. فهو لا يتلقى فى بعض جامعاتنا ثقافة أكاديمية وخاصة بعد انتشار ما يسمى بالجامعات الإقليمية وهى فى الواقع تعد مدارس وكتاتيب، وإذا تجاوزنا الجامعة إلى خارجها من مؤسسات ووسائل إعلام، فإن شبابنا لا يجد فيها الثقافة الجادة. أين المكتبات العامة؟ لماذا لا يوجد فى كل حى مكتبة تقوم بتمويلها الأجهزة المسنولة عن الشباب؟ هل أدت الإذاعة دورها وأدى التلفزيون دوره فى مجال الثقافة؟ إن برامج الإذاعة والتلفزيون فى واد والثقافة فى واد آخر. قد يقال إنه توجد برامج ثقافية فى هذين الجهازين ولكن هل تكفى الأسماء، أسماء البرامج للقول بوجود برامج ثقافية فى هذين الجهازين؟ الواقع يقول لا. فبعض المتحدثين يشجعون الخرافة لا العلم والثقافة فى نفوس الشباب. إن الإذاعة والتلفزيون يعتمدان على مجرد

أسماء مكررة وكأنه لا يوجد مفكرين فى مصر غير تلك الأسماء التى استهلكت وحشرت حشرا فى دنيا الثقافة، أسماء تتكلم فى أى شئ ماعدا الثقافة.

وبالإضافة إلى ذلك يوجد تساؤل آخر. هل أدت الأجهزة المسئولة عن الشباب دورها؟ الواقع يقول لا. هل العناية بالشباب تعنى فقط أمور الرياضة البدنية؟ إن الرياضة البدنية وهى الشغل الشاغل لكل أجهزة الشباب فى مصر لا تكون عقلا بل تكون جسما. هل يمكن أن يؤدى تنازع من اللاعبين على كرة قدم واحدة، أى تلك التى تسمى بلعبة كرة القدم إلى تكوين الشباب ثقافيا؟ هل الثقافة فى القدمين أم فى العقل والدماغ؟ وإذا كان هذا هو حال الجامعات وحال أجهزة الشباب رغم المجهودات التى يقومون بها، فمن الطبيعى أن يوجد فراغ فكرى لدى شبابنا. وإذا وجد الفراغ الفكرى فما أسهل أن يقع الشباب فريسة لبعض الاتجاهات الدينية المتطرفة التى يدعو إليها من لا ضمير لهم ولا خلق. إننى اعتقد بأننا لو تداركنا أوجه القصور فى جامعاتنا وفى الأجهزة المسئولة عن الشباب وفى وسائلنا الإعلامية أيضا، واهتمنا بقضايا الثقافة والفكر قدر اهتمامنا الحالى بالرياضة البدنية، فإن هذا سيؤدى إلى أن نجد أمامنا شبابا مثقفا، شبابا لا نجد عنده فراغا فكريا. أقول هذا لأننى أعتقد أن شبابنا هو المستقبل الوضاء، شبابنا هو أمل مصرنا المعاصرة ووطننا العزيز.

(٥)

لغة النور ولغة الظلام

"إن لغتنا الفصحى، تعد لغة النور، أما التطوير الذى سيؤدى إلى جعلها لغة عامية، فإن ذلك سيؤدى بها إلى أن تكون لغة الظلام. نقول هذا ولا نمل من تكراره نظرا لأننا نجد فى أرضنا الثقافية من يفسد فيها".

(٥)

لغة النور ولغة الظلام

اعتقد من جانبى اعتقاداً لا تخالجنى فيه ذرة من شك، أن التصدى للبحث فيما صارت إليه أمور لغتنا العربية، يعد من أوجب واجباتنا الثقافية والفكرية. إن اللغة هى وعاء الفكر، ولا فكر بدون لغة للتعبير عن الأبعاد الفكرية والثقافية فى أى مجتمع من المجتمعات.

بل أقول بأننا إذا كنا نبحث حتى الآن فيما نسميه بقضية الأصالة والمعاصرة، فإن البحث فى هذه القضية الكبرى غير مقطوع الصلة بالبحث فى مشكلة لغتنا العربية. تلك المشكلة التى استفحل خطرها بحيث أصبحنا نحتاج لمواجهتها إلى حلول جذرية، حلول حاسمة، حلول كتلك الحلول التى يجد الجراح أو الطبيب أنه لا مفر من اللجوء إليها وذلك بأن يعمد إلى البتر والقطع والاستئصال، استئصال الأسباب أو الأعضاء التى يجد أنه من الضرورى أن يتخلص منها المريض، وإلا زادت حدة مرضه.

نعم إن البحث فى مشكلة لغتنا العربية يعد على علاقة وثيقة بمشكلتنا الكبرى، مشكلة الأصالة والمعاصرة. ومن يريد لنفسه طريق المعاصرة فقط فقد يجد الحل فى اللجوء إلى تطوير اللغة تطويراً قد يؤدى بها إلى فقدان هويتها وكأنها أصبحت أية لغة إلا أن يقال عنها إنها اللغة العربية. ومن يطالب بالأصالة أى التراث فقط فقد يظن أن الحل إنما يتمثل فى الحفاظ على لغة الأجداد كما هى بدون اللجوء إلى أى تطوير قد يكون ضرورياً لمواجهة العصر ومتطلباته، حتى أنهم يطلبون منا أن يتم تدريس الطب باللغة

العربية. وهذه تعد دعوة خاطئة قلباً وقالباً. والحل الأول والحل الثانى فيما نرى من جانبنا لا يمثلان الطريق السليم. إننا إذا قلنا على المستوى الثقافى والفكرى بأنه من الضرورى الجمع بين القديم والجديد، المواءمة بين التراث والمعاصرة، فإن الحل فيما نرى أن نحافظ على لغتنا بكل ما نملك من قوة ونستमित فى الدفاع عنها، ولكن لا مانع من تطويرها، تطويراً لا يؤدي بنا إلى أن نفقدها خصائصها وأبعادها الرئيسة. إن ذلك أفضل لنا من أن ننادى بتدريس بعض العلوم المتطورة باللغة العربية.

إن لغتنا الفصحى يا سادة إنما هي لغة النور، أما التطوير الذى يؤدي إلى جعلها لغة عامية فإنما ذلك سيؤدي بها إلى أن تكون لغة الظلام. إن كل لغة تخضع لنوع من التطوير بمرور العصر وهذا يحتاج منا إلى القيام بعملية اختيار وانتقاء لا أن نحشو عقول الدارسين بنفس المفردات التى نجدها فى كتب التراث القديمة. إن ذلك قد يؤدي بهم إلى الابتعاد عن اللغة العربية وكراهيتهم لها. وهل من المناسب الآن أن نلجأ إلى تعليم لغتنا لطلابنا باستخدام نفس الألفاظ والمفردات اللغوية التى نجدها عند شاعر من شعراء الجاهلية على سبيل المثال؟ كلا ثم كلا.

فلنواجه الأمر بصراحة وموضوعية ولنقل إن جزءاً من المشكلة، مشكلة اللغة العربية إنما يتمثل فى أسلوب تدريسنا لها. إننا إذا لم نواجه المشكلة مواجهة حاسمة، فسيؤدي بنا ذلك إلى نوع من الإغتراب عن لغتنا، والغربة عن ثقافتنا العربية المجيدة.

غير مجدٍ فى يقينى واعتقادى أن نتصور الحل فى اللجوء إلى ما يسمى اللغة العامية. هل العامية يا قوم تعد لغة، أى قواعد نجدها لتلك اللغة؟ هل سمعتم عن لغة بلا قواعد؟ أليس من المؤسف والمخجل أيضاً أن نتباهى بتلك الجرثومة أو الزائدة الدودية التى نطلق عليها ظلماً وعدواناً لغة عامية. إننى أقطع بأن العامية هي لغة الظلام، لغة الركود، لغة الشوارع الخلفية.

أما لغتنا التي يجب أن نتباهى بها بين الأمم قاطبة من مشرق الدنيا إلى مغربها فإنها اللغة العربية الفصحى، لغة النور، لغة المستقبل الوضاء المشرق. اللغة التي يدافع عنها مجمع اللغة العربية وعلى رأسه الدكتور إبراهيم مدكور. لقد استطاعت لغتنا الفصحى أن تنقل إليها كل المعارف والفنون والعلوم التي وصلت إلى العرب في العصر العباسي، وأدت مهمتها على خير وجه. أما أن نلجأ إلى اتهام لغتنا بالتقصير بحيث نتركها تعتمد على مجموعة من الأصوات غير المفهومة ونطلق على تلك الأصوات التي تشبه الكلمات المتقاطعة إنها لغة عامية، فإن هذا يعد من مصائب الزمان. يعد تسليمنا من جانبنا وارتضاء من جانبنا للغة الظلام، تماماً كما يكتب البعض منا مجموعة من العبارات التي لا تسير على قاعدة ويطلق عليها شعراً حديثاً أو شعراً حراً.

إن العروبة - كما بين زكي نجيب محمود - ثقافة قبل أن تكون سياسة. وهل يمكن التعبير عن ثقافتنا العربية بلغة عرجاء مشوهة هي اللغة العامية. إن الفصحى تؤدي إلى التوحيد بين الشعوب العربية، أما العامية فلا يمكنها ذلك من قريب أو من بعيد. إنها لا تزيد عن كونها لهجة من اللهجات إذا فهمها أفراد إقليم داخل دولة فقد لا يفهمها سكان الإقليم الآخر داخل الدولة الواحدة، فهل نطمع والأمر كذلك بأن تكون العامية أداة توحيد ثقافي بين الشعوب العربية قاطبة. إننا حين نقول الشعوب العربية، فإن ذلك يعنى أساساً الشعوب التي تتكلم بالفصحى، بحيث تكون الفصحى هي القاعدة هي النور، ولا تكون العامية إلا الاستثناء النادر الشاذ لأنها لغة الظلام.

نعم إنها لغة الظلام لأنها لا تمثل طريقاً مشتركاً وموجة موحدة: فإذا كان الفرد في الظلام لا يرى من يمشى بجواره فكذلك العامية تجعل الفرد منا وكأنه يرسل على موجة غير الموجة التي يرسل عليها زميله العربي في بلد آخر من البلدان العربية وما أكثرها.

إن لغتنا الفصحى، لغة النور، بإمكانها التعبير عن فنوننا وآدابنا. إن أفضل ما قامت بغنائه أم كلثوم على سبيل المثال إنما.. كان بالفصحى. وأفضل حديث مفهوم إنما يكون بلغتنا الفصحى. وإننى أرجو من كل برامجنا الإذاعية أن يكون البرنامج الثقافى بالإذاعة هو مثلها الأعلى. إنه البرنامج الوحيد الذى يلتزم إلى حد كبير بلغتنا الفصحى ويجعل كل فرد منا نحن العرب يطمئن تماماً على مستقبل لغته، إن كل مواد البرنامج الثقافى بالإذاعة تجعلنا نعتقد بأن لغتنا العربية الفصحى لديها القدرة على التعبير والأداء، تجعل كل واحد منا يفاخر بلغته. ويوم أن تقوم كل برامجنا وموجاتنا الإذاعية بالسير على طريق البرنامج الثقافى بالإذاعة المصرية، فسنضمن للغتنا العربية طريق التقدم والإزدهار والتطور إلى الأمام. ستكون لغتنا هى لغة النور.

إننى إذا كنت أضرب مثلاً يحتذى بالبرنامج الثقافى للإذاعة فإن هذا يؤدى بنا إلى الاعتقاد بأن لغتنا الفصحى، لغة النور، يمكن تعميمها فى كافة برامجنا الإذاعية الإعلامية.

الواقع أننا وصلنا كما قلت إلى حالة من الإغتراب عن لغتنا العظمى، اللغة العربية الفصحى ومن يقارن بين لغتنا فى الماضى، وأحوالها الآن، لابد وأن يشعر بالأسى والحزن. لماذا لا نلزم المتحدثين فى وسائلنا الإعلامية باحترام اللغة وتقديسها، اللغة الفصحى. وإذا كان هذا الأمر يلتزم به تماماً البرنامج الثقافى بالإذاعة، فإنه لا يستطيع وحده القضاء على اللغة العامية التى تشيع كما قلت فى البرنامج والموجات الأخرى إذاعية كانت أو تليفزيونية، اللغة العامية التى تشيع أيضاً فى بعض صفحات جرائدنا ومجلاتنا. ليتنا نعيد النظر فى نظام القبول بجامعاتنا فيما يتعلق بأقسام اللغة العربية فى بعض جامعاتنا. وإن من يقرأ إجابات طلابنا يجد أن بعدها عن

اللغة العربية أبعد من الفرق بين الإنس والجن. أبعد من الفرق بين النور
المبهج الوضاء والظلام الدامس الموحش.

فلنرجع إلى لغتنا ولنتمسك بها تمسكنا بعروبيتنا، تمسكنا بحياتنا
ووجداننا. ومن فقد لغته فقد سر وجوده وسبب حياته. والعيب فينا نحن وليس
العيب في لغتنا.

وأقول من جانبي عن اعتقاد ويقين إن لغتنا الفصحى إنما هي لغة
النور، لغة الإنفتاح، لغة المستقبل. أما السخرية منها واللجوء إلى تلك اللغة
التي حشرت حشراً في لغتنا، أي اللغة العامية فإن هذا بعينه هو طريق
الظلام، الطريق المسدود ولكن أكثرهم لا يعلمون. إنها دعوة من جانبي
للتمسك بلغة النور والابتعاد تماماً عن لغة الظلام. فهل يا ترى ستجد
صداها عند المهتمين بأمور لغتنا والغيورين عليها؟

(٦)

ثقافة النور وأساطير الظلام

"لابد أن نأخذ بأسباب العلم والحضارة. والعلم الآن بيد الغرب شئنا أم لم نشأ. الآداب العالمية الآن تكاد تتبلور في البلدان الأوروبية. الفنون الراقية لا نجدوها الآن إلا في حضارة البحر الأبيض المتوسط إلى حد كبير. فيجب علينا إذن أن نستيقظ ونعرف تماماً أننا إذا أردنا لنا فكراً، أردنا لنا اتجاهاً، فلا مفر من الانفتاح على كل التيارات."

(٦)

ثقافة النور وأساطير الظلام

أعتقد من جانبي اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك، أننا مقبلون على عصر يمكن أن نطلق عليه عصر الركود الثقافي، عصر الظلام، عصر الضياع فكرياً وثقافياً، عصر سنقول فيه للثقافة الجادة - إن لم نكن قد قلنا فعلاً الآن - وداعاً أيتها الثقافة فلا مكان لك في مجتمعنا لأننا قد فضلنا الظلام على النور.

انظروا إلى الواقع الثقافي في مصر الآن، وقارنوه بالواقع الثقافي في مصر منذ نصف قرن أو يزيد، وستجدون أن ثقافة مصر في ماضيها القريب، أفضل ألف مرة من الثقافة في مصر الآن هذا إذا تجاوزنا في القول وقلنا بوجود ثقافة في مصر الآن.

غير مجد في يقيني واعتقادي أن ننظر إلى الثقافة على أنها تعد شيئاً كمالياً يمكن الاستغناء عنه. إننا إذا كنا قد وصلنا إلى هذه الحالة فإننا نستحق لعنة المفكرين في كل زمان ومكان.

والحل فيما أرى، هو الإنفتاح على كل تيارات الفكر الغربي، الإنفتاح على العلم والحضارة الأوروبية. إن الثقافة الأوروبية الآن تمثل ثقافة النور، فلننفتح عليها. وهذا هو ما فعلته مصر، وما فعله مفكرون منذ ما يقرب من نصف قرن، بحيث كانت تلك الفترة تمثل عصر التنوير في مصر. كفانا بإسادة تلك الدعوات التي تصدر عن أناس اعتبرهم من المتخلفين عقلياً، وأقصد بهم أولئك الذين يصورون لنا أن حضارة الغرب تعد ظلاماً في ظلام. يصورون لنا العلم وكأنه شر مستطير، يصورون لنا فكر الغرب وكأنه الفسك المفترس الذي سيقضى على تراثنا القديم.

إننا إذا تحدثنا عن وجه مصر الثقافى، وقارنا بين حالنا الآن، وما كنا عليه منذ نصف قرن أو أكثر منه بقليل، فلا بد أن نأخذ فى اعتبارنا دوماً أن وجه مصر الثقافى، الوجه المنير، الوجه المشرق الوضاء، لم تتحدد معالمه ولم يؤثر تأثيراً كبيراً على كافة بلداننا العربية، إلا لأنه انفتح على الغرب. إن الظلام يرتبط بضيق الأفق. ومن يغلق على نفسه النوافذ والأبواب لابد أن يصاب بضيق التنفس، وسيتنفس هواء راكداً كهواء الشوارع الخلفية، أو هواء الأزقة والحارات.

أقول لابد أن نأخذ بأسباب العلم والحضارة، والعلم الآن بيد الغرب شتتاً أم لم نشأ الآداب العالمية الآن تكاد تتبلور فى البلدان الأوروبية. الفنون الراقية لا نجدتها الآن إلا فى حضارة البحر الأبيض المتوسط إلى حد كبير فيجب علينا إذن أن نستيقظ ونعرف تماماً أننا إذا أردنا لنا فكراً، أردنا لنا اتجاهًا، فلا مفر من الانفتاح على كل التيارات، ثم بعد ذلك فلنأخذ منها ما نأخذ ولنرفض منها ما نرفض. أما أن نهجم لمجرد الهجوم، أن نرفض لمجرد الرفض، فإننى بصراحة اعتبر هذا سلوكاً عدوانياً يعد أدنى مرتبة من سلوك الحيوانات المفترسة، ولنعتزف بصراحة ولنكاشف أنفسنا على حقيقتها وسنرى أننا إذا فعلنا مستقبلاً مثل ما نفعل حالياً فسوف نصل إلى حالة من التخلف يرثى لها، سنكون فى حالة ظلام دامس نتخبط فيه، وإذا ادعينا أننا نتحرك فى الظلام فهى حركة إلى الخلف، أو حركة جمود فى نفس المكان. وإذا ادعينا أننا نصعد فهو صعود إلى الهاوية.

يجب علينا متابعة الوجه المشرق لمصر، الوجه الذى يتمثل فى الثقافة الجادة. إن مصر لم تأخذ مكانتها بين أمم العالم جميعها، إلا عن طريق ثقافتها. لقد كانت علامة جودة الكتاب، أن مؤلفه يعد مصرياً. يجب علينا أن نعتقد بأن حضارة أى شعب إنما تقوم على العقل، تقوم على الفكر. لا تقوم الحضارة على الإهتمام مثلاً بكرة القدم حتى لو أقمنا ملايين المباريات. فالدماغ هو الذى يفرز التفكير، والأرجل لا ينتج عنها إلا السلوك الغليظ، السلوك الوحشى. الدماغ يؤدى إلى ثقافة النور، والجسم لا يؤدى إلا إلى

الظلام، الجسم لا يؤدي إلى الحضارة وإلا كيف نفسر أن الإنسان بماله من عقل هو الذي يبدع الحضارات، أما الحيوان فلا نجد لديه حضارة، أى نوع من الحضارة.

لا أمل فى أن يستعيد العرب مكانتهم الثقافية إلا بتشجيع الكتاب، فالكتاب يمثل العصر الذهبى للثقافة: فلنقم بتدعيمه كما نقوم بدعم رغيف الخبز المخصص لبناء الجسم. لا أمل إلا أن تكون الثقافة فى مقدمة اهتماماتنا. هل سمعتم أيها القراء الأعزاء عن مجلة أدبية كانت تخسر فى الماضى القريب أما الآن فلا نجد لدينا مجلات أدبية متميزة، إذا قصدنا بالأدب معناه الدقيق. لماذا؟ لأن الفكر كان المحور، كانت الناس تتسابق للحصول على الفكر والأدب من أى مكان، أما الآن فلا حديث لها إلا عن المهارة فى استعمال الأرجل، أى كرة القدم مثلاً، لا حديث لها إلا عن المسلسلات التليفزيونية التى تؤدى فى اعتقادى إلى إصابة الإنسان بالتخلف العقلى لأنها تمثل ثقافة الظلام.

لا أمل إلا بأن ننظر إلى تراثنا نظرة جديدة. لنأخذ منه ما يصلح لإرساء ثقافتنا الحاضرة، ولنرفض منه ما لا يصلح لإقامة وجودنا الثقافى المعاصر. أما أن نغلق على أنفسنا الأبواب، ونجتز من التراث لمجرد أنه تراث، فإن هذا لهو الخسران المبين. أى تراث يا سادة. احفظوا كل كتب التراث ولن يكون باستطاعتكم اختراع أبسط نوع من الاختراعات الحديثة. إن التراث وحده لا يكفى. وأقولها بصراحة: إن فى بعض كتب التراث كما هائلاً من الأخطاء، بل الخرافات ربما زاد عددها عن تعداد الشعوب العربية. فالزمان الآن غير زمان الماضى، ومشكلاتنا غير مشكلات أجدادنا فى الماضى البعيد.

لا أمل فى أن يسترد العرب الوجه الثقافى الذى عرفوا طريقه فى الماضى، إلا بتشجيع الترجمة. أليس من المؤسف أننا لا نجد حتى الآن ترجمة عربية لبعض مؤلفات أرسطو. لقد فتح لنا أحمد لطفى السيد طريق التنبه إلى أهمية مؤلفات أرسطو وقام بترجمة بعضها. أليس من المؤسف أننا

لا نجد حتى الآن كتباً تؤرخ للفلسفة اليونانية إلا في القليل النادر وبحيث نجد الشائع، القيام بكتابة مجموعة من المذكرات لطلاب المدارس والجامعات، ولا يقدم عليها إلا أناس على درجة كبيرة من الجهل إننا لو انفقنا على ترجمة الكتاب قدر ما ننفقه على إخراج حلقة في مسلسل تليفزيونى هابط ، لكان حالنا قد تغير تغيراً جذرياً. لو قمنا بتدعيم وتقوية موجة البرنامج الثقافى للإذاعة المصرية وهو القناة الثقافية الوحيدة فى الإذاعة، كما أنه يعد وجهاً مشرفاً لمصر، لكان حالنا غير الحال.

إن الإناء ينضح بما فيه. انظروا إلى كلمات الأغاني فى الماضى. انظروا إلى الأفلام السينمائية فى الماضى والتى كانت تجوب العالم العربى كله من مشرقه إلى مغربه وكانت تمثل الدخلى الثانى لمصر بعد القطن. انظروا إلى الحركة النقدية فى مصرنا العزيزة منذ نصف قرن، وقارنوا هذا كله بما نجده الآن، وستجدون أسباب انصراف شبابنا عن الفكر والثقافة، ستجدون مبررات اهتمامنا بكل شئ ماعدا الفكر وقضاياها.

يقينى أننا لو جعلنا المحور الأساسى فى حياتنا هو الفكر والثقافة الجادة والتزمنا بذلك دوماً، فسنجد أن وجه العرب الثقافى يعود إلى سابق أمجاده وعظمته التى كانت له فى الماضى.

فى اعتقادى أننا لو جعلنا القدوة عند الشباب اليوم ممثلة فى كبار كتابنا وأدبائنا سواء من رحل منهم عنا أو من لا يزال على قيد الحياة، ولم نجعل القدوة ممثلة فى أصحاب الثقافة السطحية، ثقافة القشور، ثقافة الظلام، فسوف نجد أن ثقافة العرب مستقبلاً لا تقل عن ثقافة العرب فى الماضى البعيد. فالفكر يا قوم هو المعبر عن عظمة الإنسان. الثقافة هى أسمى ما يسعى إليه الإنسان وإذا باعدنا بين أنفسنا وبين الفكر، وفصلنا أنفسنا عن الثقافة فقد اخترنا لأنفسنا طريق الموت والعدم والفناء والظلام.

(٧)

أسطورة الغزو الثقافى

"إننا إذا رددنا بيننا ما يقال عنه "غزو ثقافى"، فإننا سنصبح فى حالة اغتراب عن الثقافة، وستصبح ثقافتنا فى خبر كان، وسوف يكون حالنا كمن يتحدث على موجة غير الموجة التى يتحدث من خلالها الطرف الآخر. فالعولمة آتية لا ريب فيها، وعلينا التكيف معها منذ الآن".

(٧)

أسطورة الغزو الثقافى

من القضايا الزائفة والتي كثر الجدل حولها فى السنوات الأخيرة، قضية الغزو الثقافى. نقول إنها قضية زائفة لأنه ليس من المعقول فى الوقت الذى أصبح فيه العالم قرية صغيرة، أن نتحدث عن وجود ثقافة غربية أوروبية يجب أن نبقى نحن أبناء العالم العربى بمعزل عنها.

فكلنا يعلم أن الثقافة الأوروبية هى الثقافة العظيمة التى نجد فيها كل ما هو جديد ورائع فى مجالات الآداب والعلوم والفنون، وبحيث نقول: لى عالمنا العربى يصبح قطعة من أوروبا فى مجال الثقافة والعلوم والفنون، وخاصة أننا لا نجد لدينا الآن إلا ما يسمى بالتوكيلات الفكرية، بمعنى أننا لا نجد فكراً إبداعياً لدينا نحن العرب فى عالمنا المعاصر. وإذا كانت الثقافة الأوروبية ينظر إليها أصحاب الفكر التقليدى الجامد، على أنها تعد نوعاً من الغزو، فإننا نقول: مرحباً بهذا الغزو، إذ أنه يعبر عن ظاهرة صحية، وليس عن ظاهرة مرضية رجعية.

هل من المعقول وبعد انتشار وسائل الإتصال، أن نتحدث عن الغزو الثقافى؟ هل يمكن أن نتصور متقفاً الآن إذا كان يجهل أحدث النظريات العلمية والأدبية والفنية والفلسفية. كيف يمكن أن نقوم بنشر ثقافة النور، وتطوير جامعاتنا العربية ونحن نقيم سداً منيعاً بين ثقافتنا المحلية المحدودة الانتشار، وبين الثقافة الأوروبية العالمية؟ إننا إذا رددنا بيننا ما يقال عنه "غزو ثقافى" فإننا سنصبح فى حالة اغتراب عن الثقافة وستصبح ثقافتنا فى

خبر كان، وسوف يكون حالنا كمن يتحدث على موجة غير الموجة التي يتحدث من خلالها الطرف الآخر.

يجب أن نسعى بكل قوتنا إلى نشر الأفكار الأوروبية، أفكار الدول الأخرى، وذلك عن طريق الترجمة، عن طريق جميع وسائلنا الإعلامية، حتى نكون جديرين بالحياة والبقاء بين الأمم. فالثقافة المحلية لا تشكل متقفاً. الثقافة الداخلية لا يمكنها أن تؤدي إلى خلق المواطن المعاصر.

غير مجدية في ملتي واعتقادي الدعوة إلى إغلاق النوافذ وبحيث لا نجد إلا الهواء الفاسد الراكد الذي يؤدي بنا إلى الإختناق والصعود إلى الهاوية، بل لابد من فتح النوافذ حتى نجد الهواء النقي المتجدد وكم دعانا مفكرون قديماً وأيضاً ابتداء من رفاة الطهطاوى إلى ضرورة الإستفادة من ثقافة الآخرين. نجد هذا عند عميد الفلسفة العقلية ابن رشد، كما نجده عند مفكرين عظام من المعاصرين أمثال لطفي السيد وطه حسين وسلامة موسى وزكى نجيب محمود والأب جورج قنواى.

كيف نتحدث عن قضايا التنوير، والثقافة العالمية، في الوقت الذى يتحدث فيه: أشباه المتقنين عن وهم هو الغزو الثقافى. وإذا فرضنا أن نشر ثقافة الآخرين يعد غزواً، فإننا نقول مرحباً بهذا الغزو، إذ لا يمكن تصور فكر جاد، أدب عالمى، ثقافة إبداعية، إلا عن طريق الإقتران السعيد بين ثقافة الداخل، وثقافة الأمم الأخرى، ومن المنطقى أن يلحق المتأخر بالمتقدم، ولا يصح أن نطلب من المتقدم أن يقف فى مكانه ساكناً جامداً حتى يلحق به المتأخر. إنها سنة الله فى خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. هذا ما نقول به اليوم حتى ندخل فى عصر جديد، يماثل تماماً عصر النهضة الأوروبية.

(٨)

الفكر المصرى وتقديس العقل والتنوير

"إن الفكر المصرى إذا كان قد قدر له مواصلة حركة التنوير الممتازة التى وجدت فى مصر منذ أكثر من قرن من الزمان، فإن حاله سيكون أفضل ألف مرة مما نجده الآن من ضياع فكرى تمثل فى عدم وجود نظريات أدبية عندنا أو وجود نظريات فلسفية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون."

(٨)

الفكر المصرى وتقديس العقل والتنوير

يمكننا القول من جانبنا فى مجال تقديم رؤية لتقافة المستقبل بأننا إذا أردنا لأنفسنا مستقبلاً مزدهراً فى مجال الفكر المصرى فلا طريق إلى ذلك إلا بالسعى بكل قوتنا نحو تقديس العقل من جهة، والتمسك بتقافة النور والتنوير. ومن المؤسف له أن الفكر التنويرى العربى والذى ازدهر خلال فترات طويلة من منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، يحدث عليه الآن نوع من الهجوم من جانب أنصار الظلام والرجعية وكتب التراث الصفراء. إن التنوير يرتبط بالحياة وبالوجود. أما الظلام فإنه يرتبط بالعدم والفناء. ولا أحد منا يملك ذرة من العقل يرتضى لنفسه حياة الظلام وإلا لكان من مملكة الخفافيش التى تفضل الظلام والأماكن المهجورة.

غير مجد فى ملتى واعتقادى الوقوف عند قضايا زائفة تمثل نوعاً من الإرهاب الفكرى ومن بينها الخلط بين الدين والعلم ومحاولة استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية، والهجوم على الحضارة الغربية التى تمثل فيما نرى أعظم أنواع الحضارات الإنسانية، ومحاربة التنوير تحت اسم الصحوة الإسلامية كما يفعل بعض رجال أو جنود الإرهاب الفكرى أو أنصار محاكم التفتيش، والهجوم أيضاً على المذاهب الأدبية والفلسفية التى لها العديد من الإيجابيات، كالوجودية مثلاً وذلك كما حدث فى مصر فى السنوات القليلة الماضية من جانب أناس لم يطلعوا على كتاب واحد من كتب فلاسفة وأدباء الوجودية، أو هجوم بعض الأشباه أو متخلفى العقول على

كتب الصوفي العميق ابن عربي وهكذا إلى آخر السلبيات وما أكثرها والتي وجدناها ومازلنا نجدها في سنواتنا الحالية.

لا بد أن نضع في اعتبارنا أننا نرجع إلى الوراء أو نصعد إلى الهاوية وذلك حين نسخر من تيار التنوير الذي دعانا إليه أمثال رفاعة الطهطاوي وأحمد لطفى السيد وطه حسين وزكى نجيب محمود. أليس من المؤسف له أننا في الوقت الذي نجد أنفسنا فيه في أمس الحاجة إلى النظرات التنويرية التي تقوم على تقديس العقل والتي نجدها في كتابات من أشرنا إليهم منذ قليل من أعلامنا الكبار، يقوم نفر منا تسلحوا بالتخلف العقلي، بالهجوم على العقل، أعدل الأشياء قسمة بين البشر، العقل الذي على أساسه أقامت أوروبا حضارتها وأسست مجدها العظيم. العقل الذي يمثل النور والضياء واليقين. أليس من المؤسف له أننا نجد أناسا تحسبهم أساتذة وما هم بأساتذة يدافعون عن الخرافة والأسطورة وحياة العصر الحجري ويسينون إلى ديننا الحنيف حين يتحدثون عن علم نفس إسلامي وعلم فلك إسلامي وعلم اقتصاد إسلامي وبنوك إسلامية وشركات توظيف أموال تدعى أنها إسلامية والقصد منها السلب والنهب . أليست هذه كلها ظواهر سلبية حدثت في عقد التسعينيات وأدت إلى نوع من الضباب الفكرى وعدم وضوح الرؤية. أدت بالإنسان المصرى المتدين بفطرته والعاقل بغريزته إلى نوع من فقدان التوازن والخلل الفكرى وبئس المصير.

صحيح أننا نشهد العديد من الإيجابيات الفكرية فى مجال الفكر المصرى، ولكننى أقول إن أكثر هذه الإيجابيات قد تم إنجازها على يد بقايا جيل الرواد. إنهم أناس آمنوا بوطنهم ونظروا إلى الأمام دائما وأدركوا أن الله تعالى حين خلق أعيننا فى مقدمة رؤوسنا فإنه قد دعانا بذلك إلى أن ننظر إلى الأمام وبحيث لا ننظر إلى الخلف. أليس التحديث الآن عن سلفية معاصرة أو سلفية ثورية مما يعد نوعا من الكلمات المتقاطعة؟ نعم وإنه كذلك لأنه يعد

خطأ بين الأضداد. أليس الإستماع إلى آراء ابن رشد أفضل ألف مرة من الإستجابة لبعض الآراء التي لا تخلو من تقليد ورجعية ونجدها عند أمثال الغزالي وابن تيمية. وإلى متى سيستمر تقديسنا للتراث وبحيث نأخذ في البكاء على الأطلال واللطم على الخدود، في الوقت الذي قد لا نجد فيه كتاباً من كتب التراث يساعدنا على اختراع نظرية علمية. في الوقت الذي نجد في كثير من كتب التراث الآلاف من الخرافات والتي يزيد عددها بالقطع عن عدد سكان الدول العربية من مشرقها إلى مغربها.

إن الفكر المصري إذا كان قد قدر له مواصلة حركة التطوير الممتازة التي وجدت في مصر منذ أكثر من قرن من الزمان، فإن حاله سيكون أفضل ألف مرة مما نجده الآن من ضياع فكرى تمثل في عدم وجود نظريات أدبية عندنا أو وجود نظريات فلسفية. ألم نشهد في الماضي دعوة إلى الإنفتاح على ثقافات الأمم الأخرى نظراً لأن الإنغلاق يؤدي إلى السكون وعدم الحركة. يؤدي بالإنسان إلى أن يتنفس هواء فاسداً راكداً. فلنتجه بكل قوانا إذن إلى تقديس العقل، إلى السعي نحو الحضارة الأوروبية، إلى رفض الدعوات التي تعبر عن تخلف عقلى وبئس المصير كالقول بغزو ثقافى، أو شن الهجوم على ترجمة الآداب والعلوم الأوروبية. وماذا ننتظر من الغرب؟ هل ننتظر منه أن يتأخر مثلاً. إن واجبنا أن نسعى إلى أن نتقدم مثله لا أن ندعوه تحت اسم المشاركة الوجدانية أن يتأخر مثلاً فلنبادر إذن نحن العرب إلى الاستفادة من الفنون الأوروبية والآداب الأوروبية والفلسفات الأوروبية. ويجب علينا الابتعاد عن صيحات من ينادون بتحريم هذه الفنون والآداب والفلسفات. إنها تقوم على العقل والوجدان. والله تعالى قد خلق عقولنا ووجداناتنا فلماذا إذن نقوم - وكما حدث في السنوات القليلة الماضية - بتحريم هذه الجوانب المضيئة والمشرقة التي تؤدي إلى المتعة

العقلية وتشيع البهجة والسرور في حياتنا وبحيث نبتعد عن ألم الإكتئاب وقسوة روتين الحياة.

إننا إذا وجدنا قوماً من أنصار الرجعية والتقليد يشنون الحرب على هذا الإبداع الإنساني الحضارى التتويرى فإننا يجب أن نقول لهم: لكم دينكم ولنا دين. وإذا أردتم أن تعيشوا أفكاركم الرجعية فيجب عليكم استخدام الدواب في تنقلاتكم من مكان إلى مكان. ولكنهم بطبيعة الحال تتناقض أفعالهم مع أفكارهم السوداء. إنهم يهاجمون الحضارة من ميكروفون، والميكروفون ثمرة من ثمرات الحضارة. يهاجمون الحضارة من خلال صفحات كتاب أسود مظلم الأفكار ومطبوع في المطبعة، والمطبعة ثمرة من ثمرات الحضارة. تنتشر أفكارهم عن طريق الأقمار الصناعية قمة التقدم العلمى الحضارى، ورغم ذلك يهاجمون منجزات الغرب الحضارية. أليست هذه كلها تعد أمثلة على أن أفكارهم تعد كلاماً فى كلام، تعد نوعاً من ثروة النساء فى الشوارع والبيوت.

نقول ونكرر القول: إن مصر بتاريخها الحضارى المزدهر وبعطائها الخالد والذى امتد منذ قرون قبل الميلاد وبحيث عبرت عن أعظم وأقدم حضارة من حضارات البحر الأبيض المتوسط، حضارة الفراعنة، يجب عليها أن تتجه بكل قوة إلى تقديس العقل الذى خلقه الله تعالى لنا وبحيث نقيم عليه النزعة الإنسانية التتويرية. وإن كتبنا معاصرة مثل: مستقبل الثقافة فى مصر لطفه حسين، وفن الأدب لتوفيق الحكيم، وتجديد الفكر العربى لزكى نجيب محمود وغيرها من كتب تمثل الواجهة الحضارية لمصر، ينبغى أن تكون أساس دستورنا الفكرى والثقافى.

أما الكتب السوداء التى تلجأ إلى التجارة بالدين، والوقوف عند التراث لمجرد أنه تراث، وتدعو إلى القول بالغزو الثقافى وغيرها من دعوات مظلمة مغلقة، أو تقول بتحريم كل ما هو حضارى، فإن أنسب مكان لها ونحن نقتررب

من نهاية قرن وبحيث ندخل فى قرن جديد، هو أن تلقى فى النار وبئس المصير. فنحن بين طريقين لا ثالث لهما: إما طريق العقل والتتوير، وإما طريق الخرافة واللامعقول والظلام والضياغ. ومصر بمنجزاتها الحضارية لابد وأن تؤكد على الطريق الأول. الطريق الذى يتمثل فى إحياء النزعة الإنسانية العقلية التتويرية. إن هذه النزعة تقيم الجسور بيننا وبين الدول المتقدمة فكراً، الدول الأوروبية. ولا سبيل إلى إحياء فكرنا المصرى إلا بإقامة الجسور، إلا بالتواصل بيننا وبين الأفكار الحضارية.

إن هدم هذه الجسور سيؤدى بنا إلى الإغتراب عن الواقع، الإغتراب عن الحضارة. فلنبادر إذن بالمحافظة على إيجابيات السنوات الماضية، ونقوم فى نفس الوقت باقتلاع السلبيات التى تمثل فكراً زنبقياً هلامياً طفيلياً، فكراً رجعياً مظلماً. ولا يمكن أن نعيش عصر تقديس العقل، عصر التتوير، إلا بإزالة كل الحواجز والمطبات والعوائق حتى ندك أرض التقليد والرجعية دكاً وبحيث نصعد إلى الفكر الحى لا الميت، الفكر العلمى التجديدى البناء، ونتجه إلى الآداب الراقية والفنون السامية.

(٩)

التليفزيون وإعلان الحرب على الثقافة

"إن الخريطة الثقافية في الماضي لم تكن تركز على المشهورين، لأن الشهرة عمياء، وارجعوا ما شئتم إلى أسماء الذين كانوا يكتبون في مجلاتنا الثقافية في الماضي، أو من كانوا يتحدثون في برامجنا الإذاعية، وستجدون أن الثقافة قد تأكدت في الماضي لأن العبرة لم تكن بالشهرة، أو عن طريق عملة الأقرام، الثقافة في الماضي قامت على أكتاف أناس لهم رصيدهم الثقافي".

(٩)

التلفزيون وإعلان الحرب على الثقافة

من الأمور التى تسترعى الإنتباه وتثير الأسف والدهشة معاً، أننا حين نعالج قضية من القضايا ونبحث عن أسباب القصور فى أى مظهر من مظاهر حياتنا، نبادر بإرجاع أسباب ذلك إلى نقص الإمكانيات المادية حتى نغفى أنفسنا من تحمل مسئولياتنا إزاء كل جانب من جوانب القصور فى حياتنا الفكرية وما أكثرها.

فحينما نتحدث عن البرامج الثقافية بالتلفزيون، نجد أن نفس النغمة تتردد. نغمة نقص الإمكانيات المادية. كلا يا سادة، ليست القضية قضية نقص الإمكانيات، بل هى أخطر من ذلك.

ونبادر أولاً وقبل أن نقدم مقترحاتنا الخاصة بما يقال عنه برامج ثقافية بالتلفزيون بالقول بأن تلك البرامج لم تؤد الغرض المقصود منها. ومن هنا فإنه لا توجد علاقة مباشرة حالياً بين التلفزيون وبين الثقافة. فهذا الجهاز الذى يستمر إرساله أكثر ساعات النهار والليل والذى يمكن أن يؤدى دوراً ثقافياً بارزاً، يقف عاجزاً عن أداء أى دور ثقافى ملموس، وذلك على الرغم من أن شبابنا اليوم فى حالة تدهور ثقافى لا يعلم مداه إلا الله تعالى. وإذا كان شبابنا يقبل على برامج التلفزيون ويظل عدة ساعات أمام هذا الجهاز السحري، فواجبنا إذن أن ننتهز الفرصة ونجعله وسيلة للتثقيف، وسيلة لعلاج ما وصلنا إليه من جهل وأمية ثقافية. إن وظيفة التلفزيون الرئيسية يجب أن تتبلور حول إعطاء أبناء أمتنا جرعة ثقافية وزاداً من العلم والفكر، وخاصة أن شبابنا قد وصل - كما أشرت منذ قليل - إلى حالة يرثى لها.

أقول وأكرر القول بأن التلفزيون لم يؤد حتى الآن دوراً ثقافياً ملموساً في حياة أمتنا. والقضية ليست قضية نقص الإمكانيات. نعم ليس السبب هو نقص الإمكانيات المادية. لا يصح أن تكون الشماعة التي نعلق عليها أخطاءنا هي الإمكانيات المادية. ودعونا نتحدث بصراحة ولنترك الحساسيات جانباً.

هل كانت الإذاعة في الماضي تملك الإمكانيات المادية المتاحة لها الآن؟ ومع ذلك كانت البرامج الثقافية في الماضي كما وكيفاً أفضل كثيراً من البرامج الثقافية في الحاضر. هذا إذا تسامحنا في القول وأطلقنا على برامج اليوم، برامج ثقافية. هل كانت السينما في الماضي تملك الإمكانيات المادية المتاحة لها اليوم؟ ومع ذلك فكانت توجد في الماضي أفلام سينمائية ما زالت حتى الآن تعد معالم على الطريق ولا نستطيع أن نتغافل عنها إذا أردنا أن نؤرخ للسينما في بلدنا. بل إن صناعة السينما في مصر في الماضي بإمكانياتها المادية المتواضعة كانت تمثل الدخل الثاني لمصر بعد القطن مباشرة. ما دخل الإمكانيات المادية في أن نجد متحدثين ممتازين ومتخصصين وبرامج ثقافية تستحق أن تسمى بذلك الاسم؟ قد لا يعلم القارئ أن كثيراً من الأحاديث الإذاعية والتلفزيونية والتي يقوم بها متقنون ثقافة دقيقة، لا يأخذون عليها أجراً لأنه يتم تسجيلها أحياناً خارج الإذاعة والتلفزيون. هل الإمكانيات المادية هي سبب قلة البرامج الثقافية؟ أعتقد تمام الاعتقاد أنه ليست هناك صلة بين نقص الإمكانيات المادية وقلة البرامج الثقافية والدليل على ذلك أن إنتاج تمثيلية أو سهرة راقصة تستغرق مساحة ساعة من الإرسال التلفزيوني يتكلف أضعاف أضعاف ما يتكلفه برنامج ثقافي وخاصة أنه لا يوجد في العالم كله شرقاً وغرباً، مؤلف أو متحدث في مجال ثقافي، يطالب التلفزيون بمكافأة توازي عشر مكافأة ممثل في فيلم تلفزيوني أو راقصة تؤدي رقصة تستغرق عدة دقائق أو ثوان.

هذا بالنسبة للكم. أما بالنسبة للكيف فالرأى عندى هو نفس الرأى لا يصح الإحتجاج بالإمكانات المادية حينما نرى أن التليفزيون أصبح فى واد والثقافة فى واد آخر. بل إن المثقف ثقافة دقيقة حينما يشاهد بعض ما يقال عنه برامج ثقافية بالتليفزيون، يعتقد اعتقاداً راسخاً أن التليفزيون قد دخل معركة ضد الثقافة. إن أكثر ما يقال عنه برامج ثقافية قد أصبح هزياً ولا يلبى أى مطلب من مطالب الإنسان الثقافية.

وحتى لا يقال إننى أكتفى بذكر المشكلات دون ذكر الحلول، فإننى أقترح ما يلى على سبيل المثال لا الحصر، لعلاج أوجه التخلف الثقافى بالتليفزيون.

١- يجب الاستعانة فى تخطيط البرامج الثقافية بالتليفزيون بالمختصين فى لجان المجلس الأعلى للثقافة حتى لا يكون التليفزيون فى واد والثقافة فى واد آخر.

٢- يجب تعيين مستشار ثقافى بالنسبة لكل برنامج من البرامج الثقافية أو مشرف أو مسئول عن المادة العلمية التى تقدم بكل حلقة من حلقات أى برنامج ثقافى مع تحديد طبيعة كل برنامج. وكفانا ما حدث. كفانا محاربة الثقافة بهذه الطريقة، طريقة حشد الأخطاء التى لا حصر لها فى أكثر برامجنا الثقافية بالتليفزيون ولا يصح إطلاقاً أن نترك ذلك لمقدم البرنامج، إذ أحياناً ما تكون وظيفته إدارية وليست وظيفة ثقافية. وهل من المعقول أن يكون مقدم البرنامج متخصصاً فى كل المجالات الثقافية التى تدخل فى إطار برنامجه الذى يقوم بالتقديم له. وليس هذا الاقتراح من جانبى، اقتراحاً غريباً. فى الجامعات بكلياتها على سبيل المثال نميز بين وظيفة إدارية ووظيفة فنية.

٣- المصيبة أننا ما زلنا فى التليفزيون نركز على الأسماء المشهورة، فى حين أن الشهرة عمياء. ليس من الضرورى أن يكون أصحاب الأسماء

المشهورة، متقنين ثقافة أكاديمية دقيقة. فمن الأمور التي يؤسف لها أننا نخلط بين ما يحدث في السينما وما يحدث الآن بالنسبة للبرامج الثقافية. فإذا كان في السينما نجم شباك كما يقال، فلا يصح أن يكون في الثقافة مثل هذا النظام. هل بذل التلفزيون جهده في البحث عن يعملون في صمت؟ أعتقد أن هؤلاء يستطيعون تغيير الخريطة الثقافية للتلفزيون. وهل يعقل أن يكون بإمكان مجموعة من الأدباء والمفكرين وأكثرهم ربما يكون قد وصل إلى ما وصل إليه بدون رصيد ثقافي للأسف الشديد، هل يعقل أن يكون بإمكانهم الحديث كل يوم وفي كل برنامج دون احترام التخصصات التي أصبحت سمة للعصر الحديث. إن الخريطة الثقافية في الماضي لم تكن تركز على المشهورين وارجعوا ما شئتم إلى أسماء الذين كانوا يكتبون في مجلاتنا الثقافية في الماضي أو من كانوا يتحدثون في برامجنا الإذاعية وستجدون أن الثقافة قد تأكدت في الماضي لأن العبرة لم تكن بالشهرة. الثقافة في الماضي قامت على أكتاف أناس لهم رصيدهم الثقافي أساساً، ولم يكونوا ممثلين لعملة الأقزام.

٤- لو احتقل التلفزيون بذكرى علمائنا ومفكرينا سواء منهم القدامى أو من رحلوا عنا منذ فترة ليست بعيدة، وخصص ما يسمى بالأسبوع الثقافي في ذكرى كل عالم أو مفكر بحيث نجد طوال هذا الأسبوع تغطية لأكثر إسهامات المفكر الذي رحل عنا، لتغير حال شبابنا - إن شباب اليوم. والمسئول عن ذلك التلفزيون إلى حد كبير - يحفظ عن ظهر قلب كل ما يتعلق بأى مطرب حتى ما يتعلق بحياته الشخصية في حين أنه لا يكاد يعلم شيئاً عن علمائنا ومفكرينا، بل ربما يحسبهم من أهل الرقص والطرب أو من رجال الاستيراد والتصدير!!!. ومن العجيب والغريب أننا نهاجم الطبيب الذي يخطئ في طبه الجسماني، ولا نشير مجرد إشارة

إلى الأخطاء التى يقع فيها متحدثون فى برامج تليفزيونية، المفروض فيها أنها موجهة إلى العقل، وكأى العقل عندنا أصبح لا قيمة له.

٥- على التليفزيون متابعة ما يحدث فى مجتمعنا وفى العالم كله من أحداث ثقافية فظهور الكتاب حدث ثقافى، وندوة علمية حدث ثقافى.. إلخ فهل يفعل التليفزيون شيئاً يذكر إزاء ذلك؟. لعل المستمعين قد تابعوا ما حدث منذ عدة سنوات فى مناسبة اعتزام مطرب على أن يغنى أغنية من أغانيه، إذ تحدثت أغلب البرامج عن تلك الأغنية حتى قبل أن يؤديها المطرب وناقشت كلماتها وكأنها نص فلسفى مهم. نعم تحدثت أغلب البرامج عن تلك الأغنية وكان ظهورها سيهز الأرض هزاً ويدهكها دكاً ويغير من مجرى تاريخ الغناء فى العالم كله. فهل يفعل التليفزيون ذلك إذا ظهر كتاب أو غير ذلك من أحداث تدخل فى مجال الثقافة. والأدهى من ذلك أن برنامجاً بالتليفزيون قد ارتبط فى أذهان الناس بالجانب الثقافى، يخصص حلقة مدتها عدة ساعات للحديث عن لاعب كرة وكان الثقافة قد انتقلت من الرأس إلى القدم، من الدماغ إلى الرجلين!!!

والواقع أننى أعتقد أن التليفزيون وكما سبق أن أشرنا، لم يؤد حتى الآن دوراً ثقافياً بارزاً فى مجتمعنا. والمساحة لا تتسع لضرب مئات الأمثلة على ما نقول به من الأخطاء التى تقع فى برامج يقال عنها إنها برامج ثقافية. وإذا كان البعض من الذين يغلب عليهم التفاؤل بدون مبرر، يرون أن التليفزيون قد أدى دوراً ثقافياً، فلهم دينهم ولنا دين. إننى أعتقد أنه يوم أن نرى أن التليفزيون قد أصبحت أهم وظيفة من وظائفه هى وظيفة التثقيف بحيث تقوم جنباً إلى جنب مع وظيفته الإعلامية ووظيفته الترفيهية، فإن ذلك سيؤدى إلى تغيير نظرنا إليه، سيؤدى بنا إلى النظر إليه بعين الاحترام والتقدير، أما الآن فإن من يتابع أكثر ما يطلق عليه ظلاماً وعدواناً برامج ثقافية، فسيعتقد - إن كان دقيقاً فى أحكامه - أن التليفزيون فى واد والثقافة فى واد آخر.

(١٠)

التلفزيون وثقافة الجيل الجديد

"التلفزيون في مصر حالياً لم يترك أى بصمة من البصمات
القوية على ثقافة جيلنا الحالى، بل نقول إن التلفزيون في مصر
قد باعد بين شبابنا، وبين التزود بالثقافة كما ينبغى أن تكون
الثقافة."

(١٠)

التلفزيون وثقافة الجيل الجديد

سؤال رئيسى يطرحه الإنسان منا على نفسه ويفرع عنه مجموعة من الأسئلة الجزئية وذلك إذا أراد البحث فى العلاقة بين التلفزيون من جهة، وثقافة الأجيال الجديدة من جهة أخرى. هذا السؤال هو: إذا كان التلفزيون قد دخل كثيراً من بيوتنا سواء فى المدن أو القرى وإذا كنا نقول إن الثقافة هى عماد الشباب فى كل زمان وفى كل مكان فهل بالإمكان أن يصبح التلفزيون فى مصر قناة من قنوات الثقافة فى مصرنا المعاصرة؟ هذا هو السؤال الرئيسى أما الأسئلة التى تتفرع عنه فمن أبرزها ما يلى: هل يعتبر التلفزيون ببرامجه الحالية علامة من علامات الثقافة؟ هل وظيفة التلفزيون تتمثل أساساً فى كونه جهازاً من أجهزة الإعلام؟ هل وظيفته هى الترفيه والتسلية فحسب؟ هل يمكن أن ينشر التلفزيون الثقافة بين أبناء جيلنا من خلال وظيفته الإعلامية ووظيفته الترفيهية، هذا إذا استبعدنا أن تكون وظيفته الرئيسية هى الثقافة ونشر العلم والمعرفة؟

هذه أسئلة لابد وأن يطرحها الإنسان على نفسه ويحاول الإجابة عنها. وسأحاول من جانبى تقديم تصور لما ينبغى أن تكون عليه برامج التلفزيون فى مجال الثقافة وذلك حتى نتبين لنا العلاقة بين التلفزيون من جهة وثقافة الجيل الجديد من جهة أخرى.

أول ما أود أن أشير إليه هو أنه ليس بالإمكان أن يودى التلفزيون وظيفة ثقافية فحسب، ومن هنا فإن الثقافة بمعناها الأكاديمى الجاد لا يمكن أن يكون مصدرها مجموعة من البرامج التلفزيونية فى مجال الثقافة. إن برامج

التلفزيون الثقافية لا تستطيع وحدها تكوين ثقافة الأجيال الجديدة، ومن هنا فإن الكتاب وليس التلفزيون هو عماد الثقافة كان ذلك في الماضي والحاضر وسيظل إلى مستقبل أيامنا.

ولكن التلفزيون يمكن أن يكون وسيلة تعليمية كما هو الحال بالنسبة للاستعانة به في برامج محو الأمية مثلاً أو استخدامه في المدارس والجامعات.

وإذا انتقلنا من الحديث عن التلفزيون بوجه عام، أى دون تخصيص بلدة دون أخرى من بلاد العالم، إلى الحديث عن التلفزيون عندنا في مصر وعن برامجه الحالية وهل تسهم في تكوين ثقافة الأجيال الجديدة، فإننى أعتقد اعتقاداً راسخاً بأن التلفزيون عندنا فى واد والثقافة فى واد آخر، أقول إن البعد الحالى بين التلفزيون وبين الثقافة فى وطننا أكثر من البعد بين الإنسان والجن. إن برامج التلفزيون عندنا بوضعها الحالى إذا شئنا الصراحة والتزمنا الموضوعية وابتعدنا بالتالى عن المجاملة، أقول إن برامج التلفزيون الحالية ليس لها أدنى علاقة بالثقافة ومن هنا فإن التلفزيون فى مصر حالياً لم يترك أى بصمة من البصمات القوية على ثقافة جيلنا الحالى، بل نقول إن التلفزيون فى مصر قد باعد بين شبابنا وبين التزود بالثقافة كما ينبغى أن تكون الثقافة، قد باعد بين جيلنا وبين التزود بالقيم الثقافية الخلاقة المبدعة، بحيث لا نرى أثراً يذكر لبرامج التلفزيون الحالية فى حياتنا الثقافية من قريب أو من بعيد. بل أقول فى حسم إن المشاهد والمتتبع لبرامجنا فى التلفزيون والتى يقال عنها ظلماً إنها برامج ثقافية، لابد وأن يعتقد بأن التلفزيون كأنه دخل فى حرب ضد الثقافة وقضاياها أقول وأكرر القول بأن برامج التلفزيون الحالية فى مصر لا يمكن أن تسهم ولو بقدر ضئيل فى تكوين ثقافة الأجيال الجديدة، بل يوجد الآن تلازم ضرورى بين برامج التلفزيون وبين السخرية من الثقافة الصحيحة السليمة الجادة.

إن البرامج الحالية لا صلة بينها وبين الثقافة إلا إذا اعتقدنا أن الثقافة هى الوقوع فى الأخطاء اللغوية التى لا نجد لها مثيلاً فى أى تليفزيون من تليفزيونات العالم شرقاً وغرباً، إلا إذا اعتقدنا أن الثقافة هى مجرد وضع لوحات فيها كلمة "ثقافة" و"ثقافية" و"علم" ... الخ. إنها مجرد أكليسيات، مجرد ظاهر لا ينبئ عن الباطن، مجرد لوحة تخفى ما تحتها من سذاجة وابتعاد عن القيم الثقافية.

أين الثقافة فى برامج التليفزيون؟ هل الثقافة هى أن نكثر من مسلسلات يقال عنها إنها مسلسلات تاريخية عن مفكرين وأدباء، وتتضمن حشداً من الأخطاء لا سبيل إلى حصرها. هل الثقافة هى الإسراف فى الحديث عن لاعبي الكرة وإذاعة مبارياتهم؟ هل الثقافة تتمثل فى الأغاني التافهة الكلمات والرقصات المعبرة عن بعض أعضاء الجسم البشرى؟ كلا ثم كلا. إن الثقافة يا سادة لا تصدر عن الأرجل والأقدام، لا تصدر عن هز البطون والأجساد، بل الثقافة هى ما كانت صادرة عن وجدان راق نبيل، صادرة عن عقل يحترم خصائص التفكير البشرى، عقل يحترم العلم والحضارة.

راجعوا ما شئتم من برامج التليفزيون الحالية وشاهدوا ما يحدث على الشاشة وستدركون معى أن الإنسان يكاد يصاب بالغثيان. إن الجهاز الذى نطلق عليه "التليفزيون" كان من المتوقع أن يكون جهازاً يبتث الفن والثقافة فى بيوتنا ولكن للأسف الشديد تحول إلى صندوق قد يستخدمه البعض منا مستقبلاً كحزينة لحفظ طعام البطون كأى صندوق، مجرد صندوق من البلاستيك أو الخشب. ولو أدرك مخترعو التليفزيون أنه سيصل إلى تلك الحالة لما أقدموا على اختراعه، إذ ليس من المعقول إطلاقاً أن يكون هناك سد منيع بينه وبين الثقافة، ليس من المعقول أن يتحول إلى أداة لنشر الأخطاء اللغوية والفكرية والبرامج التافهة التى يعتقد المتقف منا بل نصف المتقف أنها لا تدخل فى إطار الثقافة من قريب أو من بعيد.

غير مجد في ملتي واعتقادي، النظر إلى التلفزيون على أن وظيفته الأولى والأخيرة هي التسلية والترفيه بحجة أن الشعب يريد ذلك إن هذا يعد مغالطة وإلما وجدنا أناساً كثيرين في المدينة وفي القرية أيضاً يتساءلون عن الثقافة في التلفزيون. إن المتقف ينتظر من التلفزيون الاهتمام بالقضايا الثقافية، وغير المتقف ينتظر من التلفزيون أن يحقق وظيفته الثقافية حتى ينتقل من عدم الثقافة إلى الثقافة . إنها مغالطة إذن أن يقال إن الشعب لا يريد الثقافة. والدليل على ذلك أيضاً أن الشعب هو الشعب فلماذا تتسبون إليه عدم الإقبال على الثقافة، عدم الإقبال على الفنون الراقية؟ إن من يحترم فكره منا ووجدانه لابد وأن يقبل على الأفلام الأجنبية الراقية التي تعرض أحياناً بالقناة الثانية بحيث يقول وداعاً لأفلام تافهة هزيلة يقال عنها إنها أفلام مصرية. إن الفرد منا يجد الرقى الفكرى فى الأفلام الغربية والموسيقا الكلاسيكية ولا يجدها فى أفلام منقولة نقلاً مشوهاً من أفلام أجنبية وموسيقا هى عبارة عن نوع من الخلط والسرقة التى يقال عنها إنها اقتباس.

بل إننا لو قلنا إن وظيفة التلفزيون هى التسلية والتخفيف عن متاعب الناس فى حياتهم اليومية، فهل التسلية فى عرف المسلسلات التلفزيونية هى الصراخ والبكاء ولطم الخدود وكأننا فى جنازة يومية.

ولو قلنا إن وظيفة التلفزيون هى الجانب الإعلامى فقط، فهل الجانب الإعلامى هو أن يقرأ المذيع نشرة من أوراق أمامه أو يقوم بتلخيص سريع لأخبار وردت بالجرائد وقد أطلع عليها الناس قبل ساعات طويلة من قيامه بهذا التلخيص؟ ما الفرق إذن بين التلفزيون والإذاعة؟ كل الفرق هو أن يشاهد الناس وجه القارئ فى التلفزيون.

إن بلدنا يا سادة عامرة بالمفكرين الجادين، مليئة بالأدباء النابهين ويقتنى أن التلفزيون حين لا يستعين بهم فإنه الخاسر وليسوا هم بخاسرين. أليس من الأولى حرصاً على القيم الثقافية أن يسعى التلفزيون - إذا أراد

أن تكون الثقافة هدفاً من أهدافه - إلى هؤلاء الذين تمنعهم كرامتهم وقدراتهم العلمية والفنية والأدبية والفكرية من السعى إلى التلفزيون. اسألوا الشباب المثقف في بلدنا اليوم عن أسماء كبار مفكرينا وأدبائنا وسيقيني أنه لن يذكر من بين الأسماء حتى اسم من يحسبهم التلفزيون مثقفين وهم أشباه مثقفين.

بل إن برامج التلفزيون الحالية أصبح يضرب بها المثل في البعد عن الثقافة وذلك حين نقول تعبيراً عن جيل غير مثقف ثقافة جادة إنه جيل التلفزيون، أو جيل "تلفزيونجي" إنني مع تقديري لدور التلفزيون ، أعتقد أن التلفزيون إذا لم يكن بإمكانه وحده تكوين ثقافة الجيل الجديد، إلا أنه يمكن أن ننظر إليه كوسيلة من وسائل ثقافة جيلنا، كقناة من القنوات التي تكون علم ومعرفة أبناء أمتنا حالياً ومستقبلاً وذلك حين يدرك التلفزيون بأن الثقافة تعد مطلباً من مطالبه وهدفاً من الأهداف التي يسعى إليها، حين يلجأ إلى كبار مفكرينا وأدبائنا لإنقاذه من عثرته الثقافية.

(١١)

التليفزيون والاعتراب عن العقل

"لا يخفى علينا أن أثر التليفزيون على العقل المصرى يعد حالياً أثراً سيئاً وبرامجه تعد معبرة عن الإعتراب عن العقل والمعقول، بل لا أبالغ إذا قلت إن ملايين الأفراد الذين يشاهدون البرامج الحالية للتليفزيون قد يميلون إلى الأسطورة واللامعقول، تاركين الفكر النقدى والمعقول تماماً."

(١١)

التلفزيون والاعتراب عن العقل

يبدو لي أن من أهم القضايا التي أثّرت وما زالت تثار منذ اختراع التلفزيون وتعميم الإرسال التلفزيوني في أكثر دول العالم إن لم يكن في كلها، هي قضية أثر التلفزيون على العقل والتفكير بوجه عام سواء في العالم الغربي أم في العالم الشرقي والعربي. وسواء أكان هذا الأثر يمثل صورة إيجابية أم صورة سيئة، وهل تؤدي البرامج التلفزيونية إلى تقدم التفكير ونهوض العقل، أم أنها على العكس من ذلك تحدث آثارها السيئة على الفكر الإنساني العقلي بمختلف صورته وتعدد مجالاته.

لا مفر إذن من الاعتراف بالأثر الهائل للتلفزيون على أبناء هذا الجيل بصفة خاصة، حتى أنه يقال عادة في وصف هذا الجيل بأنه جيل التلفزيون، اعترافاً بالأثر الكبير لهذا الجهاز العجيب والساحر في تشكيل عقول ووجدان من يقبلون على متابعة برامجه على اختلاف نوعياتها أي أكانت ثقافية أم كانت ترفيهية أم كانت تعليمية مباشرة.

وإحقاقاً للحق فإننا نقول إن التلفزيون شأنه في ذلك شأن أي اختراع من الاختراعات البشرية له مزاياه وله مضاره، له سلبياته وله إيجابياته. والعبرة ليست بالاختراع في حد ذاته، بل بأوجه استخداماته وتطبيقاته، تماماً كما نتحدث عن الذرة وأوجه استخدامها فيما ينفع الناس، واستعمالها أيضاً في الفتك بملايين الأفراد.

ومن هنا فإننا سنحاول من جانبنا الحديث عن أثر التلفزيون على العقل، سواء أكان أثراً إيجابياً أم كان أثراً سلبياً، كما سنبين كيفية تلاقي

الأخطاء حتى يصبح التلفزيون قوة خلاقة ومؤثرة في تشكيل العقل والوجدان والشعور.

لا يخفى علينا أن أثر التلفزيون على العقل المصرى يعد حالياً أثراً سيئاً، وبرامجه تعد معبرة إلى حد كبير عن الإغتراب عن العقل والمعقول، بل لا أبالغ إذا قلت إن ملايين الأفراد الذين يشاهدون البرامج الحالية للتلفزيونات قد يميلون إلى الأسطورة واللامعقول، تاركين الفكر النقدي والمعقول تماماً.

يضاف إلى ذلك الأخطاء العديدة التي يجدها المشاهد في الكثير من البرامج التلفزيونية منذ وجوده في مصر وحتى أيامنا هذه. وهل ننسى المسلسلات الدينية والتي نجد في أكثرها مجموعة من الأخطاء التاريخية قد لا يقع فيها طلاب المدارس الإعدادية. هل يمكن أن نتجاوز عن الأخطاء والمغالطات التي نجدها في المسلسلات التاريخية وخاصة تلك التي تتعرض لمجموعة من الشخصيات القديمة أو المعاصرة، بل ما يصاحب هذا كله من الأخطاء اللغوية التي قد يهتز لها جسد سيبويه في قبره إذا علم بها، وما يصاحبها أيضاً من نوع من البطء الشديد الذي يصيب الإنسان بالملل. وكم أشارت أكثر من دراسة من الدراسات التي تمت في أمريكا وأوروبا إلى الصلة بين درجة الإبطاء في المسلسلات والبرامج التلفزيونية، وبين ما يحدث للإنسان من تخلف ذهني عقلي ولكن أكثرهم لا يعلمون. فإذا أضفنا إلى ذلك أن ثقافة التلفزيون تعد من نوع الثقافة السريعة الجاهزة، أدركنا تماماً مقدار ما تحدثه من تلف للعقل وتخريب له. ويقيني أن المشرفين على العديد من البرامج التلفزيونية الثقافية لو تعلموا من البرنامج الثاني للإذاعة دقة المعلومات وعمقها لكانوا قد جنبوا أنفسهم مئات الأخطاء والسلبيات التي وقعوا فيها.

ولكن إنصافاً للتلفزيون نقول إننا نقدر دوره فى مجال البرامج التعليمية ودروس محو الأمية فهذه أشياء ضرورية إذ أن التلفزيون ليس للخاصة وحدهم بل لعامة الناس وأيضاً للطلاب. كما نقول إن التلفزيون له وظيفته الإعلامية والترفيهية ومن هنا فلا يصح أن ننتظر منه أن يكون جهازاً ثقافياً فقط كالكتاب مثلاً. وعلى من يريدون التزود بالثقافة الأصيلة والجادة فلا غنى لهم عن الكتاب الذى يمثل التيار الذهبى المتدفق والفيض بالثقافة وسيظل كذلك. نقول هذا إنصافاً للتلفزيون وتقديراً للمجهود الذى يقوم به بعض المشرفين على هذا البرنامج أو ذاك من البرامج التلفزيونية ولكن لابد من التنبيه إلى أننا إذا أردنا للتلفزيون أن يكون قوة دافعة خلاقة للتأثير تأثيراً إيجابياً فى عقول ووجدان أمتنا وبحيث يعوض ما فاتته ويكفر عن ذنوبه وأخطائه، فلا مفر من الأخذ ببعض النصائح والوصايا من بينها ضرورة التعاون والتنسيق بين برامجه الثقافية، والهيئات الثقافية والتعليمية الأخرى فى المجتمع المصرى ومن بينها المجلس الأعلى للثقافة والبرنامج الثائى للإذاعة ومجمع اللغة العربية.. إلخ. إن إنقاذ العقل والتفكير والوجدان لا يمكن أن يتم عن طريق برامج ثقافية بالتلفزيون أو هكذا يقال عنها. والمشاهد لها يدرك تمام الإدراك أنها فى واد، والثقافة فى واد آخر، يعتقد تمام الاعتقاد أنها مقطوعة الصلة بهيئات ثقافية أخرى فى مجتمعنا لها وجهها المشرق الوضاء فلماذا إذن لا يتعاون التلفزيون فى تنسيق برامجه مع تلك الهيئات حتى نضمن واجهة ثقافية وضاءة لمصر. وإذا كنا نجد أكثر من برنامج بالتلفزيون يقال عنه إنه برنامج ثقافى ويركز على مجال الأدب وحده، فإن هذا ليس من المناسب إطلاقاً، فالأدب يعد مجالاً من مجالات الثقافة ولكنه لا يعبر وحده عن الثقافة. فأين إذن البرامج التى تهتم اهتماماً رئيسياً بالعلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية؟ إن هذا الفهم القاصر للثقافة يودى إلى الإخلال بالثقافة كما ينبغى أن تكون الثقافة، يودى إلى تصور خاطئ للموقف كما ينبغى

أن يكون المثقف. إن مصر عامرة بالمفكرين والمتخصصين في كل مجال من المجالات الثقافية فلماذا إذن لا يقوم التلفزيون بالاستفادة منهم وتقديرهم حق قدرهم وكلهم على استعداد لأن يلبي نداء الوطن، نداء الثقافة، نداء الفكر الجاد.

لابد من وضع خريطة ثقافية تكون أمام التلفزيون يشترك في وضعها وتحديد معالمها مفكرون كبار وبحيث لا تقتصر على من يعملون بحكم وظائفهم في التلفزيون. إلى متى سنظل نربط بين الفكر من جهة وأصحاب المناصب الإدارية البراقة من جهة أخرى إن العكس قد يكون هو الصحيح. وليراجع المشاهد للبرامج التلفزيونية أسماء أكثر من يقوم التلفزيون باستضافتهم للحديث في هذا المجال أو ذاك من المجالات الثقافية، ويقينى أنه سيدرك تمام الإدراك أن المعيار الحالى هو الشهرة، فى حين أن الشهرة عمياء. ولهذا لم يكن من الغريب أن يشعر من يحترم ثقافته، يحترم عقله، بأن أكثر ما يعرض أمامه من برامج يقال عنها ظلماً وعدواناً إنها برامج ثقافية، يشعر بأنها ستؤدى إلى إلغاء عقله، إلى وضعه فى حالة من الإغتراب عن العقل بحيث يكون داخلاً فى مجال الأسطورة ومجال اللامعقول.

ينبغى أن تمثل البرامج التلفزيونية حالة الإنفتاح على كل الثقافات الجادة سواء فى عالمنا العربى أو العالم الغربى، وكم يصاب الإنسان بالعديد من الصدمات حين يشاهد مجموعة من البرامج يؤدى بعضها إلى غرس الأسطورة والخرافة فى النفوس، ويؤدى بعضها الآخر إلى الخلط خلطاً عجيباً بين مجال العلم ومجال الدين. يسلم نوع منها إلى مجرد الإيمان بالتراث دون نقده، وهذا من أخطر الأمور، لأننا قد نجد فى بعض كتب التراث المئات بل الآلاف من الخرافات والأوهام.

لابد لكن نقوم بترقية المشاعر والسمو بالوجدان، أن نقتصر فى برامجنا الفنية بالتلفزيون على ما يؤكد ذلك ويقوم بتدعيمه. وليس من

المصلحة إطلاقاً أن ندافع عن بعض الفنون الرخيصة المبتذلة بحجة أنها تعد فنوناً شرقية، وهي أبعد ما تكون عن الفن لأنها تضرب عرض الحائط بكل ما هو سام ونبيل وتؤدي إلى غلظة في الشعور وبرودة في الإحساس الفني.

يجب أن يضع التلفزيون في اعتباره أن وظيفته ليست في الهبوط إلى مستوى المشاهد، بل السمو بعقلية المشاهد، ورفعها إلى مستوى من يتحدثون إليه من خلال البرامج الثقافية والفنية. وليس من المناسب أن يلجأ إلى السطحية بأي حال من الأحوال بحجة أن المشاهدين يريدون ذلك. كلا، بإسادة فكل مشاهد ينتظر الإرتقاء بعقله ووجدانه وليس الهبوط بهما إلى القاع، قاع الجهل والضياح ويقيني أن التلفزيون بإمكانه أن يفعل الكثير للنهوض بعقلية المشاهدين ووجدانهم وحينما يتم ذلك سينظر الجميع إلى التلفزيون نظرة إكبار وإجلال واحترام.

(١٢)

التكامل الثقافي بروية فلسفية

"من أبرز الجوانب التي تؤدي إلى التكامل الثقافي، اللغة. وأقصد اللغة الفصحى وليس القصد اللغة العامية. ولا يخفى علينا أن اللغة الفصحى تعد لغة عامة مشتركة بين أبناء الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط. أما اللغة العامية، فهي لغة لا قواعد لها، لغة محلية".

(١٢)

التكامل الثقافي.... برؤية فلسفية

أعتقد من جانبي اعتقاداً لا يخالجه شك بأن التكامل الثقافي بين مصر والسودان، إذا كان يعد أمراً ضرورياً، فإن هذا التكامل الثقافي يحتاج إلى إبراز الأسس التي يقوم عليها، كما يحتاج أيضاً إلى بيان كيفية إيجاد هذا التكامل بحيث يصبح واقعاً ملموساً حياً يعترف به كل فرد من أبناء مصر والسودان الشقيق.

إننا حين نتكلم عن تكامل اقتصادي وغيره من أنواع التكامل، فإننا نعتقد أن كل نوع من هذه الأنواع لابد أن يسبقه أولاً وقبل كل شيء، ما نسميه بالتكامل الثقافي، بحيث أن التكامل الثقافي يعد سابقاً لهذه الأنواع الأخرى، بل لا نبالغ إذا قلنا بأن هذه الأنواع إنما تركز أساساً على دعائم التكامل الثقافي. إن الثقافة تعد خطأ مشتركاً بين أفراد كل الشعوب، ومن هنا فإن التكامل الثقافي يكون في العادة سابقاً لغيره من أنواع التكامل، تماماً كما نقول إن من يريد أن يشرع في إقامة بناء فلا بد أن يبدأ أولاً بإقامة الأساس الذي سيقوم فوقه البناء.

ولا شك في أننا سواء في مصر أو في السودان قد قطعنا شوطاً في مجال التكامل الثقافي بالإضافة إلى غيره من أنواع التكامل وأجد واجباً على كمثقل ومهتم بقضايا التكامل من جهة، وزائر للسودان الشقيق ما يقرب من أربعين مرة خلال السنوات الماضية من جهة ثلثية، ومن خلال لقائي بكثير من الشخصيات الثقافية والمؤسسات الثقافية في مصر والسودان من جهة ثالثة، أقول أجد من أوجب الواجبات على، تقديم بعض الإقتراحات

ووجهات النظر فيما يتعلق بقضية التكامل الثقافى بين مصر والسودان، وذلك حتى يصبح التكامل الثقافى - كما قلت نامياً ومزدهراً، وواقعاً حياً ملموساً.

أولاً: من أبرز الجوانب التى تؤدى قدماً نحو التكامل الثقافى، اللغة، وأقصد اللغة الفصحى وليست اللغة العامية. ولا يخفى علينا أن اللغة الفصحى تعد لغة عامة مشتركة بين أبناء الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط. أما اللغة العامية فلا تعد لغة مشتركة ومن هنا فلنحرص جميعاً على اللغة الفصحى سواء فى كتبنا أو مقالاتنا أو فى فنوننا وعندنا روائع من الشعر القديم والحديث، تصلح أن تكون أغان وقصائد ويقينى أن الغناء العربى لا يزدهر إلا بالتمسك بالفصحى. صحيح أنه قد يقال إن اللغة العامية تعد أسهل من حيث التعبير ومن حيث الفهم، ولكنها لاتعبر عادة عن فن راق يخاطب الوجدان النبيل والعاطفة السامية. ولو استعرضنا أكثر الأغاني لكبار المطربين والمطربات لوجدنا أن ما كان منها باللغة الفصحى فإنه يكتب له الخلود أكثر بكثير من أغاني العامية، كما نقول إن اللغة الفصحى فى الشعر أفضل كثيراً من استعمال اللغة العامية الدارجة. لقد بعدنا وبعدنا كثيراً عن لغتنا الفصحى سواء فى حياتنا العادية أو فى بعض كتاباتنا وأن لنا أن نعود إليها، نعود إلى اللغة التى تستطيع التعبير فى كل مجالات العلوم والثقافة والفنون، تستطيع التعبير عن كل خلجات النفس والشعور.

إن المحاضرة مثلاً إذا ألقاها فرد ما بلغة عامية على مجموعة من الأفراد من بلاد عربية مختلفة، فلن يفهمها كل هؤلاء الأفراد. إذا فهمها مجموعة من الأفراد فى بلدة ما، فلن يفهمها مجموعة الأفراد الذين ينتمون إلى بلدة عربية أخرى، ولا سبيل إلا أن تكون مفهومة لدى كل أفراد الدول العربية كلها إلا بأن تكون باللغة الأم، اللغة المشتركة، اللغة الفصحى.

ونحمد الله تعالى على أننا فى مصر والسودان، لغتنا هى العربية، ولكن كل ما

أرجوه هو التمسك أساساً باللغة الفصحى في كل المجالات التي تدخل في إطار الثقافة والفنون. لابد أن نسعى بكل قوتنا نحو لغتنا الفصحى بحيث تكون أداة التعبير في كل فن أو قصيدة أو كتاب أو مقالة ... إلخ. ومن سنوات بعيدة نبهنا كثير من المفكرين من أمثال طه حسين إلى أهمية التمسك بالفصحى كلغة مشتركة، وبينوا لنا أن اللغة العامية تعد لغة محلية، أي ليست لغة مشتركة.

أذكر أنني حينما كنت أعمل أستاذاً بإحدى جامعات الجزائر، أن اللغة المحلية لم تكن مفهومة بنفس درجة الفهم بالنسبة للغة الفصحى. إن اللغة العامية إذا استعملها فرد جزائري وفهمها الآخرون من أبناء الجزائر، فإنها قد تكون غير مفهومة - كما قلت - بالنسبة لمواطنين عرب آخرين.

لابد إذن ونحن نهتم الآن بالتكامل الثقافي وقضاياها، أن نجعل الفصحى هي أساس التعبير، على اختلاف مجالات ذلك التعبير قولاً كان أو كتابة.

ثانياً: إذا كانت اللغة وهي أداة التعبير لابدو أن تكون اللغة الفصحى، فإننا إذا انتقلنا من الأداة (اللغة) إلى الموضوعات التي يمكن أن نعبر عنها بتلك اللغة، وجدنا موضوعات لا حصر لها يؤدي بحثها إلى تدعيم التكامل الثقافي بين مصر والسودان توجد قضايا عديدة يمكن أن يبحث فيها المثقفون في مصر والسودان من بينها قضية الأصالة والمعاصرة، وقضية إحياء التراث العربي الإسلامي، وقضية اغتراب الشباب عن الثقافة الجادة بحيث ينصرف عنها إلى الثقافة غير الجادة التي تتمثل في التليفزيون على سبيل المثال، ومبتعداً بذلك عن ثقافة الكتاب، الثقافة التي لا غنى عنها، إلى غير ذلك من قضايا لا يمكن البحث فيها أو تقديم تصور لها إلا باشتراك المثقفين ورجال الفكر في كل من مصر والسودان.

ثالثاً: للجامعات سواء في مصر أو السودان نورها الحيوى والهام في السعى نحو التكامل الثقافى. ولابد من إقامة مواسم ثقافية تأخذ شكل الندوات والمحاضرات، أيضاً يهتم من خلالها أساتذة الجامعات بالبحث فى المشكلات الجامعية، ومشكلات المجتمع أيضاً، وهى مشكلات تهتم كل أبناء مصر والسودان.

يضاف إلى ذلك أن المناهج الحالية لجامعاتنا في مصر والسودان تحتاج إلى إعادة نظر، تحتاج إلى الكثير من التعديلات التى تؤدى إلى خدمة قضية التكامل حتى يكون شباب مصر على معرفة واعية بكل الجوانب الثقافية والتعليمية بالسودان وأيضاً حتى يكون شباب السودان على معرفة كاملة بكل الأبعاد الثقافية الخاصة بمصر.

رابعاً: المجالات الثقافية وغيرها من صحف ودوريات يجب أن تأخذ فى اعتبارها الجوانب والمجالات الثقافية والفكرية والفنية فى كل من مصر والسودان. صحيح أننا قطعنا شوطاً فى هذا المجال عن طريق مجلة "الوادى" على سبيل المثال، ولكننا بإمكاننا الاستمرار فى تدعيم طريق التكامل عن طريق المزيد من الصحف والمجلات.

خامساً: دراسة العادات والتقاليد الإجتماعية فى كل من مصر والسودان، ومما يساعد على ذلك وجود عادات وتقاليد مشتركة أى موجودة فى كل من مصر والسودان. ويقىنى أن دراسة تلك العادات والتقاليد والنظم الإجتماعية من الأشياء الهامة التى لابد أن نأخذها فى اعتبارنا حين نضع أمام أعيننا قضية التكامل.

سادساً: الفنون بكل صورها من لوحات فنية وغناء ورقص وموسيقا وأفلام سينمائية ومسرحيات إلى آخر تلك المجالات الفنية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع التكامل وينبغى تشجيع الأعمال المشتركة الفنية بين أهل الفن فى كل من مصر والسودان.

مبادئ: الكتب الثقافية في كل من مصر والسودان، ينبغي تشجيع تداولها وانتقالها من وطن إلى آخر ودعمها مادياً، فالكتاب من أهم المجالات الثقافية وإذا شجعنا بكل قوتنا سهولة إيجاد الكتب الثقافية في كل من البلدين، فإن هذا يعني تدعيماً للتكامل وإرساء لقواعده.

وإذا كان المجال لا يتسع لسرد كل الجوانب التي ترتبط بالتكامل الثقافي من قريب أو من بعيد، إلا أننا نرجو أن تكون تلك الأمثلة التي ذكرناها، تؤدي تحقيقها إلى التكامل الثقافي للإخوة الأعزاء في كل من مصر والسودان.

(١٣)

الهجوم على الرواد والإتهام الثقافي

"لا يصح للامعقول أن يطغى على المعقول، فالمعقول هو الذي يصح اللامعقول. وإذا انتصرنا للامعقول، فقد حقت علينا لعنة السماء وسنصبح من أكثر الأمم تخلفاً وهمجية. ولا يصح ونحن في القرن العشرين، أن يقيم اللامعقول محاكم تفتيش للعقل والمعقول".

(١٣)

الهجوم على الرواد... والإتهيار الثقافى

ظاهرة يؤسف لها أشد الأسف، ظاهرة تجاوزت مصر إلى بلدان عربية أخرى، تلك الظاهرة هى الهجوم على رواد الفكر فى مصرنا المعاصرة، ولا أشك فى أنها تعد تعبيراً، تعبيراً ظاهراً عن الإفلاس الثقافى والضحالة الفكرية.

لقد ظهرت نغمة نشاز فى مجتمعنا المصرى وبلدان عربية أخرى، تلك النغمة هى توجيه مجموعة من المطاعن والإتهامات إلى روادنا فى مجال الفكر والأدب والثقافة، والذين نفاخر بهم بين الأمم ولولا المجهودات التى قاموا بها لما تصورنا وجوداً أو ثقلاً ثقافياً فى مصرنا المعاصرة. إن الأهرامات إذا كانت تعد دليلاً على عظمة مصر القديمة ويأتى إليها الناس من الشرق والغرب انبهاراً بها وتسليماً بعظمة بناتها، فإن روادنا من أمثال محمد عبده وسيد درويش وطه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ إن هم إلا أهرامنا الثقافىة والفنية الذين نباهى بهم بين الأمم، كما نفخر بكل من سار على دربهم وشق الطريق أمام أكثر من جيل وذلك وسط الصخور والأشواك من أمثال زكى نجيب محمود وتوفيق الطويل وأمين الخولى ورياض السنباطى إلى آخر هؤلاء العمالقة.

من أعجب الأمور أننا نجد أن القيم قد انهارت وأصبحت الكلمة للصغار دون الكبار، وصار كل متخرج من مدارس محو الأمية يحسب نفسه مفكراً كبيراً وناقداً عظيماً، وهؤلاء هم الأشباه والظلال الباهتة، هؤلاء هم أهل التقليد لا التجديد، أهل الإنغلاق لا الإنفتاح الفكرى والثقافى.

ماذا حدث لحياتنا الثقافية فى العصر الحالى؟ إفلاس ثم تخريب، والدليل على ذلك تلك الحملات الضارية على نجوم ساطعة فى حياتنا الفكرية الحديثة والمعاصرة والإعلان من جانب هؤلاء الأشباه بأنهم جيل بلا أساتذة.

أليس من حق المفكر أن يقول بالآراء التى يعتقد بصوابها ويقدم الأدلة عليها؟ أليس من حق الكاتب أن يختار أسلوبه فى الكتابة للتعبير عن أفكاره وأدبه؟ فلماذا إذن تلك الهجمات من جانب الأشباه والصغار.

حملات ما أكثرها وتدعو إلى الأسف والتشاؤم من مستقبل حياتنا الفكرية من بينها أن طه حسين كان مقلداً ومروجاً لآراء بعض المستشرقين، وأن طه حسين قد كتب له أناس بعض كتبه، وأن العقاد لا يفهم ما يكتبه لأن أسلوبه غاية فى الصعوبة، وأن محمود تيمور لم يكتب بعض قصصه بنفسه، بل كتبها له آخرون.... إلى آخر تلك الحملات التى إذا حاولنا إحصاءها لملأنا صفحات مجلد من المجلدات، وكان الأجدر بهؤلاء أن يقدموا شيئاً نافعاً للبشرية ولأبناء وطننا فإن هذا يعد خيراً لهم من إضاعة وقتهم فى محاولة تحطيم عمالقة فكرنا.

إننا لو وجدنا الآن مفكرين أكثر دقة وعمقا من رواد سابقين فيجب ألا ننسى أن المفكرين الحاليين قد صعدوا فوق أكتاف السابقين ومن يصعد فوق أكتاف الآخرين يكون مدى الرؤية بالنسبة له أكثر اتساعاً من الشخص الذى تم الصعود فوق أكتافه. يجب علينا أن نتذكر ذلك جيداً حتى لا نخطئ فى حق روادنا ومفكرينا.

ينبغى علينا أن نتذكر جيداً ونضع نصب أعيننا باستمرار أن كل رائد من روادنا فى مجال الفكر إنما يعد هراً من أهramاتنا الثقافية، وبناء شامخاً معبراً عن حضارتنا ومجدنا، وإن علينا لا إلقاء الحجارة على مفكرينا الكبار والتشكيك فى قدراتهم الفكرية وفى الدور الذى قاموا به، بل مواصلة البناء

والسير فى الطريق الذى أصبح أماناً ممهداً ومعبدًا بفضل جهودهم الجبارة إذ كانوا كالمكتشفين الجدد لعوالم فكرية وأدبية وفنية.

إننى أفهم أن نختلف معهم فى رأى فهذا من حقنا ولكل جيل مطالبه وقضاياها التى قد تختلف فى قليل أو فى كثير عن مطالب وقضايا الجيل أو الأجيال السابقة عليه، ولكننى لا أدرى مبرراً واحداً يدفع البعض منا ومن بينهم أقزام فكر وأشباه دارسين، إلى أن يحاولوا هدم ما بناه مفكرون وأبائونا. هل أخطأ طه حسين مثلاً حين نادى بحركة التنوير، ونقل إلينا الثقافة الغربية وانتصر للعقل بكل أمجاده؟ كلا ثم كلا. فإذا كان البعض يهاجمه لدعوته إلى العقل فإن اللامعقول يا سادة لا يمكنه أن يطغى على المعقول وإذا انتصرنا للامعقول وللخرافة فقد حقت علينا لعنة السماء وسنصبح من أكثر الأمم تخلفاً وهجمية. ولا يصح ونحن فى القرن العشرين أن يقيم اللامعقول محاكم تفتيش للعقل والمعقول.

هل أخطأ طه حسين وكل من ساروا على دربه حين نادوا بالأخذ عن الغرب والاستفادة من فكرهم؟ كلا، إنهم إذا كانوا قد تأثروا بأفكار الغربيين من الفلاسفة والمستشرقين فإن التأثير يعد ظاهرة صحية، وكل مفكر لابد وأن يتأثر بالسابقين بطريقة مباشرة، أو غير مباشرة وعدم التأثير قد يعنى الجهل والتخلف وإلا فلماذا نمنع على مفكرينا التأثر بالغربيين وفى نفس الوقت نعلن فى أكثر من مناسبة بأن الغرب قد أخذ عن علمائنا ومفكرينا أيام عصر النهضة؟ ألا يعد هذا نوعاً من أخطر أنواع التناقض. إننا يا سادة ما زلنا حتى الآن على عالمة على مجهودات مفكرى الغرب، عالمة على الدراسات التى قدمها لنا المستشرقون وبذلوا من أجلها كل ما أوتوا من صحة ومال. ينبغى أن نضع أماناً باستمرار قول المفكر الأمريكى ول ديورانت وهو بصدد دفاعه عن ابن سينا. إن ديورانت يقول: إن المبدعين تمام الإبداع، الأصلاء تمام الأصالة لا يوجدون إلا فى مستشفيات الأمراض العقلية. لقد

قال ذلك وهو يرد على من اتهموا ابن سينا وغيره من فلاسفة العرب بأنهم كانوا مجرد مقلدين لفلاسفة اليونان.

هل يعد العقاد مخطئاً حين أثر لنفسه وللقرءاء أسلوباً تميز به في كتاباته؟ ماذا كنا ننتظر من العقاد؟ هل كنا ننتظر منه أن يكتب باللغة العامية، أن يكتب باللغة التي تسود اليوم وسائلنا الإعلامية، لقد كان العقاد حريصاً على أن يعلن في أكثر ندواته التي تشرفت بحضورها سواء في القاهرة أو في أسوان أنه يهدف إلى رفع القراء إلى مستواه لا أن ينزل إلى مستواهم، فهل هذا يعد خطأ وشرأ مستطيراً كما يذهب بعض الأشباه في تلك الأيام. إن البعض منا إذا لم يفهم أسلوب العقاد فليس من الضروري أن يكون العيب في أسلوب العقاد بل قد يكون العيب في هؤلاء الذين لا يفهمون أسلوبه. حدث في أحد الأعوام أن ألف أحد الفلاسفة الألمان كتاباً من كتبه، ويعد أول كتبه ولم يقدر لهذا الكتاب أن يجد رواجاً بين القراء فقال هذا الفيلسوف مدافعاً عن الكتاب ومبيناً أن العيب ليس من الضروري أن يكون في الكتاب، إن كتاباً مثل هذا كالمرآة إذا نظر فيها حمار فهل نتوقع أن يرى فيها ملاكاً؟

إن التاريخ يعيد نفسه، والناخب منا هو الذي يأخذ عظمته من التاريخ. لقد هوجم أكثر المفكرين ومن بينهم سقراط والحلاج والسهروردي وابن باجه وابن رشد وديكارت وسبينوزا وصدرت على بعضهم أحكام بالإعدام، ولكن الخلود كان لهم ولم يكن لهؤلاء الذين قاموا بتوجيه التهم والمطاعن إليهم. وإذا كان يحلو للبعض في هذه الأيام أن يهاجم روادنا في مجال الفكر والأدب والثقافة فإن الخلود لن يكون لهؤلاء المهاجمين، بل سيكون للرواد من المفكرين المصريين. لن نسمع عن هؤلاء المهاجمين إلا أسماء مجرد أسماء في سجل المواليد وسجل الوفيات، ولكننا سنظل نتحدث عن روادنا ونفخر بما قاموا به من شق الطريق أمام حركة التنوير العقلية في مجتمعنا المعاصر، وتبديد ظلام الجهل وستظل أعمالهم وآثارهم ناطقة بعظمتهم ونبوغهم.

أسباب واهية إذن وأغلبها تعد داخلية فى مجال الخرافة واللامعقول هى التى تدفع بالبعض إلى مهاجمة روادنا من المفكرين فى كل مجال من المجالات، حللوا تلك الأسباب ولن تجدوا أنها تخرج عن كونها إما محاولة للطعن فى الكبار حتى يجلس الأقزام والأشباه والصغار مكانهم ولكن هيهات. وإما لأن القائمين بتلك الحملة الهجومية من أصحاب العقول التقليدية المغلقة التى تتمسك باللامعقول والخرافة وتؤثر الظلام بحيث تخشى كخفافيش الفكر، نور العقل الذى دعا إليه مفكرون العظام وهكذا إلى آخر الأسباب التى دفعت بفريق من الناس إلى شن حملات هجومية ضارية ضد مفكرينا ويقينى أننا لو حللنا تلك الأسباب أو الدوافع التى صدرت عنها حملتهم الهجومية لوجدنا أنها تعد أسباباً ليس لها من الموضوعية أى نصيب، ليس فيها أى التزام بشروط النقد كما ينبغى أن يكون النقد ولكن ماذا نفعل حيال قوم أثروا الكسل والخمول وظنوا أنهم بمحاولتهم هدم الرواد إنما سيقومون مجدداً لأنفسهم وبريقاً حول أسمائهم وهذا كله وهم على وهم لأن الأشباه غير الأصول ودنيا الأقزام غير دنيا النابغين ولكن أكثرهم لا يعلمون.

(١٤)

هل يوجد مستقبل لفكرنا العربى؟

"إن من أهم المعوقات أمام انطلاق فكرنا العربى، أننا نقدر القديم لمجرد أنه قديم. نقدر القائل به رغم أنه قد قال بما قال به لأسباب تاريخية، أى أسباب خاصة بزمان معين عاش فيه وبيئة معينة قضى حياته فيها. وقد تكون ظروف اليوم غير ظروف الأمس. قد تكون مطالب اليوم أو غداً، غير مطالب الأمس، الأمس البعيد والأمس القريب. نقول هذا ونؤكد على القول به نظراً لأننا مازلنا نجد فى ساحتنا الفكرية من يفسد فيها ويريد لها أن تكون خراباً بلقاً".

(١٤)

هل يوجد مستقبل لفكرنا العربى؟

أجد لزماً على قبل الشروع فى الحديث عن رؤية تدور حول حاضر ومستقبل الفكر العربى، أن أؤكد على أننا لو ظللنا نسير فى الطريق الفكرى الذى نسير فيه حالياً فلن نجد مستقبلاً مشرقاً وضاءً لفكرنا العربى، بل سنجد طريقاً مسدوداً، سنجد طريقاً إن أدى إلى مستقبل فإنه سيكون مستقبلاً تغشى جوانبه ظلمات فوق ظلمات.

لا أقول بهذا من جانبى الآن تعبيراً عن التشاؤم ولكننى أضع فى الاعتبار أننا إذا أردنا لفكرنا العربى مكاناً بين الفكر العالمى ، فلا بد من تغيير مسار فكرنا العربى الحالى. أضع فى الاعتبار أيضاً أن أكثر ما نتحدث عنه الآن من قضايا، إن هى إلا قضايا قد عفا عليها الزمن. وليرجع القارئ إلى المؤلفات التى تخرجها مطابعنا الآن، ويفحصها فحصاً نقدياً موضوعياً مصنفاً، وسيجد أن كلها - ما عدا استثناءات قليلة جداً - إما أنها تستند إلى اجترار الماضى والإشادة بعظمة أجدادنا وكأن مجرد الحديث عن عظمة الأجداد، من جانبنا سيؤدى إلى إلزام مفكرى العالم بالتسليم بعظمة فكرنا العربى الحالى . وإما أنها تثير قضايا تقوم على الخرافة واللامعقول، ومن هنا كانت باعثاً على الضحك والسخرية، إذ كيف نجعل لفكرنا العربى مستقبلاً وضاءً ونطالب الآخرين بالإعتراف بمكانته ، فى الوقت الذى مازلنا فيه نجده فكراً يعد فكراً خامداً راكداً لأنه يعد تعبيراً عن السخرية من الجزء العاقل من نفوسنا.

إننا إذا رجعنا إلى فكرنا العربى فى الماضى فسنجد مفكرين تتطبق عليهم مقاييس الفكر العالمى بمعنى أننا إذا ذكرنا شخصية كشخصية أبى العلاء المعرى فى مجال الشعر أو كشخصية ابن رشد فى مجال الفلسفة، أو كشخصية ابن خلدون فى مجال التاريخ والإجتماع، فإن هؤلاء بما تركوه لنا من فكر يمكن أن نقول عنهم، إنهم شخصيات تحتل مكانة فى تاريخ الفكر العالمى.

ولكن ما هو الحال بالنسبة لفكرنا العربى الحالى؟

الحال الآن يختلف تماماً عن الماضى البعيد فلا نجد الآن فكراً يمكن أن يقال عنه إنه يدخل فى إطار الفكر العالمى هذا ينطبق على القصة والقصيدة والمجالات الفكرية والفلسفية بوجه عام وإذا تساءلنا الآن عن كيفية إيجاد مستقبل مشرق لفكرنا العربى، مستقبل يتمثل فى جعله فكراً عالمياً ممتازاً، فإننا من جانباً نستطيع القول بأن ذلك لن يتم إلا إذا تحقق ما يلى:

أولاً: لابد من تهيئة المناخ الفكرى الذى يؤدى إلى التقدم نحو إيجاد شخصية لفكرنا العربى مستقبلاً وفى نفس الوقت يكون متواصلاً مع الفكر العالمى. هذا المناخ يتمثل فى حركة التنوير العقلى، كتلك الحركة التى أدت إلى تقدم أوروبا فى عصر النهضة. إن أوروبا قد تقدمت فكراً ابتداء من عصر النهضة لأنها لم تقف عند تقديس الماضى لمجرد أنه ماضى، بل إنها لم تتردد فى أن تطرح الماضى جانبا، أو على الأقل استبعدت منه ما وجدت أنه لا يتفق مع المنهج العلمى الحديث، وما لا يتفق مع الجانب العقلى.

إننا الآن مطالبون بذلك إذا أردنا البحث عن مستقبل لفكرنا العربى لابد من تنقية التراث، عار علينا أن نقف عند الماضى إذا وجدنا فى الماضى آراء واتجاهات تعد داخلة فى صميم الخرافة واللامعقول، بل لابد فيما نرى من تجاوز الماضى إلى متطلبات الحاضر وقضاياها.

إن علماءنا الكبار في الماضي كابن الهيثم والبيروني وابن سينا، قد أعجب الغرب بأرائهم وقام بترجمة أكثر كتبهم لأنها تساند العقل والاتجاه العلمي. ومعنى هذا أننا نجد في تراثنا آراء وقيمًا واتجاهات وضاعة مشرقة، يمكن أن نستفيد منها ولكن إذا وجدنا في هذا الكتاب أو ذاك من كتب التراث ما يستند إلى الخرافة ويدعو إليها، فلا بد من استبعاده لأنه لا يصلح أساساً نقيم عليه فكرنا العربي مستقبلاً لا يصلح أساساً لبداية الحضارة الفكرية في أمتنا العربية مستقبلاً.

ثانياً: إذا كنا ندعو إلى الإنفتاح على ثقافة الغرب وتجاوز الماضي إلى متطلبات الحاضر، فإن ذلك لا يعنى أن تصورنا لمستقبل الفكر العربى يجب أن يكون نابعاً من ثقافة الغرب، كلا ليس هذا ما ندعو إليه لأننا نعتقد أن رفض التراث العربى كلية يعبر عما نسميه ثورة من الخارج وهذه الثورة من الخارج لا تصلح بأى وجه من الوجوه أن تكون دعامة على أساسها نقيم مستقبلاً لفكرنا العربى فلدينا جوانب مشرقة فى تراثنا القديم وجوانب مظلمة فلنأخذ الجوانب المشرقة التى تلتقى وثقافة الغرب وتتواكب معه ولنبتعد عن الجوانب المظلمة التى لا تعبر عن قيم خلاقة والتى لا تلتقى مع ثقافة الغرب هذا ما نجده بصورة أو بأخرى عند مفكرين من أبناء وطننا العربى ومن بينهم محمد عبده و طه حسين وعبد الرحمن الكواكبي وزكى نجيب محمود، بل نجد ذلك أيضاً عند مفكر إسلامى كبير هو محمد إقبال إن هؤلاء كانوا بأفكارهم معبرين عما نسميه بالثورة من الداخل، أى ثورة داخل الفكر، ولم يكونوا معبرين عن الثورة من الخارج، تلك الثورة التى ترفض أساساً تراثنا العربى وتدعو إلى جعل قيم الغرب وثقافته هى أسس فكرنا فى المستقبل، إن هذه الفكرة نرفضها من جانبنا قلباً وقالباً لأنها لا تمثل نوعاً من الإستمرار لا تمثل اعترافاً بما فى تراثنا من قيم.

غير مجدية في ملتي واعتقادي الدعوة إلى تنحية تراثنا جانباً، بل ما اعتقد به إذا ما أردنا البحث عن مستقبل لفكرنا العربي، هو ما أطلق عليه الثورة من الداخل، أي داخل الفكر العربي نفسه، إن تلك الثورة تعد تعبيراً عن الإنفتاح، تعبيراً عن الإستمرار وليس التوقف. إن الثورة من داخل الفكر تستند إلى أخذ ما في ماضى تراثنا من جوانب عقلية وعلمية سواء تمثل ذلك في المنهج أو في الأفكار، وهذه الجوانب يمكن أن نوائم بينها وبين ثقافة الغرب وبدون أن نفعل ذلك سيظل فكرنا، فكراً محبوساً، فكراً محلياً، بدون ذلك سوف لا نجد مستقبلاً وضاء لفكرنا العربي.

إننا إذا كنا نقول إن الثورة من داخل الفكر العربي لا من خارجه تعد تعبيراً عن مستقبل مفتوح لفكرنا العربي، فإننا ندلل على ذلك بالقول بأن المجددين في مجال فكرنا العربي لا نجد لديهم اقتصاراً على التراث القديم بمفرده ولا نجد عندهم دعوة إلى الوقوف عند ثقافة الغرب وحدها.

وهذا إن دلنا على شيء، فإنما يدلنا على أن مستقبل الفكر العربي يقوم في أكثر جوانبه على ما يسمى بإحياء التراث ولأبادر إلى القول بأن إحياء التراث لا يعنى الوقوف عند التراث القديم. فليس من المعقول أن يكون موقف المفكر في القرن العشرين في مشكلة من المشكلات، هو نفسه موقف المفكر منها في القرون الماضية، ليس من المعقول أن تحتفظ المشكلات القديمة بنفس طابعها، بل لابد من النظر إليها نظرة جديدة ومعاصرة يمكن أن تستفيد بعض زواياها من فكر الغرب وثقافته. إن معنى الإحياء إذن يتبلور حول القيام ببعث المشكلات التي أثرت في عصور سابقة ولكن لابد من النظر إليها من خلال منظور جديدة، منظور العصر الذي نعيش فيه، ودون أن نفعل ذلك سنظل ثقافتنا العربية راكدة أو كالراكدة سنظل واقفة عند حدود لا تتخطاها وإذا وقفت عند حدود ثابتة مغلقة، فإنها - كما قلنا منذ قليل - ستكون معبرة عن دائرة مغلقة منعزلة عن الفكر العالمي.

إن من أهم المعوقات أمام انطلاق فكرنا العربي، أننا نقدر القديم لمجرد أنه قديم نقدر القائل به، رغم أنه قد قال بما قال به لأسباب تخص تاريخه، أى أسباب خاصة بزمان معين عاش فيه، وبيئة معينة قضى حياته فيها وقد تكون ظروف اليوم، غير ظروف الأمس قد تكون مطالب اليوم أو غد، غير مطالب الأمس.

ولو ضربنا مثلاً بشخصيتين من شخصيات الفكر العربي شخصية تفيدنا في الإنطلاق نحو مستقبل مزدهر لتقافتنا العربية وشخصية أخرى كانت على النقيض من ذلك تماماً. وجدنا على سبيل المثال شخصية الفيلسوف ابن رشد معبرة عن النوع الأول وشخصية الغزالي معبرة عن النوع الثانى فلم يكن من الغريب أن تأخذ أوروبا بكثير من آراء ابن رشد ولا ترتضى لنفسها آراء الغزالي التى انتشرت فى الشرق أساساً ومن هنا نجد أوروبا قد تقدمت لأنها اختارت الآراء التى تتفق والجانب العلمى والجانب العقلى (لإبن رشد) ورفضت الآراء التى تعد أكثرها معبرة عن الجانب اللاعقلى واللاعلمى (الغزالي).

هذا مثال نضربه الآن ونحن نبحث عن أساس لمستقبل فكرنا العربي لكى ندلل به على أننا إذا أردنا استمراراً لفكرنا العربي فى كافة مجالاته من أدب وفكر وفلسفة، إذا أردنا له أن يكون فكراً عالمياً، إذا أردنا له مستقبلاً مشرقاً وضاء فلا بد فيما نرى من جانبنا من القيام بتقية التراث، من العمل على إحياء التراث، من الدعوة إلى الإنفتاح على الغرب، نقل أمهات كتب الفكر العالمى على النحو الذى كان يوجد فى العصر العباسى على سبيل المثال.

نقول هذا ونحن نضع فى الاعتبار أن كتابات أكثر كتائنا ومفكرينا الآن تعبر عن اللامعقول، تقف عند مجرد طبع التراث، تنقل آراء الغرب بطريقة مشوهة ومن هنا كان فكر هؤلاء وما أكثرهم ، تعبيراً عن مجرد فكر

محلى ، فكر لا يستطيع تجاوز المنطقة التى عاش فيها أصحابه، فكر يعد كلاماً فى كلام ، فكر يعد جهلاً على جهل، لا يتقدم خطوة نحو المستقبل وضاء وإذا أردنا مستقبلاً لفكرنا العربى ، فلا مفر فيما نرى من الإلتزام بالأسس التى تعد معبرة عن إحياء التراث من جهة وعن الانتصار للعلم والعقل من جهة ثانية ، وعن الدفاع عن الحضارة أينما وجدت، من جهة ثالثة إذ أن الدفاع عن الحضارة والسعى إليها بكل قوة هو ما يميز الإنسان عن الحيوانات العجم فإذا كانت الحيوانات العجم لا تقيم لنفسها حضارة، فإن الإنسان هو منشئ الحضارة والساعى إليها بكل قوته الخلاقة. وبدون هذه الأسس المبدعة لن نجد مستقبلاً، أى مستقبل لفكرنا العربى، لن نجد له مكاناً بين تاريخ الفكر العالمى.

(١٥)

جائزة نوبل وقضية المحلية والعالمية

"إن أدبنا يعد أكثره، إن لم يكن كله، أدباً محلى الطابع لأنه لا يلتزم بالقواعد الفنية، لا يلتزم بالشروط الدقيقة للفن الإبداعى. أقول وأكرر القول إن أكثر أدبنا يعد مسرفاً فى المحلية، شأنه فى ذلك شأن الموسيقى العربية والتى لا تستطيع أن تتجاوز البحر الأبيض المتوسط. إن أدبنا العربى والموسيقى العربية أيضاً، وسائر الفنون التى تصدر عنا نحن العرب، إذا أعجب بها الأشباه والصغار، فإنها لا ترضى ضمائر الذين يبحثون عن الأدب كما ينبغى أن يكون، عن الموسيقى العالمية وقواعدها الفنية الدقيقة.

(١٥)

جائزة نوبل وقضية المحلية والعالمية

أود فى البداية أن أؤكد على القول بأننا إذا كنا سنعرض لموضوع قضية نوبل وهل يستحق أدباؤنا تلك الجائزة أم أنهم لا يستحقونها، أن ما سنذهب إليه لا يعنى التقليل من الدور الذى يقوم به أدباؤنا فى تاريخ ثقافتنا العربية، إذ لا يمكن تصور تاريخ مصر الثقافى بدون أسماء أدت وما زالت تؤدى دوراً غاية فى الأهمية، بحيث أصبحت تلك الأسماء من الأسماء الخالدة، من الأسماء التى إذا تحدثنا عن تاريخنا الفكرى والأدبى والثقافى، فإنه لا يمكن إغفالها أو تغافلها من قريب أو من بعيد.

لابد أن نضع فى اعتبارنا باستمرار أنه يوجد فرق بين جائزة عالمية وجائزة قومية^(١) خاصة بوطن دون وطن أو أمة دون أخرى. فلدينا فى مصر جوائز من بينها جائزة الدولة التقديرية، إذا حصل عليها عن جدارة أدباء مثل طه حسين أو عباس العقاد أو توفيق الحكيم أو نجيب محفوظ فإن هذا لا يعنى أن هؤلاء الأدباء لابد بالضرورة أن يحصلوا على جائزة نوبل. فالأسباب التى من أجلها تعطى الجائزة التقديرية فى مصر لهؤلاء الأدباء الممتازين، تختلف تماماً وجذرياً عن الأسباب والمبررات التى من أجلها أعطيت جائزة نوبل فى الأدب لأدباء من أمثال همنجواى وخيمينيز وألبير كامى وطاقور وأندريه جيد وآناتول فرانس وغيرهم كثيرين.

(١) بعد إثارتى لهذا الموضوع، ول مقابلة بين وبين الأدب الكبير توفيق الحكيم يمكنه بمرحلة الأهرام، تفضل بإهدائى كتاباً من كتبه يشرح فيه إلى موضوع المحلية والعالمية.

فلا يخفى علينا أننا في منحنا الجائزة التقديرية نضع في الاعتبار العطاء لمصر أساساً ، أى نضع في الاعتبار الطابع المحلى بمعنى أن هذا هو أحسن الموجود عندنا^(١) ولا يشترط في منح الجائزة التقديرية أن يكون صاحبها مفكراً أو أديباً عالمياً وإلا لما أعطينا الجائزة التقديرية لأحد من مفكرينا أو أدبائنا هذا إذا قلنا بأن الجائزة التقديرية يتم منحها لأسباب موضوعية، إذ أنه حتى بالنسبة للجوائز التقديرية فقد فقدت مصداقيتها ومن الأفضل إصدار قرار بإلغائها تماماً. أما بالنسبة لجائزة نوبل في الآداب، فإن شروطها تركز أساساً على الجانب العالمى وليس الجانب المحلى الطابع. إن من شروط جائزة نوبل أن تمنح للذين يدعون إلى المثل العليا والقيم الخلقية الرفيعة، من شروطها ضرورة خدمة قضية السلام وقضية الإخاء الإنسانى، أى النظر إلى الإنسان أساساً وليس الفرد فى مكان دون مكان أو زمان دون زمان. وبلغة المنطق نقول إن الإنسان يمثل الكل، يمثل النوع كله، أما الفرد فإنه يمثل الجزئى، فهل هذه الجوانب تعد موجودة فى مفكرينا وأدبائنا؟ قول وسأظل دواما أقول به لا ليس أدبنا أدباً عالمياً من قريب أو من بعيد هذا مع استثناء أمثلة غاية فى الندرة.

إننى أذكر أنه منذ سنوات بعيدة سألت العقاد فى ندوته الأسبوعية عن رأيه فى قصص نجيب محفوظ، أدبنا الكبير، وقد قال العقاد أنه يقدر نجيب محفوظ وأنه عندما قرأ قصصه وجد أن لدينا أديباً يقترب من مقاييس العالمية. إن العقاد لم يقل عن نجيب محفوظ إنه أديب عالمى، لأن العقاد يعلم تماماً مقاييس العالمية وكيف أنها تختلف عن مقاييس المحلية. إن هذا لا يقلل - كما سبق أن أشرت - من أهمية أدبائنا و مفكرينا ولكن لا يصح أن نقول إن أدبنا يعد أدباً عالمياً.

(١) تقرر بعد ذلك منح جائزة أخرى هى جائزة الرئيس مبارك.

وإذا ذهب البعض إلى اتهام أعضاء لجنة جائزة نوبل للأدب، بالتعصب، فإن هذا رأى من جانبهم، بجانب الصواب إلى حد كبير جداً. لو كانت الجائزة تعطى لأدباء وطن واحد، فإن هذا الإتهام لا يكون بالضرورة اتهاماً صحيحاً. إذ ما رأى الذين يتهمون أعضاء لجنة الجائزة بالتعصب حين نرى أن الجائزة قد أعطيت لأدباء كثيرين فى أرجاء دول العالم ومن بينها أسبانيا وسويسرا والنرويج وألمانيا وفرنسا والدانمرك وإيرلنده وبلجيكا. ما رأى هؤلاء فى أن الجائزة قد أعطيت لشاعر الهند العظيم، (طاغور) أعطيت لهذا الحكيم الشرقى. أعطيت لمواطن ليس من أبناء القارة الأوروبية موطن نوبل.

إن من شروط منح جائزة نوبل مراعاة أن الأديب الذى تمنح له لابد أن يكون إنتاجه متجهاً نحو التقدم لا نحو التأخر، بمعنى أن يكون الأديب متجهاً باستمرار نحو العطاء الأدبي، وبحيث لا يكون إنتاجه أخذاً فى الذبول والتلاشى فهل ينطبق هذا على كثير من أدبائنا وفيهم من نتجه شعلة إنتاجه نحو الإنطفاء؟

إن من شروط جائزة نوبل مراعاة إنتاج الأديب كله، وليس رواية معينة أو عملاً أدبياً معيناً وإذا رجعنا إلى تقارير لجانها وجدنا هذا الشرط مطبقاً بدقة إلى حد كبير، فهل ينطبق هذا على كثير من أدبائنا، فى مجال القصة بصفة خاصة، وذلك حين يكتبون القصة ويضعون فى اعتبارهم ظهورها على شاشة السينما أو شاشة التلفزيون، أى يفضلون أحياناً المكسب المادى السريع؟

إن أدبنا يعد أكثره إن لم يكن كله أدباً محلياً لأنه لا يلتزم بالقواعد الفنية، لا يلتزم بالشروط الدقيقة للفن الإبداعى. أقول وأكرر القول إن أكثر أدبنا يعد مسرفاً فى المحلية، شأنه فى ذلك شأن موسيقانا والتى لا تستطيع أن تتجاوز البحر الأبيض المتوسط.

إن عيبنا باستمرار أن نسارع إلى إلقاء العيب على أعضاء لجنة نوبل، ولا نبحث عن العيب في أدبنا وفكرنا. صحيح أن الإنصاف الكامل لا وجود له، بمعنى أننا لا نستطيع القول بأن جائزة نوبل قد راعت العدالة المطلقة، إذ من أصعب الأمور، بل من المستحيل تحقيق الإنصاف الكامل، أو مراعاة العدالة المطلقة، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن أدبنا لم يعرف به التعريف الكامل في دول الغرب، ولم تتم ترجمة الكثير من الأعمال الأدبية، ولكن يجب أن نضع في اعتبارنا أن فكرنا وأدبنا لا يعد فكرياً أو أدبياً عالمياً. وتوجد أسباب عديدة أدت إلى ذلك، ولسنا هنا في مجال بيانها، ولكننا نكتفى بالقول بأن بعض تلك الأسباب يدور حول ما نسميه بقضية الأصالة والمعاصرة، يدور حول القول بأن مفكرينا وأدباءنا كانوا مضطرين للتركيز على واقع مجتمع معين وهو المجتمع المصري وما فيه من مشكلات ثقافية. لابد أن نضع هذا في اعتبارنا حتى لا نقلل من دور أدبائنا. فطه حسين ركز جانباً من تفكيره العقلي على مجال نقد ظواهر في مجتمعنا المصري والعربي كالمناهج القديمة في الأزهر، والتمييز بين مجال الدين ومجال العلم، والبحث في الشعر الجاهلي. ومحمد عبده ركز جانباً في اتجاهه العقلاني في نقد المناهج التي تقوم على الشروح والحواشي، ونقد التواكل الذي نجده عند بعض صوفية الإسلام، ونقد موقف الذين يحاربون التأويل. ونجيب محفوظ في رواياته ومنها الثلاثية، كان معبراً عن أبعاد محلية لا أبعاد عالمية، وهكذا إلى آخر الأمثلة التي نجدها.

إن أدبنا وفكرنا يعد محلي الطابع إلى حد كبير ولهذا لم يكن من الغريب ألا نجد فيلسوفاً عربياً طوال ثمانية قرون، كان متوقفاً أيضاً ألا تجد جائزة نوبل طريقها إلى أديب مصري.

إن فيلسوفاً كديكارت يعد عقلانياً، ومفكراً عظيماً كطه حسين يعد عقلانياً أيضاً ومع ذلك فإننا نقول إن ديكارت يدخل في مجال العالمية أكثر

من طه حسين . وليس فى هذا ما يقلل من الدور الرائد لطله حسين إذ أنه كان يريد أن يشق طريقاً جديداً لتقافتنا ومن هنا كان مضطراً للدخول فى معارك، إذا اهتم بها مجتمعنا العربى، فليس من الضرورى أن تتأل نفس الإهتمام فى مجتمعات أخرى إنها تهم مجموعة من الأفراد فى مجتمع معين ولكنها لا تهم بالضرورة الإنسان كإنسان.

إن القارئ المدقق لابد وأن يدرك تمام الإدراك الطابع العالمى الإنسانى فى كتابات أدباء من أمثال همنجواى الأمريكى وخيمينيز الأسباني، وألبير كامى وطاقور وكلهم حصلوا على جائزة نوبل. لقد عبروا عن جوانب عالمية وقد أكدت على ذلك تقارير أعضاء لجنة نوبل لقد عبروا عن رسالة إنسانية، بمعنى كان تعبيرهم إلى حد كبير جداً عن الإنسان ورسالته وقضاياها، الإنسان فى كل زمان وكل مكان، وليس الفرد فى مجتمع دون مجتمع آخر. إن ظاهرة الإبداع يلمحها القارئ لكتاباتهم. وغالباً ما يعبر الإبداع عن ظاهرة إنسانية عامة ومن هنا كانت كتاباتهم، تعبيراً عن العالمية، شأنها فى ذلك شأن السيمفونية التى تعبر عن لغة عالمية للموسيقا يفهمها كل متذوق للموسيقا.

وإذا كان يقال بأن أدباءنا قد دخلوا فى مجال الشهرة وذيوع الصيت، فإننا نقول من جانبنا إنها شهرة تنطبق إلى حد كبير على حدود مجتمعاتنا العربية، بالإضافة إلى أن الشهرة ليست هى المعيار لإعطاء جوائز نوبل لأن الشهرة عمياء، وإلا كيف نفسر أن جائزة نوبل فى الأدب قد أعطيت فى عام من الأعوام لأديب من بلغاريا، ليس من الضرورى أن يكون قد سمع عنه الكثيرون.

إن النغمة السائدة فى كتابات أدبائنا هى النغمة المحلية وليست النغمة العالمية وإذا كانت جائزة نوبل تشمل بالإضافة إلى مجال الأدب، مجالات أخرى من بينها مجال الطبيعة ومجال الكيمياء ومجال الطب، فإن من المتوقع أن تمنح لأناس يعملون فى هذه المجالات العلمية كالطبيعة والكيمياء والطب

لأن لغة العلم تعد لغة عالمية، أما بالنسبة لمجال الأدب عندنا، فإن شأنه في ذلك شأن موسيقانا وأفلامنا، يعد في أغلب جوانبه بل في كلها محلي الطابع وإذا كانت توجد أوجه نقد لجائزة نوبل في الأدب، فإنني أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه شك أن عدم إعطاء الجائزة لأدبائنا العمالقة من أمثال طه حسين والعقاد وتوفيق الحكيم، لا يصح أن يكون من بين تلك الأوجه من النقد التي توجه إلى الجائزة.

الفصل الرابع: التسامح الدينى

ويتضمن هذا الفصل العناصر والنقاط التالية:

- ١- الإرهاب: المشكلة والحل.
- ٢- الوحدة الوطنية بين طريق النور وطريق الظلام.
- ٣- الكتاب الدينى وتيار العصر والحضارة.
- ٤- الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية.
- ٥- طائر الحب والحوار بين الأديان يحلق فى سماء إيطاليا.

"إن أعظم شئ في حياة كل فرد منا، نحن أبناء الوطن العربي، إنما يتمثل في تمسكه بالوحدة الوطنية وإذا حاول واحد منا ضرب الوحدة الوطنية، وظن أن هذا العمل من جانبه إنما يمثل نوعاً من الرقي أو الصعود، فإن هذا يعد ضللاً في ضلال، لأنه يعد صعوداً إلى الهاوية وبئس المصير".

(١)

الإرهاب... المشكلة والحل

"إذا أردنا القضاء على الإرهاب، فلا بد أن نجعل الأفكار التنويرية في مقدمة اهتماماتنا الفكرية، وبحيث تكون المساحة الكبرى من صحفنا وسائر وسائلنا الإعلامية مخصصة لنشر الفكر التنويري عند أناس آمنوا بربهم وآمنوا بوطنهم. إنهم أنصار الفكر التجديدي الذين ينشرون النور والضياء في كل مكان."

(١)

الإرهاب.... المشكلة والحل

قد لا نكون مبالغين في القول إننا ذهبنا إلى أن الإرهاب بكل صوره، سياسياً كان أم فكرياً يعد ظاهرة علمية وليس ظاهرة مطية. إنه لا يقتصر على مصر وغيرها من سائر بلدان الوطن العربي، بل إننا نجده قد أصبح ظاهرة علمية. صحيح أن الأسباب التي أدت إلى الإرهاب قد تختلف من بلدة إلى أخرى، ولكننا نجد أسباباً من قبيل الأسباب المشتركة ويمكننا القول بأننا لا بد أن نبحث في الجذور، نبحث في الأعماق، وإلا لأخطأنا في تشخيص المشكلة وبالتالي في علاجها.

فمن أسباب الإرهاب، الخلط بين الدين والسياسة، الدين والدولة، والقول بما يسمى الحكومة الدينية. ونخلط في تصوراتنا لماهية الحكومة الدينية. صحيح أننا كشعب عربي نجد التدين في أعماق النفوس ودياننا على ذلك أن المشروعات التجديدية الكبرى لا بد وأن تضع الدين في اعتبارها. هذا صحيح ولكن المشكلة هو أننا نجد خطأ من جانب البعض بين الدين والدولة. وقد يكون ذلك راجعاً في بدايته إلى ما يسمى بالجناح العسكري للإخوان المسلمين، إذ كان الهدف من هذا الجناح ليس نشر الدعوة الدينية، كما يقولون، بل السعي إلى ما يسمونه بالحكومة الدينية.

وقد انتشرت دعوة هذا الجناح بعد تدفق أموال البترول في بعض البلدان العربية، إذ لا بد من الربط بين دعوتهم هذه وملايين الدولارات التي تتدفق عليهم من بعض دول البترول كما قلنا وبحيث وجدنا ما يسمى بالبتروفر، أي ذلك النوع من الفكر الذي يرتبط بالبترول وعلاقته بملايين الدولارات. وهل يمكن أن ننسى مسألة شركات توظيف الأموال، هل يمكن أن ننسى الهجوم على كل ما هو غربي أوروبي، هل يمكن أن ننسى الهجوم على الحضارة الأوروبية ومنجزاتها. لماذا لم تنتشر تلك الدعوات في القرن التاسع

عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين؟ لأن أموال البترول وتسخيرها لنشر البتروفيكر لم تنتشر إلا ابتداء من النصف الثاني من القرن العشرين.

وإذا قلنا إننا يجب أن نبحث في الجذور، ونبحث بالتالي في الحلول الحقيقية، فلا بد من القيام بخطة طويلة المدى وخاصة بعد أن انتشر الإرهاب بكل صوره. يجب أن نحلل مناهج التعليم تحليلاً نقدياً جيداً وبحيث نحذف منها تماماً كل عبارة قد ترتبط بالإرهاب من قريب أو من بعيد، أو قد ترتبط أيضاً بالفتنة الطائفية. يجب أن ننشر كل الأفكار التنويرية من خلال كل أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون وبحيث لا يسمع أو يرى إلا أفكار النور والتنوير فكم بين أيدينا من صحف ومجلات نجد فيها العديد من المقالات التي تكون مشجعة من قريب أو من بعيد على نشر الإرهاب بكل صوره. كم نجد العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية والتي قد تكون مساعدة على نشر الفكر الإرهابي. لقد ظهر على السطح أناس تحسبهم من المفكرين وهم ليسوا بمفكرين، بل أنصاف مفكرين وأشباه متقنين. أناس ينشرون أفكاراً سوداء، أفكاراً إرهابية، في حين أنه كان من الواجب - إذا أردنا القضاء على الإرهاب - جعل الأفكار التنويرية في المقدمة والبحث عن مؤيدون كل فكرة تنويرية وهم قد يعملون في صمت لأن الصحف والمجلات لا تركز عادة إلا على الشهرة، بالإضافة إلى انتشار ظاهرة الشللية التي أفست علينا حياتنا الفكرية وبحيث ظهرت الأفكار الإرهابية السوداء على السطح ويقيني أننا لو قمنا بزيادة المساحة التنويرية في كل وسائلنا الإعلامية. لو دققنا في اختيار المشرفين على كل صحيفة أو مجلة أو غيرهما من الوسائل الإعلامية، وبحيث يكون التنوير هو قضيتهم الرئيسية، فإن الحال سيصبح غير الحال.

هذه نقاط عامة، كل نقطة منها تحتاج إلى معالجة تفصيلية، أرجو أن تكون موضوعاً لمقالات قادمة تكشف من خلالها عن أفكار تؤدي إلى القضاء على الإرهاب بكل صوره، فلا توجد مشكلة بدون حل، والمهم أن نتقدم في شجاعة إلى الأمام، نتجه نحو النور والتنوير، وبحيث لا نرضى لأنفسنا الصعود إلى الهاوية والرجوع إلى الوراء حيث الظلام وحياة الكهوف.

(٢)

الوحدة الوطنية بين طريق النور وطريق الظلام

"إن محاولة المساس بالوحدة الوطنية، تعد كالخنجر المسموم وكيف نتصور مجتمعاً واحداً يتقاتل فيه أبناؤه. إن كلمة الأمة من الأم، فينبغي إذن أن تكون علاقة الفرد بأمتة كعلاقته بأمه علاقة المحبة والتقدير والدفاع عن الوطن."

(٢)

الوحدة الوطنية بين طريق النور وطريق الظلام

من الأمور التى يؤسف لها أننا فى مصر لا نستوعب دروس التاريخ جيداً. نهتم بالمظهر ولا نفوص إلى الأعماق حين نتصدى لدراسة مشكلة من المشكلات وبحيث نبحث عن أسبابها ووسائل علاجها. فإذا تكلمنا عن الوحدة الوطنية، التقينا بمجموعة من الشعارات البراقة، والخطب الرنانة الجوفاء. وإذا تحدثنا عن الفتنة الطائفية، اكتفينا بذكر مجموعة من الأحداث أو الحوادث دون أن نكلف أنفسنا بالبحث عن رابطة عضوية تربط بين هذه الحادثة أو تلك من الأحداث. إننا نكتفى بقراءة السطور، ولا نحاول أن ننفذ إلى ما وراء السطور نحاول التسرع فى إصدار مجموعة من الأحكام الخاطئة وكأننا نمثل خير تمثيل جيل الساندوتش أو جيل التليفزيون الذى يكتفى بالمظهر دون الجوهر، يبحث عن الأسهل ولا يكلف نفسه أن يجتهد فى البحث عن الأسباب الحقيقية والدقيقة والصحيحة.

غير مجدٍ فى ملتى واعتقادى الوقوف عند السطح، بل لابد من أن ننفذ إلى القاع الخصيب. ودليلنا على ذلك أن الوحدة الوطنية فى الماضى كانت تسير باستمرار فى طريق النور، طريق التنوير، ولم نكن نسمع عن أحداث تمثل الفتنة الطائفية كتلك التى نسمع عنها الآن، تلك الأحداث التى إن دللتنا على شئ فإنما تدلنا للأسف الشديد على أن الطريق إلى الوحدة الوطنية إنما يعد ممثلاً الآن للطريق المظلم، طريق الضياع.

إن أعظم شئ فى حياة كل إنسان منا إنما يتمثل فى تمسكه بالوحدة الوطنية. وإذا حاول واحد منا ضرب الوحدة الوطنية، وظن أن هذا العمل من

جانبه، إنما يمثل نوعاً من الرقى أو الصعود، فإن هذا يعد ضلالاً في ضلال، لأنه يعد صعوداً إلى الهاوية وبئس المصير.

ومن الأخطاء الشائعة التي تتردد على ألسنة المتحدثين، وكتاب المقالات، محاولة إرجاع ضرب الوحدة الوطنية والسير في طريق الفتنة الطائفية، إلى أسباب اقتصادية. ولا نقصد من ذلك استبعاد الجوانب الاقتصادية والتي تتمثل في عدم توافر فرص العمل أمام الشباب، بل كل ما نود التأكيد عليه، هو وجود أسباب أقوى وأعمق من مجرد الاستناد إلى الجوانب الاقتصادية. ودليلنا على ذلك أننا قد نجد أناساً يعيشون في حالة الفقر، ورغم ذلك فهم أناس يؤمنون بربهم ويؤمنون بوطنهم ولا صلة لهم بالفتنة الطائفية من قريب أو من بعيد. وعلى العكس من هؤلاء قد نجد أناساً تضخمت أموالهم وثرواتهم، وهم عن طريق أعمالهم، وطريق كتاباتهم، من أكثر الناس صلة بتلك الأحداث التي تضرب في صميم الوحدة الوطنية. فهل نجد درساً أبلغ من ذلك.

كلا يا سادة. إننا كما أقول نقف عند السطح والقشور، ولا نحاول اختراقها بحثاً عن الحقيقة الجوهرية. راجعوا معي برامج التلفزيون وبعض البرامج الإذاعية. ارجعوا متى شئتم إلى الكتب الدينية المقررة على طلاب المدارس بالتعليم من أوله وانتهاء بالمرحلة الثانوية. ادرسوا جيداً ما نجده داخل المذكرات الجامعية وهي تمثل محنة التعليم الجامعي. حللوا معي نوعية الثقافة التي تعطى لطلاب الجامعات، هذا إذا تجاوزنا في القول، وقلنا إنها ثقافة، وستجدون أكثرها يمثل الفكر الرجعي، يمثل الاستناد إلى كتب التراث الصفراء وما فيها من خرافات. يمثل الإعجاب بشخصيات رجعية تقليدية. حللوا معي مقالات بعض الكتاب في بعض الجرائد والمجلات العربية. هؤلاء الكتاب الذين لا يمثلون الالتزام بخطورة الكلمة وأثرها على النفوس والعقول. راجعوا موضوعات بعض الخطب المنبرية التي تلقى بالمساجد والتي

تصدر عن أناس تحسبهم من الغيورين على مصلحة الوطن، وما هم بذلك، منهم من قضى نحبه ومنهم من لا يزال ينتظر.

هل من المعقول أن تثار الآن قضايا زائفة وبحيث تكون محور الحديث ونحن على أبواب قرن جديد ومن بينها محاولة بعض الأشباه للهجوم على الحضارة الغربية، وضرب رموز التنوير في عالمنا العربي المعاصر. هل من المعقول أن يتحدث بعض الذين حشروا أنفسهم في دقعة الثقافة، والثقافة منهم براء عن الغزو الثقافي، وعن الصحوة الإسلامية وكلن الإسلام قد ملت، ألا يمثل حديثهم عن الغزو الثقافي وبث كراهية التنوير في نفوس الشعب، نوعاً من الانفصام في الشخصية، إذ كيف أقول بغزو ثقافي وأهاجم الحضارة الغربية أعظم حضارات العالم، وفي نفس الوقت أسعى بكل قوتي إلى الاستفادة من منجزات الحضارة الغربية. كيف أكتب عن غزو ثقافي في كتاب من الكتب، والكتاب ثمرة من ثمرات المطبعة التي اخترعها الغرب؟ هل من المناسب ونحن في عصر وصل فيه الإنسان إلى القمر، أن أقول إن الحل هو مجرد الوقوف عند التراث وكتب التراث مجتمعة لا تساعدنا على التوصل إلى أي اكتشاف من الاكتشافات العلمية في أي ميدان من الميادين؟ أين نحن الآن من علماء الأزهر الأجلاء أمثال محمد عبده ومصطفى عبد الرازق ومحمود شلتوت؟ إن القوة الآن غير القوة في الماضي البعيد، والماضي القريب.

لا طريق إلى تدعيم الوحدة الوطنية إلا عن طريق القيام بخطوة تنويرية شاملة داخل وسائل الإعلام وفي مناهج التعليم من أول مراحلها حتى آخر مراحلها. فالمدارس والجامعات مؤسسات اجتماعية في المقام الأول ومناهجها أيها السادة تحتاج إلى مراجعة شاملة. وإذا وجدنا درساً يؤدي من قريب أو من بعيد، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، إلى ضرب الوحدة الوطنية، فإننا لابد أن نقول: إلى الجحيم أيها الدروس والكتب وبئس المصير.

إن ما يؤدي إلى التناقص والتناغم بين أفراد المجتمع هو حذف كل ما يسيء إلى الوحدة والإتحاد بين أبناء الأمة الواحدة. إننا إذا أبقينا على تلك النوعية من الكتب التي تهاجم الحضارة، وتحدث عن الغزو الثقافي، فإن ذلك سيؤدي إلى الفتنة بين أبناء الوطن الواحد، فالدين لله والوطن للجميع. إن هذا سيؤدي إلى بث الفرقة بين النفوس، وبحيث نكون كمن يتحدث على موجة، ويتحدث الآخر على موجة أخرى وبحيث لا يفهم كلام الآخر.

لابد أن نضع في اعتبارنا انتشار كتب مدفوعة الأجر، ليس القصد منها خير المجتمع، بل يعمل على انتشارها أناس تقوم بتوجيههم بعض دول البترول، وما أدراك ما البترول، وأثره على ضعف النفوس والضاربين عرض الحائط بالقيم الكبرى التي تدور أساساً حول ضرورة المحافظة على وحدة المجتمع. هل تصدقون أيها القراء الأعزاء أننا ما زلنا نتحدث عن نظام الخلافة. ما زلنا نعتقد بأن الفكر العربي المعاصر يتمثل في حسن البنا وسيد قطب. ما زلنا نخلط بين الدين والعلوم وبحيث نتحدث عن أسلمة العلوم، دون أن نضع في اعتبارنا أنه لا يوجد ما يسمى بعلم إسلامي، وعلم غير إسلامي، بل إن العلم هو العلم. لا يوجد ما يسمى باقتصاد إسلامي، واقتصاد للكفار، فعلم الاقتصاد هو الاقتصاد. هل من المعقول ونحن في عصر العلم أن نجعل بعض مناهجنا تدور حول ما يسمى بالأصولية، دون أن نضع في اعتبارنا صلة ما يسمى بالفكر الأصولي، بكل أنواع الحركات المتطرفة، والتخلف العقلي.

إن العيب ليس في الدين، ولكن في الفهم الخاطئ للدين. لقد قاد الدين شعوب العالم نحو المثل العليا والقيم الرفيعة الخلافة، فإذا وجدنا خلافاً، فإن الخلل يتمثل في الأقلام التي توجهها بعض الدول التي لا يهتمها إلا إثارة القلاقل والفتن، بحيث يكون بترول تلك الدول كالبوصلة التي توجه الإنسان إلى معرفة اتجاهه.

نعم نحن فى أمس الحاجة إلى وضع خطة تنويرية تماماً كما نضع خطة للتنمية الاقتصادية. ولا تنوير بدون نشر مبادئ الحضارة الغربية، وليت مصر تصبح قطعة من أوربا، تنوير يستمد جذوره من مبادئ وضعها رجال سياسة آمنوا بأهمية التنوير كمحمد على باشا، واسماعيل باشا، ومن رموز الثقافة الحرة أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم وزكى نجيب محمود.. ونقصد بالثقافة الحرة، الثقافة التى لا تتقيد بقيود الزمان والمكان، وتجعل الإنسان المصرى كائناً تنويرياً بعيداً كل البعد عن ثقافة الظلام وطريق الضياع. كائناً بعيداً كل البعد عن نزعات التطرف، ومنفتحاً على كل التيارات العالمية، بما تتضمنه من فنون وآداب. أما إذا حصرناه فى ثقافات مظلمة محلية تقليدية، فإنه سيصاب بالإختناق ثم الموت. وارجعوا إلى بعض كتب التراث وستجدون فيها أحياناً عدداً من الخرافات قد يزيد على عدد سكان الدول العربية.

إن مصر لها دورها الحيوى والعظيم، والعالم ينتظر منها الكثير. ومحاولة بعض متخلفى العقول، تمزيق وحدتها عن طريق أقلامهم المسمومة والمشبوهة، يجب التصدى لها بكل حسم وقوة. ولا طريق للتصدى إلا عن طريق الكلمة، فأفسحوا أمام أهل التنوير مساحة كتلك المساحة التى تخصص الآن للأسف الشديد لأنصار الفكر الرجعى والذين يتحدثون عن الغزو الثقافى، وستجدون مصر فى طليعة دول العالم المتحضر.

إن الطريق إلى الوحدة الوطنية ليس طريقاً صعباً كما يتصور الكثيرون. إن مصر طوال تاريخها لم تعرف إلا فى أوقات قليلة جداً ومتباعدة، ما يسمى بالفتنة الطائفية. نعم إنه طريق سهل إذا وضعنا فى اعتبارنا الاستفادة من المؤتمرات الخاصة بالحوار بين الأديان والتسى أحرص على حضور أكثرها. إنها مؤتمرات تؤكد التجرد تماماً من التعصب الذى يسئ إلى سماحة الأديان السماوية وضرورة الحرص على حق

البشرية في أن تعيش في سلام دائم، وأن يدرس الشباب أفكار وقيم الأديان الأخرى المنزلة. طريق سهل لأننا نجد الآن من رجال الدين أناس آمنوا بوطنهم وربهم وتجردوا من المصلحة الخاصة ووضعوا مصلحة وطنهم فوق كل اعتبار.

إن محاولة المساس بالوحدة الوطنية، تعد كالخنجر المسموم. وكيف نتصور مجتمعاً واحداً يتقاتل فيه أبناؤه. إن كلمة الأمة، من الأم، فينبغي إذن أن تكون علاقة الفرد بأمه أو وطنه أو مجتمعه، كعلاقته بأمه. والمعتنق لأي دين من الأديان المنزلة، له نفس حقوق الفرد الذي يعتنق ديناً آخر. له الحق في السلام، في التعليم، في المساواة، ولنحذر شرور التفرقة والفتنة، وما أدراك ما التفرقة، وما الفتنة. فلندرس التاريخ جيداً حتى وقتنا الحالي، وسندرك جيداً أن أسرع الطرق إلى الهلاك، إنما هي محاولة ضرب الوحدة الوطنية. أسرع الطرق إلى الهلاك، هي الطرق التي تتمثل في أفكار الجماعات الدينية المتطرفة، جماعات التكفير والهجرة. وهل من المعقول أن نقف عند فكر هذه الجماعات التي تعبر عن تخلف عقلي، ونترك أفكار المجددين من رجالنا كأحمد لطفى السيد وسلامة موسى.

إننا أمام طريقين لا ثالث لهما، طريق النور وتقديس العقل والإنفتاح على كل الثقافات. وطريق الظلام والسخرية من العقل وتقديس التراث. اعتقد أنه لا أحد فينا به ذرة من العقل، وبحيث يكون حيواناً ناطقاً أى إنساناً، يرتضى لنفسه الطريق المظلم، الطريق المسدود، طريق الضياع والهوان.

وإذا ارتضينا لأنفسنا الطريق الأول فينبغي علينا إذن النظر إلى لمواطن من خلال أدائه واجباته والالتزام بحقوقه ينبغي علينا استئصال كل فكر رجعي متطرف نجده في وسائلنا الإعلامية. إن صاحب الفكر الرجعي المتطرف لا يصح أن يكون مواطناً وبحيث نتيج له نشر أفكاره التي تؤدي إلى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد. نقول بهذا وأماننا مجموعة من المقالات

السوداء التي إن أدت إلى شيء، فإنما تؤدي إلى تحقيق مصالح أعداء الوطن. وإذا كنا جميعاً نسلم بالآثر البالغ للوسائل الإعلامية من صحافة وإذاعة وتلفزيون، وخطرها العظيم، أي أثرها العميق، فينبغي إذن من خلالها نشر روح التسامح والعدل الإجتماعي. إن تكثيف البرامج والأحاديث التي تدور حول قضايا تجديدية، أفضل ألف مرة من الأحاديث والبرامج التي تغرس روح الفتنة في النفوس وتتخفى تحت شعارات دينية، والدين منها براء. يجب أن ندرك أن مشكلة التلوث لا تقتصر على الجوانب المادية كما نتحدث عن تلوث الهواء والأغذية مثلاً، بل أخطر من هذا النوع من التلوث، التلوث الخلقى، هذا التلوث الذي يعد معبراً عن غرس الفتنة الطائفية في نفوس أبناء الوطن الواحد. لقد أدرك خطر هذا التلوث مفكرون كبار . ولنستمع إلى "تاراجوثا" المفكر الأسباني وهو يقول في كتابه: نظرة في مستقبل البشرية وهو من أهم ما صدر من كتب في السنوات الأخيرة: الخطر العظيم الذي نواجهه اليوم لا يكمن فقط في تلوث البيئة التدريجي، وإنما أيضاً في تلوث عقل الإنسان.

وإذا كان من الواجب على وسائل الإعلام أن تبتعد تماماً عن كل ما له صلة بالتلوث الخلقى، فإن ذلك يعد أيضاً واجباً على مدارسنا وجامعاتنا. إن دستوراً فكرياً ممتازاً يمكن أن نستخلصه لأبناء أمتنا من كتاب مثل مستقبل الثقافة في مصر لطله حسين، وكتاب كتجديد الفكر العربي لزكي نجيب محمود. ويوم أن تشيع هذه الأفكار في نفوس وعقول أبناء أمتنا، فلن نجد إقلاً من أهمية الوحدة الوطنية ولا حديثاً عن الفتنة الطائفية.

ويقيني أننا إذا وضعنا في اعتبارنا أن التربية يجب أن تكون من أجل المستقبل، ومن أجل نقل الإنسان من الحرب إلى السلام، ومن التمسك بالتراث والبكاء على الأطلال، إلى تقديس العقل ونشر العلم، ومن التبعية إلى التقدم، والربط بين القدرة العقلية والضمير، أي الإلتزام بالحقوق والواجبات من

جانب كل مواطن، فإن هذه كلها عوامل تؤدي إلى التمسك بالوحدة الوطنية. عوامل تكون معبرة عن النور وساعية إليه، وبعيدة كل "عد عن العمل في الظلام، العمل على تفتيت الوحدة الوطنية ونشر الفتنة الصنفية. وخيراً فعلنا في مصر حين منعنا قيام أحزاب دينية، وفصلنا بين الدين والسياسة. ولكن ماذا نفعل لصغار النفوس ومن ماتت فيهم ضمائرهم، حين يقومون بنشر أفكار تعد ظلاماً في ظلام. أفكار تهدف إلى العودة بنا إلى العصر الحجري. إن مصر فوق الجميع، والمحافظة على وطننا دين في أعناقنا جميعاً وبصرف النظر عن الدين الذي يعتقد به كل فرد منا. فلنحاول إذن القيام بمراجعة شاملة لكل المجالات التي تدخل في إطار وسائل الإعلام والمناهج في المدارس والجامعات ولنحذف تماماً كل فكر رجعي يؤدي بطرقه الملتوية إلى غرس الحقد في النفوس، والفتنة في الشعور والوجدان. هذه الطرق الملتوية لا يسمح بها شرع ولا دين، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

نعم إن الطريق إلى الوحدة الوطنية يعد طريقاً سهلاً ممهداً وذلك بشرط أن تكون لدينا الجرأة في اتخاذ القرارات ومتابعة تنفيذها. فهل من المعقول أن يتحدث بعضنا وممن في نفوسهم مرض وهوى، عن الدولة الدينية. ما المقصود بالدولة الدينية وهل نريد لمصرنا العزيزة أن تتخلى عن أمجادها في الماضي، وتلحق بركب دول متخلفة وتتخذ من الإسلام ستاراً لكل المفاصد في المجتمع.

ولابد أن نضع في اعتبارنا أيضاً التركيز على الأعمال الشامخة التي قام بها المسلمون والمسيحيون معاً. فإذا وجدنا فلاسفة مسلمين في الحضارة العربية، فإن الفضل في ذلك يرجع إلى وجود حركة الترجمة وازدهارها على يد النصارى أساساً. وبالمثل يمكن أن نركز على مدى استفادة الأوروبيين من نعرب في العصر الوسيط، وهكذا. إن هذه الدروس تفيدنا كثيراً في بيان أن

تاريخ أى وطن إنما يمثل المشاركة بين أبناء الوطن الواحد وبصرف النظر عن الخلافات بين الأديان.

وبقدر ما نجد لدينا من مجلات وصحف وبرامج إذاعية وتليفزيونية تركز أساساً على الجانب الدينى، فلا بد فى المقابل أن نشجع إنشاء الصحف والمجلات التنويرية. أقول هذا نظراً لأن تاريخ مصر المعاصر يبين لنا أن حركات التطرف الدينى لم تكن موجودة فى ماضى مصر البعيد، بل القريب نظراً لوجود صحف ومجلات تنويرية لا حصر لها كالكاتب المصرى، أعظم مجلة فى التاريخ الفكرى المصرى، والمؤيد والمقتطف وغيرها من صحف ومجلات.

وإذا وجدنا أناساً يقومون باستغلال البرامج الإذاعية والتليفزيون لنشر فكرهم المريض والمتطرف، فإننا نقول لهم: لكم دينكم ولنا دين.

أما الخرافات التى نجدها فى مناهجنا وفى وسائلنا الإعلامية، فإنها تؤدى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة إلى تفتيت الوحدة الوطنية. فكم من حملات هوجاء يشنها بعض أصحاب كتب التراث على من يؤمنون بدين آخر. كم من المحاولات التى تسعى إلى استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية، وهى محاولات فاشلة قلباً وقالباً، بل فيها إساءة إلى ديننا الحنيف لأن الدين ثابت، والعلم متغير، فكيف نلحق الثابت بالمتغير. أذكر أن عالماً كبيراً من علماء الجغرافيا فى مصر، قام بتدريس الجغرافيا بدولة من الدول البترولية والتى ما زال بعض رجالها يعتقدون بأن الأرض ثابتة وليست متحركة. وقد ذكر لى هذا الأستاذ أنه اضطر لتعليم الطلبة الحقائق الجغرافية، بأن ينسبها إلى الكفار. فيبدأ محاضراته قائلاً: يقول

الكفار والعياذ بالله، إن الأرض متحركة. وهكذا إلى آخر الأمثلة.

نقول ونكرر القول بأننا يجب أن نركز على الأسباب البعيدة والتى قد تبدو للبعض لا صلة بينها وبين الفتنة الطائفية، ولكننا نعتقد أن البحث فى

الجدور أفضل من الوقوف عند الحوادث الجزئية المتفرقة والمبعثرة. نقول باستمرار إننا يجب أن نحذر من محاولات البعض استغلال الدين في ضرب الوحدة الوطنية، وخاصة أننا لا نجد في الإسلام ما يسمى برجل الدين.

ويقيني أننا لو اجتهدنا بكل قوتنا ومن خلال عقولنا ووجداننا، إلى غرس روح التنوير في كل قنواتنا الفكرية والإعلامية، فإننا لن نجد مستقبلاً ما يسيئ إلى وحدتنا الوطنية، لن نجد ما يسمى بالفتنة الطائفية. فمصر منذ آلاف السنين يعيش فوق أرضها أبناء الديانات كلها، ولا مكان بمصر لمن يتاجر بالدين ويقوم باستغلاله لتحقيق مآرب شخصية. إن معظم النار من مستصغر الشرر. ووطننا أمانة في أعناقنا. ولا خير في مواطن يكتفي بإقامة الشعائر الدينية دون أن يجعل سلوكه معبراً عن الدين في جوهره. لا خير في مواطن يقحم الدين في موضوعات لا صلة بينها وبين الدين. فلنتجه إذن إلى إقامة الوطن الواحد، الوطن الذي يؤمن فيه كل مواطن بربه ووطنه. الوطن الشامخ الذي يكون معبراً عن تقديس العقل ورفع راية التنوير وعن السماحة بين أبناء الديانات المتعددة، وذلك حتى تحتل مصر مكانتها المرجوة منها بين دول العالم شرقاً وغرباً.

(٣)

الكتاب الدينى وتيار العصر والحضارة

" إذا كان انتشار تأليف الكتب الدينية يعد ظاهرة يغلب عليها البعد الفكرى، فحينئذ وجب علينا لى نحاول سبر أغوارها ومعرفة أبعادها الحقيقية، النظر إليها من خلال تيار العصر والحضارة، ومن خلال علاقتها بالظواهر الأخرى".

(٣)

الكتاب الدينى وتيار العصر والحضارة

المتأمل فى اتجاه حركة التأليف سواء فى مصر أو فى بقية البلدان العربية، يلاحظ فى الفترة الحالية وما قبلها بقليل، أى منذ منتصف القرن العشرين على وجه الخصوص ظاهرة من الظواهر الهامة التى تسترعى الإنتباه، وهى كثرة المؤلفات الدينية بصورة قد لا نجد لها مثيلاً سواء فى النصف الأول من القرن العشرين أو ما سبق هذا القرن.

ويمكن القول بأننا إذا أردنا تفسير هذه الظاهرة والبحث عن مغزاها ومدلولها وأسبابها الحقيقية، فلا يصح أن ننظر إليها كظاهرة معزولة عن غيرها من الظواهر، بل لابد من النظر إليها من منظور ارتباطها بتيار العصر والظواهر الأخرى التى ترتبط بها من قريب أو من بعيد. نعم لابد أن نفعل ذلك فى دراستنا لأى ظاهرة من الظواهر السياسية والاجتماعية والفكرية. فتلك الظواهر لا تنشأ فجأة أو طفرة، لا تجئ معزولة عن عصرها وما سبقه من عصور. وإذا كان انتشار تأليف الكتب الدينية يعد ظاهرة يغلب عليها البعد الفكرى، فحينئذ وجب علينا لكى نحاول سبر أغوارها ومعرفة أبعادها الحقيقية، النظر إليها من خلال تيار العصر والحضارة، ومن خلال علاقتها بالظواهر الأخرى.

وأجد واجباً علىّ قبل ذكر مجموعة من أسباب انتشار التأليف فى مجال الدين، أن أشير إلى أن الإكثار من المؤلفات الدينية يعد ظاهرة صحيحة. فنحن أحوج ما نكون إلى الدين فى كل زمان وفى كل مكان. ولكن الخطر يكمن فى أن البعض يدفعه التسرع وعدم التعمق فى الدين بالإضافة

إلى المكاسب المادية نتيجة كثرة التوزيع، إلى بث الكثير من المعلومات الخاطئة بين ثنّايا الكتب التى يقوم بتأليفها، بل يقوم بعض المؤلفين للكتب الدينية بنشر دعوات خاطئة قلباً وقالباً كالسخرية من العلم والعقل والحضارة الحديثة من جهة، وإثارة التعصب المذموم وتشجيع التقليد من جهة أخرى ولا يدري هؤلاء أنه بدون العلم والحضارة لما كان بإمكانهم طبع كتبهم، إذ أن المطبعة ثمرة من ثمرات العلم والحضارة. لا يدري هذا الفريق أن الدين يحث على التأويل العقلى والاجتهاد. وهكذا إلى آخر الأمثلة التى نرجو أن يتخلص منها الكتاب الدينى حتى يكون معبراً بحق عن روح إيجابية عميقة غاية العمق وثرية غاية الثراء ونعنى بها روح التدين.

أما إذا تساءلنا عن أسباب كثرة المؤلفات الدينية وازدياد توزيعها، فإنه يمكن القول بأن من أبرز تلك الأسباب ما يلى:

١- تؤدي حركة الإستشراق عادة إلى نشاط الكتاب الدينى تأليفاً وتوزيعاً. إذ أن المستشرقين قد اهتموا بالدراسات الدينية وذهب البعض منهم إلى إطلاق أحكام خاطئة والإعتقاد بأراء ليس من الضرورى أن تكون صحيحة، فلا بد إذن أن يقوم علماء آخرون بالرد عليهم والكشف عن أخطائهم. وهكذا يمكن القول بأن حركة الإستشراق ترتبط برواج حركة تأليف الكتاب الدينى.

٢- إزدهار الحضارة الحديثة والتى قد تعد تعبيراً عن الجانب العلمى المادى إلى حد كبير، لابد أن تؤدي بالإنسان إلى البحث عن البعد الآخر، البعد الذى يعد تعبيراً عن الثراء الروحى، أى الجانب الدينى. فالإنسان قد شعر بضياغ ذاته فى خضم المادة وقسوتها. فالحل إذن هو أن يقوم من جانبه برد فعل. ورد الفعل يتبلور إلى حد كبير حول البحث عن الدين، أى أن يلقي بنفسه فى أحضان الدين وذلك حتى يقف التيار الروحانى جنباً إلى جنب مع التيار المادى.

٣- يعد الإنسان العربى بطبيعته إنساناً متديناً، فلا بد لكى يجد ذاته ويحقق طبيعته، أن يقبل على الكتب الدينية. والدليل على ذلك أن حركات التجديد وحركات الأصالة والمعاصرة ترتبط فى كثير من أبعادها بالجانب الدينى لا بالجانب العلمانى. وليرجع القارئ إلى المحاولات التجديدية عند محمد إقبال والكواكبي ومحمد عبده وطه حسين، وسيجد أن تلك المحاولات كلها تعد تعبيراً فى جانب أو أكثر من جوانبها عن بعد أو منظور دينى. وهذا يعد شيئاً طبيعياً ومتوقعا لأنهم يقدمون دعواتهم التجديدية لمجتمعات تعيش فى ظل الحضارة العربية. والحضارة العربية تعتمد اعتماداً رئيسياً على تعاليم الدين. والدليل على ذلك، الإنتاج الفكرى الذى تركه لنا المفكرون والفلاسفة والأدباء.

٤- اهتمام أجهزة الإعلام من صحافة وإذاعة وتلفزيون فى البلدان العربية بصفة خاصة بالبرامج الدينية وبالكتاب الدينى. إن هذا الاهتمام يدفع إلى البحث عن الكتاب الدينى والتعرف على ما فيه من أفكار.

٥- أكثر مسابقات الشباب تدور حول محاور دينية وهى تتمثل إما فى قراءة الكتب الدينية موضوع المسابقة وإما فى الإجابة عن أسئلة تدور حول موضوعات دينية ومن هنا فلا بد من نشاط الطلب على الكتاب الدينى.

٦- وجود كثير من الجمعيات والهيئات الدينية فى كثير من قارات العالم كالقارة الإفريقية والقارة الآسيوية. ولا شك أننا نعلم جميعاً أن تلك الهيئات ترسل إليها آلاف الكتب الدينية.

٧- انتشار الجامعات الإسلامية والمعاهد الدينية فى كل بلدان العالم العربى شرقاً وغرباً وخاصة فى الفترة الزمنية الحالية. ولا شك فى حاجة الجامعات الإسلامية وعلى رأسها جامعة الأزهر بكلياتها العديدة ككلية أصول الدين وكلية اللغة العربية، إلى الكتاب الإسلامى وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار آلاف الطلاب الذين يلتحقون بهذه الكليات والمعاهد.

ووضعنا في الاعتبار أيضاً أن الهدف الرئيسي الذي تسعى إليه تلك الكليات هو التعليم الدينى. وإذا وجدنا علوماً إنسانية تدرس فى تلك الكليات كالتاريخ والفلسفة، فإنها لا تدرس فى حد ذاتها، بل تدرس من خلال الإطار الدينى وهذا من أشنع الأخطاء لأن العلوم الإنسانية غير العلوم الدينية.

ومن هنا يكون قد اتضح لنا وجود أسباب عديدة وراء انتشار حركة التأليف بالنسبة للكتاب الدينى وكيف أن تلك الأسباب تتصل اتصالاً مباشراً بتيار العصر والحضارة كما أن لها إيجابياتها وسلبياتها ومخاطرها.

(٤)

الرؤية القبطية في الثقافة المصرية والعربية

"إن التعرف على معالم ثقافتنا الحديثة والمعاصرة وتحليل جذورها وسبر أغوارها لا يمكن تصوّره إلا من خلال إخواننا في الوطن والإنسانية. ومن يتغافل عن ذلك فوقته ضائع عبثاً، وسيظل خارج ثقافتنا الحقيقية، سيبقى في الفناء، حتى يدركه الفناء".

(٤)

الرؤية القبطية في الثقافة المصرية والعربية

قد لا أكون مبالغاً إذا قلت بأننى لا أتصور متقفاً مصريةً أو عربياً إلا ويكون قد وضع فى اعتباره تحليل الأعمال رائدة والشامخة، الأعمال الفكرية لإخواننا المسيحيين الذين آمنوا بربهم ووضعوا فى اعتبارهم مصلحة الوطن فوق كل اعتبار. كيف نتصور ثقافة مصرية إذا تغافلنا عن الحديث عن البصمات البارزة والظاهرة لهؤلاء المفكرين الكبار والذين دعوا إلى نشر أسس الثقافة الإنسانية الرفيعة فى كل مجال من مجالاتها أدباً كان أو فلسفة. هل يمكن التأريخ للحياة الفكرية فى مصر وسائر بلدان العالم العربى دون أن نضع فى الاعتبار المجهودات النظرية والجوانب العملية التى قام بتقديمها وتحقيقها إخوة لنا فى وطننا العربى العزيز، أشقاء لنا فى رحلة الحياة والمصير؟ كلا ثم كلا، فتاريخ فكرنا الحديث والمعاصر يفخر بغير حدود بالإنجازات الرائعة والتى من واجبنا أن نفخر بها ونقدرها حق قدرها. إن الحديث عن دور الأقباط فى الثقافة بمعناها الواسع الشامل، يحتاج منا إلى مجموعة من المجلدات، فأعمالهم لا يستطيع إنكارها إلا كل جاهل أو متعصب أو ضيق الأفق. هل نستطيع أن نتغافل عن دورهم القومى فى منطقة الشرق الأوسط من تعليم ونشر ثقافة وإنشاء صحف ومجلات رفيعة المستوى وإسهام فى تأسيس الجامعة المصرية ونشر للفكر السياسى (أخنوخ فانوس، إستر فهمى ويصا، أبسفيرون، مكرم عبيد، جورج خياط، روجينا خياط) وتاريخ للفلسفة طوال عصورها (يوسف كرم)

بل إن من يطالع المجلد الكبير والذي يعد دراسة توثيقية بعنوان: "الإنجيليون والعمل القومي"، سيجد واجبا عليه الاعتراف بالدور الرائد والحيوى الذى أداه وما زال يؤديه أخوة لنا فى الوطن، وذلك فى المجال الثقافى والإجتماعى والسياسى، مجال الحرب والسلام، مجال الحوار بين الأديان، ميدان غرس الروح الوطنية ونشر مبادئ المحبة والأخوة. وهل يمكن أن نقلل من الدور الإيجابى الذى يقوم به معاصرنا الدكتور القس صموئيل حبيب، والذي يعد شعلة نشاط ليس فى مصر وحدها، بل فى أكثر بلدان العالم شرقا وغربا.

إن التعرف على معالم ثقافتنا الحديثة والمعاصرة وتحليل جذورها وتحليل وسبر أغوارها لا يمكن تصوره إلا من خلال أخوتنا فى الوطن والإنسانية. ومن يتغافل عن ذلك، فوقته ضائع عبثا، وسيظل خارج إطار ثقافتنا الحقيقية، سيبقى فى الفناء حتى يدركه الفناء. أسماء كثيرة ولا حصر لها كما قلت نجدها فى تاريخ ثقافتنا بمعناها الواسع. صحيح أننا من جانبنا قد نتفق معهم تارة ونختلف تارة أخرى، ولكن هذا يعد من الأمور المنطقية والطبيعية.

نعم لقد بذلوا جهدا كبيرا يستحق الفخر والثناء، وكانت أفكارهم خالية من روح التعصب والفتنة الطائفية. كانت ثقافتهم موسوعية وتدعوا إلى فتح النوافذ أمام كل التيارات الفكرية فى العالم كله شرقا وغربا لأنهم أدركوا أن من يحصر نفسه داخل جدران أربعة سوف تكون ثقافة محلية الطابع، ثقافته راكدة فاسدة، ثقافة لا تملك لغة الحوار مع الثقافات الأخرى.

لقد وضعوا فى اعتبارهم أن الثقافة العربية الجادة منذ قديم الزمان لم تتشكل إلا بعد أن حدث اللقاء السعيد بين الفكر الغربى اليونانى، والفكر العربى. وهذا اللقاء السعيد قام به فى الأساس مجموعة كبيرة من النصارى والذين أقبلوا على الترجمة، ترجمة أمهات الفكر اليونانى من اللغة اليونانية

والسريانية إلى اللغة العربية. ولولا مجهوداتهم لما أمكن لعلماء العرب وفلاسفة العرب، التعرف على ثمار العقلية اليونانية، وخاصة أننا لا نجد فيلسوفا عربيا في المشرق أو في المغرب العربي كان على علم باللغة اليونانية، كما لا نجد علما عربيا بالمعنى الدقيق لكلمة العلم إلا ابتداء من العصر العباسي، العصر الذي يمثل الإهتمام الفائق بالترجمة والتعرف على فكر الآخرين.

وما نجده من أفضال لهم على ثقافتنا قديما، نجده حديثا. ألا يكفيهم فخرا أننا لا نجد واحدا منهم، كان من أشباه المتقنين وأنصاف المتقنين. ليس مما يجعلنا نعتز بمجهوداتهم ابتعاد كل واحد منهم عن ثقافة "البتر وفكر"، الفكر الزائف، الفكر الرجعي. هل يمكن أن ننسى مجهودات الأنبا غريغوريوس، ووليم سليمان قلادة وميشيل باخوم ونسيم مجلى وفخرى قسطندى وانجيل بطرس وفرح أنطون وفيليب خورى حتا وحنائى جرجى زيدان وسلامة موسى ولويس عوض وسامى جبرة وسامى عزيز وخليل صابات ومجدى وهبه ومراد وهبه ويعقوب صروف وبول غليونجى والذى يعد كتابه عن ابن النفيس أفضل ما كتب بالعربية عن هذا الطبيب وبحيث لا نجد دراسة أكاديمية واحدة عن ابن النفيس تكاد تقترب من هذا الكتاب، لأن الدراسات الأخرى إنما تعتمد على المبالغة والخطابة والإنشاء، والأب متى المسكين، والدكتور زكريا إبراهيم، وفوزى مثرى نجار وغيرهم من مئات الأسماء والشخصيات البارزة والتي وضعت بصماتها البارزة على مسار فكرنا العربى الحديث، وذلك بصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا معهم فى بعض الآراء.

وإذا كنا نتحدث عن دور الثقافة القبطية فى بلورة العديد من أفكار سائر المفكرين، فإنه من الضرورى الحديث عن مفكر شامخ كان خير سفير فكرى لمصر فى العديد من بلدان العالم شرقا وغربا، وهو الأب الدكتور جورج شحاتة قنواى والذى رحل عنا فى الثامن والعشرين من يناير منذ عدة

أعوام بعد أن ملأ بقاع الأرض علماً ونوراً ومعرفة وكان خير أستاذ لأجيال من الدارسين والباحثين والمفكرين. لقد ترك لنا الرجل آلاف الصفحات التي نبهتنا إلى عوالم كانت مجهولة بالنسبة لنا. ويقتنى أن كتاباته عن تراثنا القديم، وفكرنا العربي المعاصر أيضاً ستظل محفورة بالأذهان. إن هذا العالم الذي ولد بالإسكندرية كان يعتز بمصريته وعروبته وذلك عن طريق الإهتمام بالثقافة المصرية القديمة منها والحديثة، والثقافة العربية أيضاً طوال تاريخها. كتب آلاف الصفحات عن أكثر مفكرينا العرب كابن سينا فيلسوف المشرق العربي، وابن رشد رافع لواء العقل في كل زمان وكل مكان، وأبى بكر الرازي أعظم طبيب عرفته حضارتنا العربية. وكانت أسئلته التي وجهها إلى توفيق الحكيم في حوار معه خير مرشد لنا في التعرف على حقيقة فكر أديبنا العملاق توفيق الحكيم.

وكم أسهم جورج قنواي في الحوار بين الأديان، وكانت كتاباته معبرة عن روح المحبة والتسامح وضرورة الإنفتاح على كل التيارات والأفكار العالمية. كان العقل المدبر والمحرك لنشاط الأباء الدومينيكان ومكتبتهم الكبرى والتي تعد أفضل مكتبات الشرق الأوسط، تلك المكتبة التي توجد داخل الدير، والتي كانت وما زالت المدرسة الكبرى التي تخرج منها مئات من الباحثين والمفكرين، وكم وجهت كل تلاميذى إلى الاستفادة من كنوز هذه المكتبة الكبرى بعد أن قضيت بالدير خمس سنوات مستفيداً من علم مفكرنا الشامخ الأب قنواي.

وهل يمكن أن ننسى الأثر البالغ للأب قنواي في لجان المجلس الأعلى للثقافة، والمجمع العلمى المصرى والمجلس البابوى للثقافة بالفاتيكان، والمجمع الخاص بالمؤمنين غير المسيحيين بالفاتيكان، وعشرات اللجان والمجالس الأخرى، بالإضافة إلى أنه كان نجم مصر الساطع في مئات المؤتمرات المحلية منها العالمية.

وكم حاول الأب قنواى بدافع من روح المحبة والتسامح والإخاء بين الأديان، الكشف عن الأسس المشتركة بين الإسلام والمسيحية، ودفعه إلى ذلك القضاء على التعصب الذمى، والإبتعاد عن كل ما يتعلق بالفتنة الطائفية من قريب أو من بعيد. إنه يمثل خير تمثيل للرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية، ولم لا؟ وهو الذى يتحدث بموضوعية بعيدة تماماً عن روح التعصب، عن أسس ثقافتنا المشتركة فى الإسلام والمسيحية.

وليرجع القارئ العزيز إلى كتاب له بين عشرات الكتب ومئات البحوث التى كتبها، ونعنى به كتاب المسيحية والحضارة العربية^(١) إنه يكشف من خلال فصول هذا الكتاب الرائع عن أثر المسيحية فى الجزيرة العربية قبل الإسلام، والمسيحيون فى بغداد، وشعراء العرب والأطباء والصيادلة من المسيحيين وأثرهم فى بلورة الثقافة العربية. فهو يقول: لكى نفهم كيف استطاع المسيحيون أن يعيشوا فى إطار الحضارة الإسلامية والعربية ويشعروا أنهم من لحمها وسداها وأنهم ليسوا غرباء عنها، بل من العناصر الفعالة فى تشييد الحضارة العربية ومساعدة إخوانهم المسلمين لصيانة عقائدهم فى مختلف ميادين العلوم ومقتضيات الحضارة، فلا بد أن نضع فى اعتبارنا وجود أسس مشتركة بين الديانتين من بينها الإعتقاد بإله واحد خالق السموات والأرض وكل ما يرى وما لا يرى، وأن وجود الله يثبت العقل ويؤكد الوحي. فقد أقام علماء الدين المسيحيون والمسلمون براهين شتى مختلفة ولكنها متشابهة لإثبات وجود الله. وتحت الكتب المقدسة على التأمل والإعتبار فى آيات الله الكونية والنفسية.

والواقع أن الحديث عن الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية، يعد موضوعاً بالغ الأهمية وخاصة فى عصرنا الحالى، العصر الذى امتزجت

^(١) راجع الفصل الذى كتبناه عن الأب جورج قنواى، وتحليل هذا الكتاب، فى كتابنا: العقل والتنوير فى الفكر

فيه ثورة العقل بهدوء النفس والروح، العصر الذي يدعونا إلى النظر إلى الثقافة من منظور الإنسانية والعالمية، وليس من منظور التفرقة بين أصحاب دين، وأصحاب دين آخر. لقد أصبح الكل في واحد، وبحيث يسعى الجميع إلى إرساء دعائم الفكر الحر المستتير، الفكر الإنساني والذي يتخطى حدود الزمان وحدود المكان أيضا، بحثا عن الخالد والأزلي، وبحيث يقول كل واحد في كل دين: هذه آثارنا تدل علينا، فانظروا بعدنا إلى الآثار. والعبرة ليست في الخلاف، بل في المحبة والوئام والإتفاق، لأن الفكر نسيج يشترك في خيوطه أصحاب كل دين من الأديان.

(٥)

طائر الحب والحوار بين الأديان

يخلق في سماء إيطاليا

[حول المؤتمر العالمي للسلام بين الأديان

المنعقد بمدينة أسيزي بإيطاليا]

"إن عالمنا المعاصر في أمس الحاجة إلى مؤتمرات السلام

بين الأديان، وخاصة بعد انتشار حالات الجهل والتخلف

والتعصب، بالإضافة إلى انتشار حالات التجارة بالدين"

(٥)

طائر الحب والحوار بين الأديان

يخلق في سماء إيطاليا

[حول المؤتمر العالمى للسلام

بين الأديان المنعقد بمدينة أسيزى]

قد لا أكون مبالغا إذا قلت بأن المؤتمر الذى أقيم مؤخرا بمدينة أسيزى Assisi بإيطاليا يعد واحدا من أهم المؤتمرات العالمية الفكرية والدينية والتي تم عقدها فى السنوات الأخيرة. وإن صح تقديرى فسيكون للحوار المتبادل بين أعضاء المؤتمر صدهاء البالغ وأثره العميق فى أكثر بلدان العالم شرقا وغربا. البلدان الإسلامية والبلدان المسيحية.

ولسنا فى حاجة إلى القول بأن عالمنا المعاصر فى أمس الحاجة إلى مثل تلك المؤتمرات وخاصة بعد ازدياد حالات التعصب و الجهل بطبيعة دين أو أكثر من الأديان المنزلة، بالإضافة إلى انتشار ظاهرة التجارة بالدين، وكأن الدين قد أصبح حرفة من الحرف كالزراعة والتجارة مثلا.

لقد أقيم هذا المؤتمر فى الفترة من ٢٤ أكتوبر حتى ٢٨ أكتوبر عام ١٩٨٨م تحت رعاية قداسة البابا يوحنا بولس الثانى، بابا الفاتيكان. ويمكننا القول بأن اختيار مدينة أسيزى لعقد هذا المؤتمر، كان اختيارا موفقا غاية التوفيق. إنها مدينة جميلة رائعة. مدينة تتسم بالسمة الدينية إلى حد كبير ويأتى إليها الناس سواء من داخل إيطاليا أو خارجها فرادى وجماعات لأنها

مدينة القديس فرنسيس الأسيزي Francis، وهو من هو - كما نعلم من سيرته - في مجال التقوى والفضيلة وإشاعة روح السلام بين الأديان.

لقد سافرت الوفود المشتركة في هذا المؤتمر من مدينة روما إلى مدينة أسيزي مكان المؤتمر، مؤتمر السلام بين الأديان. والطريق إليها من مدينة روما يستغرق ساعتين ونصف على وجه التقريب. ولن أحدثكم أيها القراء الأعزاء عن جمال مدينة روما وجمال مدينة أسيزي وجمال الطريق من روما إلى أسيزي، فالحديث لا يغنى بأى حال من الأحوال عن زيارة روما والفاتيكان وأسيزي. إن الناس يمشون في هذه المدن وسط الجمال، والنظافة، والنظام. لقد كنا نقف متأملين في بعض الأماكن ونشهد بعظمة الخالق تعالى. نشهد بقدرة الإنسان الذى سخر الطبيعة. وكنت أقول لنفسى: لعنة الله على كل من يتحدثون عن الغزو الفكرى، الغزو الحضارى. لعنة الله على كل من يهاجمون الحضارة الأوروبية بأقسى أسلحة الهجوم. كنت أقول لنفسى إن هذه الدعوات والإفتراءات والطبل الأجوف من جانبهم إنما تعد تعبيراً عن جهل، وجهل مركب لأنه جهل على جهل والعياذ بالله، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

شاركت وفود كثيرة في هذا المؤتمر العالمى. وفود من مصر والمغرب وتونس والجزائر وموريتانيا بالإضافة إلى عدد من الأعضاء الأوروبيين الذين يقيمون بروما وترجع جنسياتهم إلى دول عديدة أخرى. والكل كان يعمل في همة ونشاط. الكل كان يعمل دون كلل أو ملل. فجدية المؤتمر تبدو واضحة بارزة منذ اللحظات الأولى من وصولنا إلى أسيزي، بل منذ وصولنا إلى روما. جمع بين الوفود طائر الحب والسلام بين الأديان. شمل الجميع دافع البحث عن الحقيقة مهما تباعد الزمان، أو امتد المكان. كان الكل وكأنه يحمل مصباح "ديوجانس" سعياً وراء النور. كان

الجميع يقولون وداعا للجهل، وداعا للتعصب، ولتذهب هذه الأشياء إلى الجحيم وبئس المصير.

قلنا إن وفود دول عديدة قد شاركت في هذا المؤتمر الدينى الفكرى الحضارى الهام . ومن بينهم على سبيل المثال من مصر، كاتب هذه السطور، ود. زينب محمود الخضيرى أستاذة الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة، ود. نبيلة زكرى زكى من جامعة المنيا، والمهندس جورج عجايبي. ومن تونس السيد مكى بن سدرين Mekki Ben Sedrine والباحثة مونيكا شفرلييه Toussaint Yankal Mamadou والسيد يانكل مامادو Monique de la Chevreliere ومن الجزائر المحامى رحال رضوان Redouane- Rahal والأستاذ شريف مصطفى Mustapha Cherif والباحثة سوزان مازيلا Suzanne Mazella وهى تعمل بمجال علم النفس الإكلينيكي والباحث بول فيزانت Paul Faizant. ومن المغرب الأستاذ قاسم زهيرى Kacem Zhiri وله العديد من المقالات والبحوث كما شارك خلال حياته فى الكثير من الأنشطة السياسية، والأستاذ بيوكار Alain Beauclair والأستاذ جاما بيضا Jamaa Baida وهو يقوم بتدريس التاريخ فى مراحل التعليم العام ومن موريتانيا الشيخ محمد أولييه M. Fall O'eleya والأب ايفيو Per eveau. وأيضا شاركت ليبيا بوفد من جانبها فى المؤتمر.

ونود أن نشير إلى أن بعض هؤلاء الأعضاء يعمل بالدول التى قاموا بتمثيلها وإن كانوا يحملون جنسيات أخرى. كما أن بعض أعضاء المؤتمر يدينون بالعقيدة الإسلامية، وبعضهم الآخر يدين بالديانة المسيحية.

كما شارك فى المؤتمر عديد من الأعضاء ممن يعملون بروما ويحملون جنسيات مختلفة ومن بينهم الأب أندراوس سلامة Andraos Salama المصرى الجنسية الذى يعمل بالفاتيكان. والأب أندراوس يعد مثالا فى علمه وخلقه الرفيع. لقد كان وما يزال شعلة نشاط. يتمتع بروح هادئة وديعة والإبتسامة لا تفارقه وله قدرة عجيبة على حل العديد من المشكلات التى

كانت تقابل أعضاء المؤتمر ومنها مشكلات علمية. ونظرا لأنه مصرى الجنسية ودائم التحدث عن مصر و الإشادة بفضلها وعظمتها فقد كان حريصا على استقبالنا بمطار روما منذ اللحظات الأولى لوصول الطائرة إلى الأراضي الإيطالية، الطائرة التي حملت أعضاء الوفد المصرى الذى يمثل مؤتمر السلام بين الأديان. وأيضا مورييس بورمانس M. Bornans. هذا الرجل الذى يعمل دون كلل ولا ملل وله قدرة على إدارة الحوار العلمى والتتسيق بين كلمات وحوار أعضاء الوفود. والباحث الممتاز الدقيق يوسف خورى Joseph Khoury وله العديد من أوجه النشاط العلمى والفكرى البناء بكافة أنحاء إيطاليا وخاصة روما والكاردينال فرنسيس أرينزى Cardinal Francis Arinze والذى يعمل فى همة ونشاط يمكن أن يلحظها أى فرد وكم أثرت آراؤه أوجه الحوار بيننا خلال المؤتمر الذى كان رئيسا له. والأب ميشيل فيتزجيرالد Michael Fitzgerald والأب توماس ميشيل Thomas Michel.

كان العمل فى المؤتمر أقرب إلى الحوار، منه إلى إلقاء البحوث المطولة. كان لكل عضو من الأعضاء كلمة. هذا صحيح ولكن المناقشة كانت هى الطابع الغالب على جلسات المؤتمر. كنا نتحاور معا حول المشكلات الدينية والفكرية التى توجد فى كل بلدة من البلدان. كان الحوار يذكرنا باللغة الفلسفية، لغة الحوار السقراطى وما أعظمه وما أكثر فوائده من حوار.

استمر الحوار بيننا حتى نهاية المؤتمر. لقد خصص اليوم الأول، يوم الوصول إلى روما، للسفر إلى بلدة أسيزى ، بلدة الفن والتاريخ. وفى اليوم الثانى، أى الخامس والعشرين من شهر أكتوبر، وبعد كلمات الترحيب بالأعضاء، تم تبادل الأفكار بين أعضاء المؤتمر وذلك على مستوى كل وطن من الأوطان ولذلك خصص لكل عضو من أعضاء المؤتمر ربع ساعة للحديث وفى اليوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر واصلنا الحوار

وتبادل الأفكار وتناقشنا معا في كيفية حل الخلافات بين الأديان، وكيف يمكن التواجد معا رغم اختلاف الأديان.

وفي مساء هذا اليوم تم ترتيب زيارة لمدينة الفن والتاريخ، مدينة أسيزى لقد كان الترحيب بنا يفوق الوصف. كنا نسير فى شوارع المدينة ونعرف تاريخها، التاريخ العريق. كنا نتأمل فى جمال الطبيعة. الطبيعة التى تتعم بها أسيزى. تلك المدينة التى تقع على ربوة عالية جدا. لقد زرنا الكثير من الأماكن الدينية بالمدينة طالعنا كل شئ على الطبيعة. الطبيعة التى تعد خير كتاب. عرفنا الكثير من الخبرات الفكرية والثقافية بطريقة واقعية. ولم يكن فى استطاعة الفرد منا مهما زادت قراءاته النظرية، أن يكون لنفسه تلك الخبرات والمعارف. فصحيح إذن أن نقول إن الرحلات خير كتاب.

وقد تم ترتيب زيارة لرئيس مدينة أسيزى لقد كان حريصا على مقابلة أعضاء وفود المؤتمر. ورحب بنا غاية الترحيب. وكانت مقابلة ودية للغاية ظهرت فى الكلمات التى قيلت سواء من جانبه، أو من جانب بعض أعضاء المؤتمر، وكانت تدور أساسا حول تاريخ مدينة أسيزى من جهة، والتسامح بين الأديان من جهة أخرى.

كانت كلمات الوفد المصرى موفقة تماما. كنا نفخر بمصر أم الدنيا فى كل مكان ونركز على عظمتها الدينية والفكرية ودورها الخالد فى تاريخ الثقافة والفكر. فلا توجد عندنا بمصر مشكلات دينية حادة كالتى توجد فى أوطان أخرى كمشكلة الأقليات الدينية مثلا. كان أعضاء الوفود الأخرى لا حديث لهم إلا عن الكلمات الممتازة التى تم إلقاؤها من جانب أعضاء الوفد المصرى. كان حوارنا كمصريين مع أعضاء الوفود الأخرى وخلال جلسات المؤتمر وأثناء زيارتنا لأسيزى وسيرنا فى شوارعها، كان حوارنا معهم قائما على الأساس الفكرى ولهذا جاء ثريا غاية الثراء وعميقا غاية العمق.

أما في اليوم السابع والعشرين من شهر أكتوبر، وهو اليوم الرابع من أيام المؤتمر فقد كان العمل فيه على نظام المجموعات وليس على نظام الحوار الشامل الواسع بين الأعضاء جميعهم. لقد تم تقسيم أعضاء المؤتمر إلى مجموعات وذلك على أساس أن تتدارس كل مجموعة نماذج من كيفية تحقيق اللقاء بين البشر رغم اختلاف الأديان، واحترام كل فرد للمعتقد الديني للفرد الآخر. لقد تم العمل على نظام المجموعات طوال نهار هذا اليوم وجزءا كبيرا من الليل وذلك تمهيدا لصياغة مجموعة التوصيات والإقتراحات.

وأود أن أشير - قبل ذكرى بعض منجزات هذا المؤتمر ومجموعة توصياته - إلى أننا كنا نتدارس بعض الكتابات التي تركها لنا مجموعة من المفكرين والتي تعد ذات طابع ديني فكري وتقوم على أساس المودة والسلام بين الأديان وتعظيم الخالق تعالى وتقديس كل دين من الأديان. ومن بينها كتابات أبي طالب المكي، المتصوف الإسلامي والذي استفاد الغزالي من كتاباته الصوفية وخاصة كتابه: قوت القلوب، وبعض كلمات القديس فرنسيس الأسيزي وكتابات الأشعري الصوفي أبي حامد الغزالي والذي توفي عام ٥٠٥ هـ / ١١١١م

لقد اطلعنا خلال جلسات المؤتمر على العديد من الكتب الثقافية والدينية والفكرية والتي تركز على البحث في مجال فلسفة الأديان.

وفي اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر وهو آخر أيام المؤتمر بالنسبة لجلساته في مدينة أسيزي، سافر أعضاء المؤتمر من تلك المدينة، إلى مدينة روما. وكان قد تم ترتيب مقابلة مع بابا الفاتيكان، البابا يوحنا بولس الثاني.

ويمكنني القول بأن المقابلة التي تمت بين بابا الفاتيكان وأعضاء المؤتمر كانت مثمرة للغاية. لقد قمنا قبلها بزيارة الأماكن الدينية المنتشرة

بروما وفي كل الأماكن المؤدية إلى مقر البابوية شاهدنا اللوحات الفنية الرائعة التي قام برسمها أعظم الفنانين والرسامين في تاريخ البشرية والفن العالمي. شاهدنا العديد من التماثيل الرائعة وكنا نقف أمامها في دهشة وانبهار. كنا نريد معرفة تاريخ كل لوحة وكل تمثال. كنت أقول لنفسي ما أعظم الفن في كل زمان وفي كل مكان. كنت أقول لنفسي إن الفن له أثره البالغ في السمو بالروح والترقي بالمشاعر والوجدان.

تحدث البابا إلينا حديثا وديا وتعرف على كل أعضاء المؤتمر والبلدان التي حضروا منها. وألقى كلمة هامة تدور حول السلام بين الأديان وأثنى على الفكرة التي على أساسها أقيم هذا المؤتمر بمدينة أسيزي. وكان اللقاء لقاء تاريخيا غاية في الروعة. وقامت كل وسائل الإعلام المسموعة والمرئية بدورها في تغطية هذا اللقاء لقاء أعضاء المؤتمر بالبابا، وتم التقاط العديد من الصور التذكارية للبابا في لقائه مع أعضاء الوفود.

ولابد أن أشير أيضا إلى اهتمام سفير مصر بالفاتيكان بهذا المؤتمر وحرصه على دعوتنا قبيل سفرنا من روما إلى القاهرة للقاء بمنزله. لقد تحدث طويلا عن المؤتمر واهتم بالتعرف على المشكلات الرئيسية التي تمت مناقشتها أثناء جلسات المؤتمر، وأيضا حضورنا للجلسة الافتتاحية لمؤتمر آخر عقد بمدينة روما وكان من نقاط البحث فيه، إقامة حوار بين الأديان. وكان لقاءنا مع سعادة سفير مصر بالفاتيكان لقاء مثمرا، لقاء وديا للغاية.

كما أجد واجبا على الإشارة إلى اهتمام إذاعة الفاتيكان بأخبار هذا المؤتمر وحرصها على مقابلة بعض أعضاء المؤتمر وخاصة الوفد المصري والذي مثله كما قلت الدكتورة زينب الخضيرى، والدكتورة نبيلة زكري والأستاذ جورج عجايبي وعاطف العراقي لقد أجبت من جانبى عن بعض الأسئلة التي وجهها إلى مندوب إذاعة الفاتيكان وقمت بتسجيل أكثر من حلقة إذاعية، من بينها حلقة أو حديث تكلمت فيه عن جهود الأب الدكتور

جورج شحاتة قنواتي مدير معهد الدراسات الشرقية للأبواء الدومينيكان بالقاهرة ويشاء الحظ أن يقابله أعضاء الوفد المصري بمدينة روما. لقد كنا حريصين على هذه المقابلة أثناء تواجدنا بروما وبعد عودتنا من أسيزي وكم استفدت من أستاذيته كما استفاد أيضا أعضاء الوفد المصري.

وأود أن أشير بإيجاز إلى بعض نقاط البحث والتي تم الحوار حولها أثناء جلسات المؤتمر. وأبادر بالقول - بدون أدنى مبالغة - بأن الوفد المصري كان في مقدمة الوفود في مجال الإثراء الفكري والعلمي والحضاري للمؤتمر. لقد تحدثت زينب الخضيرى خلال جلسات المؤتمر عن كثير من الجوانب البالغة الأهمية وأشارت - معتمدة في ذلك على ثقافتها الواسعة الأكاديمية - إلى أمثلة عديدة تكشف عن الإخاء والمساواة، أمثلة كثيرة من واقع تاريخ الفكر العالمى، وتاريخ الأديان أيضا.

كما تحدثت نبيلة زكرى عن عديد من النماذج التي تركز على العدالة والمساواة ورجعت إلى قراءات لها في مجال تاريخ الفلسفة وتاريخ الأديان. وأيضا تحدث الأستاذ الفاضل المهندس جورج عجايبي عن كثير من خبراته في مجال السلام بين الأديان وذكر أمثلة تاريخية عديدة توضح فكرته وتؤدي إلى تدعيم وتأييد الجوانب التي أشار إليها وركز في مجال الأمثلة التاريخية على مصر بصفة خاصة.

وتحدث كاتب هذه السطور عن حركة التنوير في العالم العربى المعاصر وأشار إلى أن التنوير لا يمكن أن يتم إذا وجد تعصب أو تزمّت، فالتنوير لا يقوم إلا على أساس العقل، العقل الذى يعد أعدل الأشياء قسمة بين البشر. وقد خلق الله لنا عقولنا لكي نبتعد عن التعصب الذميم. كما أشار إلى بعض الأمثلة في تاريخ العرب قديما ومن بينها حركة الترجمة أيام العباسيين وكيف تعاون المسلمون مع المسيحيين، وربط بين تاريخ العرب قديما، والتاريخ الحديث والمعاصر.

- كلمات أعضاء الوفد المصري كانت تجمعها وحدة عضوية بارزة. وقد كانت كلماتنا خير دليل على السلام بين الأديان.
- أما عن الركائز أو الأسس التي كانت مجال بحث في هذا المؤتمر الحيوى والهام، فإنها كانت تتبلور حول نقاط رئيسية من بينها:
- ماذا نستطيع أن نفعل لتحقيق "الحق في الاختلاف" في الحياة العملية خاصة في مجالات تعليم وتكوين الأطفال والشباب وأيضا في وسائل تكوين الرأى العام؟
 - ما هي الأسس المذكورة في الكتب المقدسة عن "الحق في الاختلاف" وكيفية التواجد والتعايش معا في تسامح وتعاون وحب وعدل ورحمة.
 - تحث الكتب المقدسة على احترام الآخر وتقديس "الحق في الاختلاف". فالأديان السماوية تشترك في الدعوة إلى الحق والخير والجمال والإخاء والمحبة والسلام وما إلى ذلك من القيم الكبرى.
 - حين نعتمد على النصوص الدينية، ينبغي أن نتجنب التأويلات الفاسدة المتمتة والفهم الخاطئ، إذ أن ذلك سيؤدي إلى هدم التعايش، بل إلى إشاعة الفرقة والتكفير المتبادل حتى بين أبناء الدين الواحد.
 - الأجدى في بناء قاعدة نظرية عن الحق في الاختلاف، هو الإعتماد على المساحات المشتركة بين الأديان كالإيمان بالله الواحد، واليوم الآخر، والبعد عن الشهوات لتأصيل المحبة بين الناس جميعا، والعمل من أجل خير الإنسان وتقدير العمل الإيجابي، وأن العبرة بالنية والقلب وليس بالمظاهر الخادعة.
 - تكمن المشكلة الحقيقية في أنه على الرغم من العديد من الدراسات واللقاءات والمؤتمرات التي اهتمت بهذه الموضوعات، فإن التطبيق في الحياة العملية كان متعثرا في بعض المناطق والبلدان. فالتعايش السلمى بين المؤمنين من أهم الواجبات التي يجب أن نحصر عليها جميعا.

ومصر في مقدمة دول العالم التي تقدم الدليل على ذلك عبر تاريخها الطويل قديما وحديثا. إن مصر تقدم لنا الدليل والمثل، تقدم لنا النموذج الذي يجب أن يستفيد منه كل مهتم بموضوع السلام أو التعايش بين الأديان.

- البناء الحضارى للأمة هو الأرض الخصبة للتعايش السلمى بين الأديان. وعلى سبيل المثال لا الحصر، فإننا إذا رجعنا إلى العصر العباسى، وجدنا كيف أن المسيحيين قد قاموا بنقل التراث من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية ثم من اللغة السريانية إلى اللغة العربية. وكانوا يلقون التشجيع المادى والمعنوى من جانب الخلفاء المسلمين. لقد كان الخلفاء العباسيون يجزلون لهم العطاء المادى. ومعنويا كانوا يحترمون بقاء هؤلاء المترجمين على دينهم. وأيضا لابد أن نشير إلى تأثير فلاسفة المسيحية ببعض أفكار فلاسفة الإسلام. وكيف استفادت أوروبا فى نهضتها بالعديد من إنجازات العرب والمسلمين فى العصور الوسطى وكم يعطينا التاريخ شواهد عديدة على ذلك.

- فى مجال التعليم وتكوين الأطفال والشباب، لابد من الإهتمام بتعليم المرأة وتنقيفها ثقافة شاملة. ولا يخفى علينا أن الإهتمام من جانبنا بتعليم وتنقيف المرأة سيؤدى إلى القضاء على التعصب أو التزمّت . فالتعصب لا ينشأ إلا عن الجهل ودور المرأة فى الأسرة باعتبارها الخلية الأولى من خلايا المجتمع يعد دورا بالغ الأهمية إذا أردنا نشر روح التسامح والمحبة والألفة بين أبناء الوطن مسلمين ومسيحيين إن الأم هى المعلمة الدينية الأولى فى حياة الأطفال وهى التى تزرع فى نفوسهم الروح الدينية سواء من حيث القيم أو من حيث العلاقات مع الآخرين من أصحاب الديانات الأخرى.

- فى مجال المناهج الدراسية، ينبغى الإبتعاد تماما عن كل الأفكار التى تقوم على التعصب أو تستند إلى جدور التزمّت والجهل. وفى مناهج التربية الدينية على وجه الخصوص، فإنها يجب أن تعمل على إشاعة حب احترام الإنسان ومعتقداته حتى مع الإختلاف. ويراعى أن يكتب المسلمون كل ما يتعلق بالإسلام، وأن يكتب المسيحيون كل ما يتعلق بالمسيحية. وهذا لا يمنع من أن تكون هناك بعض الموضوعات التى يجب إبراز الرأى الآخر فيها بطريقة موضوعية وعلمية ومنهجية.

- بالنسبة للمدرس، فينبغى التأكيد على أهمية أن يكون المدرس ذا شخصية سوية متوازنة غير متطرفة ولا متعصبة وأن يراعى فى تكوينه وتأهيله، احترام الحق فى الإختلاف.

- وما يقال عن المناهج وعن المدرس من حيث أهمية كل منهما، يقال أيضا عن المدرسة فإذا كانت الأم تلعب دورا بالغ الأهمية فى تكوين شخصية الطفل، فإن المدرسة لا يقل دورها عن دور الأسرة. ينبغى إذن توفير مناخ عام يشعر فيه جميع الطلاب بالمساواة رغم إختلاف دياناتهم وطبقاتهم الإجتماعية.

- أما فى مجال الإعلام، فإن له أثره البالغ والحيوى فى هذا المجال. ينبغى أن يخلو الإعلام من كل جوانب التطرف أو التعصب أو التشويه فى مجال الفكر الدينى.

وينبغى أيضا تشجيع البرامج التثقيفية التثويرية والتى تبرز التعايش والسلام بين المؤمنين عامة، وذلك فى مجال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

ولا يخفى علينا الأثر البالغ للتلفزيون بصفة خاصة، هذا الجهاز السحرى الذى يلعب دورا ملحوظا فى تشكيل شخصية الأفراد. ومن هنا

لابد من إبراز التعايش بين الأديان والتمسك بأداب الحوار عند مناقشة القضايا الدينية.

ولابد أن تشير أيضا إلى أهمية الابتعاد عن الكتابات المثيرة أو الأحكام العامة المطلقة والتي لا تخلو من هوى وتعصب.

- في مجال الجمعيات التي تقوم بدور ديني تكفي، لابد من تشجيع وتقوية الجمعيات التي تحمل لواء الإخاء الديني وتأخذ على عاتقها مهمة نشر السلام والألفة بين أبناء الوطن الواحد. كما ينبغي أيضا التركيز على إبراز دور القوة الحسنة سواء من المسلمين أو المسيحيين، إذ العبرة أساسا بالعمل، وبالضمير، والذي يعد قوة روحية خلقية، خلقها الله فينا وأودعها في نفوسنا وأفئدتنا.

والواقع أن المجال لا يتسع لمناقشة كل القضايا التي أثرت في هذا المؤتمر. المؤتمر الذي أقيم بمدينة أسيزى بإيطاليا. تلك المدينة الجميلة والمقامة على ربوة عالية، وكأنها تغرس في النفوس سمو الروح وتعاليتها، وعظمة الوجدان وما أبلغ أثره على حياتنا التي نحياها. لقد كنا نشعر أن طائر السلام يحلق فوقنا سواء في الجلسات التي أقيمت بتلك المدينة، مدينة أسيزى، أو في الحوار الذي جرى بيننا أيضا في روما العاصمة والتي شهدت أحداثا تاريخية هائلة يرجع تاريخها إلى أعماق أعماق الماضي، والتي تعد شامخة بمفكرها القدامى ودورها الديني، وأثارها الفنية الهائلة. إننا نتحدث عن هذا المؤتمر لأننا من جانبنا ندرك أن الحوار بين الأفكار يعد لبنة من لبنات البناء النقدي، وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

الفصل الخامس

جامعاتنا والطريق نحو المستقبل (رؤية نقدية)

ويتضمن هذا الفصل العناصر والنقاط التالية:

- (١) جامعاتنا العربية والإغتراب عن الثقافة.
- (٢) جامعاتنا بين الكم والكيف.
- (٣) النظرة النقدية لمناهج تدريس الفلسفة بالجامعات.

"لقد تراجع دور الجامعات ثقافيا. أصبحت الجامعات فى حالة غربة أو اغتراب عن الثقافة. أصبحت بعض المواد التى يدرسها الطلاب والطالبات ممثلة لثقافة الظلام الرجعية، لا ثقافة النور التقدمية، ثقافة الفكر الحر التجديدى، وإن كان أكثرهم لا يعلمون"

(١)

جامعاتنا العربية والإغتراب عن الثقافة

"لا سبيل إلى استعادة الدور الريادي لجامعاتنا، إلا بالانفتاح على كل التيارات الفكرية. لابد من فتح النوافذ باستمرار. إن فتح النوافذ يؤدي إلى النور والضياء، أما إغلاقها فلابد أن يكون مؤديا إلى العدم، إلى الظلام، إلى الصعود إلى الهاوية وبئس المصير".

(١)

جامعاتنا العربية والإغتراب عن الثقافة

لا أشك من جانبى لحظة واحدة فى أن البحث عن الدور الثقافى لجامعاتنا حاليا ومقارنة بدورها الثقافى منذ ما يقرب من ربع قرن أو يزيد، بل بعد إنشاء جامعاتنا العريقة بعدة سنوات، أقول إن البحث عن هذا الدور الآن يعد من أهم القضايا التى يجب أن يبحث فيها كل واحد منا، سواء كان داخل الجامعة أو خارجها.

وأكاد أقول إن جامعاتنا الآن تعد فى حالة اغتراب عن الثقافة وقضايا الفكر الجاد. ولننظر إلى الأمور بصراحة وموضوعية ولنترك التفاؤل الساذج جانبا، فنحن إزاء قضية حيوية، قضية مصير ثقافى. إن كل فرد منا فى الماضى كان يشعر بثقل ثقافى لجامعاتنا، كان يشعر بدورها البارز فى إثارة العديد من القضايا وتقديم الحلول الأكاديمية الناضجة لكثير من مشكلاتنا الفكرية على وجه الخصوص. أما الآن فماذا نجد؟ دعونا نتكلم بصراحة لنقول إن جامعاتنا الآن أصبحت فى واد، والقضايا الثقافية فى واد آخر، أصبحت المسافة بين جامعاتنا وبين الإهتمام بقضايانا الثقافية، أبعد من المسافة بين المشرق والمغرب، بين القطب الشمالى والقطب الجنوبى، بين الإنس والجن. وصدقونى أيها القراء إذا قلت لكم إننا قد نجد دورا رائدا وبارزا لمفكرين عديدين لا ينتمون أساسا للجامعة، نجد تفجيرا وإثارة لأعظم مشكلاتنا الثقافية من جانب أناس أخلصوا لأمتهم ووطنهم وبصرف النظر عن كونهم فى الجامعة أو خارجها.

هل من المعقول أن ننتظر دورا ثقافيا للجامعة في ظل الآلاف من الطلاب الذين يدخلون الجامعة للحصول على شهادات عليا، وكأن الشهادات العليا أصبحت تعنى هبوطا في الثقافة وفقرا في الفكر. هل من المنتظر أن نجد دورا رياديا في مجال الثقافة من جانب الجامعة في ظل مأساة أو ملهاة ما نسميه بالكتاب الجامعي، أي الكتاب المقرر على الطلاب، والذي لا مفر من حفظه وترديده دون فهم. هل سمعتم عن هذه المأساة في ماضى جامعاتنا؟ كلا ثم كلا. فلا ثقافة ننتظرها من جامعات الآلاف من الطلاب. لا فكر يمكن إفرازه عن جامعات الكتب الجامعية المقررة.

نعم تراجع دور الجامعة ثقافيا. نعم أصبحت جامعاتنا في حالة غربة أو اغتراب عن الثقافة. نعم أصبحت بعض المواد التي يدرسها الطلاب والطالبات في هذه الجامعة أو تلك، إنما تمثل ثقافة الظلام لا ثقافة النور، ثقافة التقليد لا ثقافة الفكر الحر التجديدي، هذا إن صح أن للظلام ثقافة، أو أن للتقليد فكرا.

وإذا كانت جامعاتنا الآن قد أصبحت في حالة اغتراب عن الثقافة، أصبحت في حالة سبات وكسل، أصبحت تمثل صعودا إلى الهاوية، فإن هذا لا يعنى إنكار بعض الظواهر الإيجابية وإن كانت قليلة جدا الآن، والتي تتمثل في وجود مساهمات من جانب بعض من يعملون في الجامعة، لحل قضايانا الفكرية والعلمية.

ولنبادر من جانبنا إلى القول بأن من يحاول العثور على دور ريادي الآن للجامعة، فوقته ضائع عبثا. غير مجد في يقيني واعتقادي توقع هذا الدور وقد أصبحت جامعاتنا الآن غير جامعات الأمس، أصبح الحال غير الحال.

وإذا تساءلنا عن السبيل إلى استعادة الدور الريادي للخلاق لجامعاتنا، فإننا نقول من جانبنا إنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالإنفتاح على التيارات الفكرية

الكبرى في العالم كله شرقه وغربه. ولن تجدوا روادا وعمالقة في ماضى جامعاتنا إلا لكونهم انفتحوا على الهواء المتجدد، انفتحوا على التيارات الفكرية المعاصرة. ومن يغلق على نفسه الأبواب فإنه لابد وأن يتنفس هواء راكدا فاسدا سرعان ما يؤدي به إلى الإختناق بل الموت.

نعم لا سبيل إلى تحقيق دور الريادة لجامعاتنا، إلا بالإنفتاح على كل فكر حر، كل فكر متجدد. يجب أن نسعى بكل قوتنا إلى الإنفتاح على حركة الفكر المعاصر وكفانا الحديث عن الغزو الثقافي. أى غزو يا سادة؟ إن الثقافة العالمية لا تعد ظلاما، والظلام لا يأتي إلا من إغلاق النوافذ. هل سمعتم عن فرد لم ير النور رغم فتحه للنوافذ؟ إن الوقوف ضد التيار لا يعبر إلا عن ضيق الأفق. ولو حفظتم كل كتب التراث في مجالات عديدة فلن تساعدكم كتب التراث كلها على اختراع أبسط نوع من أنواع المخترعات البشرية لأنها كلها تعبر عن كيف وكيف فقط، والعلم كم وكم فقط. هذا بالإضافة إلى ما قد نجده في كتب التراث من خرافات قد تكون أكثر عددا من سكان أمتنا العربية.

هل ننتظر من جامعاتنا دورا ثقافيا في الوقت الذي نجد فيه أناسا داخل الجامعة يشنون الهجوم على الحضارة، يشنون الهجوم على المنجزات العلمية. إنك إذا ذكرت لهم اسم مفكر عقلاني متجدد الفكر، يقولون لك: العياذ بالله. وإذا قلت لهم إن نيوتن كان عالما، فإنهم يقولون لك إنه كان كافرا لأنه من بلاد الفرنجة. وإذا قلت لهم بأهمية الإنفتاح على الفكر الغربى العالمى، فإنهم يتهمونك بالضلال ويطلبون لك الشفاء من هذا المرض. وليبق القارئ تماما أن هذا كله لا يعبر إلا عن تراجع عن الثقافة، تراجع عن الدور الريادى للجامعة. ومن يعتقد بغير ذلك، فإن اعتقاده يعد جهلا على جهل، وإن كان أكثرهم لا يعلمون. ومنذ سنوات ليست بعيدة تعلمنا من المفكر الكبير طه

حسين أن من يكتفى بالتراث وحده فهو نصف إنسان. ولا فرد منا تكون لديه نرة من العقل، يرضى لنفسه أن يكون نصف إنسان.

نعم يجب أن تتفتح جامعاتنا إذا أرادت لأنفسها دورا قياديا، على حركة الفكر في العالم ولنا في تاريخنا العربي في الماضي أسوة حسنة إن الحركة الثقافية انتقلت من بلاد اليونان إلى بلاد العرب في العصر العباسي بعد أن تم نقل أكثر الكتب في الطب والطبيعة والفلك والمنطق والفلسفة من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية، وقام الخلفاء بتشجيع الناس على قراءتها ورغبتهم في تعلمها وتعليمها. وسرعان ما وجدنا بعد ذلك فلاسفة كبارا سواء في المشرق العربي أو في المغرب العربي. لقد تم بعد ذلك الإلتئام بين الثقافة العربية والثقافات الأجنبية. ولكن ماذا نجد بعد ذلك؟ لا نجد دورا قياديا رائدا للجامعة كذلك الدور الذي كان لجامعتنا الأم، جامعة القاهرة أو الجامعة المصرية في الماضي.

إننى لا أخفى حزنى وقلقى على ما وصل إليه حال جامعاتنا وهى أمل مصر الثقافى. صحيح أن الدولة تشجع البعثات الخارجية وهذه ظاهرة محمودة وجديرة بالتقدير والثناء، ولكن ليس من الضروري أن تحقق البعثات الخارجية وحدها، الارتباط الثقافى المنشود، لأن طالب البعثة قد لا يكون مواكبا بفكره للتيارات الفكرية المعاصرة، بل إنه قد يسخر منها فى أعماقه. طالب البعثة قد يكون من أنصار التقليد لا التجديد، من أنصار الإغلاق لا الإنفتاح. ودليلنا على ذلك أننا نجد أناسا عادوا من بعثاتهم فى فرنسا وإنجلترا وأمريكا وهم الآن فى مصرنا المعاصرة من أكثر الناس سخرية من العقل والعلم والحضارة.

نعم لابد من انفتاح جامعاتنا على كل تيارات الفكر العالمى. ويقتضى أن هذا الإنفتاح هو الذى يؤدى بطالب الجامعة إلى أن يكون متقفا بكل ما تعنيه كلمة الثقافة من معان ومدلولات ولنضرب مثلا على ذلك من خارج

الجامعة حتى نقيم الدليل على ما نقول به. إن برنامجا واحدا من برامجنا الإذاعية وهو البرنامج الثانى للإذاعة قد أدى وما يزال يؤدي دورا ممتازا خلافا في تكوين معالم شخصية المثقف ثقافة دقيقة ولذلك يعد ظاهرة إيجابية مشرقة يعتز بها المثقفون في سائر أرجاء الوطن العربى. لماذا؟ لأنه قد انفتح على التيارات الفكرية العالمية. وهكذا يجب أن يكون مثالا تحتذيه جامعاتنا إذا أرادت لنفسها دورا قياديا، رياديا.

ويقضى أننا لو قمنا بمراجعة مناهج التعليم في جامعاتنا وحذفنا منها كل الأفكار التقليدية الميتة التى توجد في الكتب الصفراء وغيرها. لو شجعنا الزيارات المتبادلة بين علمائنا وعلماء البلدان الأجنبية. لو اندفعنا بكل قوائنا نحو تشجيع الترجمة والمترجمين، فإن ذلك كله سيؤدي إلى أن تكون جامعاتنا جديرة باسمها، بحيث تحقق الغرض المنشود منها، والمهمة الملقاة على عاتقها، ونعنى بها تخريج المتخصص الأكاديمي والمثقف في نفس الوقت، وبدون ذلك فلن ننتظر من جامعاتنا دورا رائدا وقياديا. لن تبقى من جامعاتنا إلا أسماء، مجرد أسماء. فلنبادر إذن بإنقاذ جامعاتنا حتى تكون اسما على مسمى، حتى يكون لها دورها المنشود في سائر بلداننا العربية من مشرقها إلى مغربها. إنها دعوة من جانبنا نرجو أن تجد صداها في نفوس وعقول المهتمين بجامعاتنا من قريب أو من بعيد.

(٢)

جامعاتنا بين الكم والكيف

"إن إصلاح جامعاتنا العربية لن يبدأ إلا بالتركيز على الكيف دون الكم. فالتركيز حالياً وللأسف الشديد على الكم، والكم فقط. التركيز على الكارثة الكبرى والمصيبة العظمى، الكتاب الجامعي المقرر. لقد أدى ذلك إلى أكثر صور الخلل التي نَجدها الآن في كثير من جامعاتنا العربية، إن لم يكن كلها".

(٢)

جامعاتنا بين الكم والكيف

أعتقد اعتقاداً راسخاً أن جامعاتنا المصرية، على اختلاف كلياتها، لو استمرت بصورتها الراهنة، فإنها سوف لا تحقق الغرض المرجو منها، سوف لا تحقق الأهداف التي من أجلها نسعى إلى التعليم الجامعي، إن لم تكن قد عجزت بالفعل عن تحقيق تلك الأهداف.

لا أقول هذا من جانبي تعبيراً عن التشاؤم، ولكنني أضع في الاعتبار أن كل نوع من أنواع التعليم على اختلاف مراحله، له أغراضه وأهدافه المحددة. كل مرحلة من المراحل التعليمية، لابد أن تؤدي غرضاً واضحاً محدداً ومرسوماً بدقة. فماذا نجد الآن بالنسبة للتعليم الجامعي، أي التعليم الذي يتم في جامعاتنا المصرية؟

أكاد أقول إن التعليم الجامعي بصورته الراهنة، سواء أدى إلى منح الطلاب درجة الليسانس أو البكالوريوس، أو أدى بعد ذلك إلى منحهم درجة الماجستير أو الدكتوراة، يشوبه الكثير من مظاهر الخلل والنقص، تلك المظاهر التي تؤدي بنا إلى القول بأنه بصورته الحالية لا يؤدي الغرض منه من قريب أو من بعيد، إذ أنه لا يختلف كثيراً عن مدارس التعليم العام، سواء تمثل التعليم العام في المدرسة الإعدادية أو المدرسة الثانوية. وإذا استعرنا من المجال الإقتصادي التفرقة بين القطاع العام والقطاع الخاص، فإنه بالإمكان القول بأن كل الفرق الآن بين التعليم العام والتعليم الجامعي يتمثل في أن المدرس في مدارس التعليم العام يقرر على الطلبة كتاب الوزارة (القطاع العام) أما من يشتغل في حقل التعليم الجامعي، فإنه يقرر على الطلبة

كتابه هو (القطاع الخاص). وليت الأمر يقتصر على ذلك، بل إن من يتأمل في دقة وموضوعية المادة العلمية الموجودة في كثير من الكتب والمذكرات التي يقوم البعض بفرضها على الطلاب، فإنه لابد أن يقول بأنها ستؤدي بالطلبة بعد تخرجهم إلى أن يكونوا أنصاف متقفين، أو أشباه متقفين، لأن المادة العلمية الموجودة في كثير من تلك الكتب، تعد جهلا على جهل، ورغم ذلك يقال عنها مادة علمية!!!

إن إصلاح جامعاتنا العربية لن يبدأ إلا بالتركيز على الكيف دون الكم. فالتركيز حاليا وللأسف الشديد على الكم، والكم فقط. وقد أدى ذلك إلى أكثر صور الخلل التي نجدها الآن في كثير من جامعاتنا العربية إن لم يكن كلها. إن التركيز على الكم دون الكيف، والولع بالتوسع الأفقى دون الرأسى قد أدى إلى ضعف مستوى الخريجين ضعفا واضحا ظاهرا. أدى إلى انتشار بدعة الدروس الخصوصية وما تؤدي إليه من انحرافات ظاهرة وانحرافات خفية، وما خفى كان أعظم وليصدقنى القارئ إذا قلت له إننا عندما كنا طلابا بالجامعة لم نسمع إطلاقا عن الدروس الخصوصية ولم نسمع إطلاقا عما يسمى بالكتاب الجامعى، لأن الإهتمام فى الماضى كان بالكيف دون الكم. إن التوسع الذى نجده الآن فى جامعاتنا، يمكن أن نقول عنه إنه توسع أفقى، وليس توسعا رأسيا. نعم إنه يعد توسعا أفقيا، توسعا كميا، بحيث أن الجامعات الآن أصبحت مجرد امتداد للمدرسة الثانوية على الرغم من أن أهداف التعليم الجامعى، تختلف اختلافا رئيسيا عن أهداف التعليم الثانوى قد يقال إن التوسع الأفقى يؤدي إلى زيادة عدد المتقفين فى مجتمعنا المصرى، ولكن هذا القول مردود عليه بأن الإمكانات الحالية سواء أكانت مادية أو بشرية، لا تؤدي إلى تحقيق أهداف التعليم الجامعى وتخرج المتقف ثقافة عميقة ودقيقة مع الزيادة الكمية. إنه لمن الأفضل تخريج عدد محدود من المتقفين ثقافة حقيقية، بدلا من تخريج آلاف مؤلفة كل عام، يحملون شهادات

جامعية في الوقت الذي يجهلون فيه أكثر الأمور التي تتعلق بالتخصصات التي رغبوا في دراستها يوم التحقوا بالجامعة.

لقد وصل التعليم الجامعي عندنا إلى حالة يرثى لها. حشر الآلاف في المدرجات وتكليف أناس لم يصل بعضهم إلى مستوى مقبول، للتدريس لهم، وتقرير كتاب معين عليهم، وهو ما يسمى بمأساة أو ملهاة الكتاب الجامعي. فأين إذن الحياة الجامعية والثقافة الجامعية والتخصص الجامعي؟ هل يكفي لإنشاء جامعة أن نزيل لوحة مكتوب عليها مدرسة ثانوية، ونضع بدلا منها كلمة كلية أو جامعة. هل يكفي لتحقيق أهداف الجامعة أن يقوم معيد في إحدى كلياتنا بتدريس أكثر من عشرة مواد لطلبة قسم واحد وفي عام دراسي واحد؟ ما الفرق إذن بينه وبين مدرس الفصل في المدرسة الابتدائية؟ هل يتحقق المستوى الجيد عن طريق ندب مجموعة من المدرسين والأساتذة للتدريس في العديد من الكليات بمختلف المحافظات بحيث يقضون نصف يومهم في القطارات؟ أين الحياة الجامعية بمعناها الدقيق والتي تتطلب الحوار والنقاش بين الطالب والأستاذ؟ هل ينكر المشرفون على جامعاتنا أنه توجد الآن كليات ليس فيها أستاذ واحد؟. إننا إذا أردنا التوسع الكمي فلا بد إذن ألا يطغى الكم على الكيف، وإذا استمرت الزيادة في الكم على حساب الكيف فستصبح جامعاتنا فعلا في خبر كان، إن صحت هذه العبارة. لا بد من زيادة الإمكانيات المادية لجامعاتنا ولا بد أيضا من الاستفادة بالطاقات البشرية المعطلة. فلمصلحة من تقف بعض جامعاتنا عقبة في سبيل الاستفادة من أناس حصلوا على الماجستير والدكتوراة وهم الآن خارج الجامعة، أي خارج مهنة التدريس بالجامعة. أعرف دارسة حصلت على الماجستير بأعلى درجاته، وفي موضوع غاية في الأهمية والصعوبة، ورغم ذلك تقف الكلية الإقليمية التي حصلت منها على الماجستير ضد الاستفادة منها في التدريس دون تقديم مبرر علمي أو موضوعي واحد، ألا يعد هذا عقابا لطلاب الدراسات العليا؟ لقد رفضت الكلية حتى مجرد قيامها باستكمال دراستها للدكتوراة وكأن الكلية قد دخلت في معركة ضدها، وهذا من مصائب الزمان.

لابد أيضا من النظر نظرة جديدة إلى موضوع الإعارات إن الوطن الذى أعطى لابن من أبنائه درجة الدكتوراة ، فإن من واجب هذا المواطن أن يفيد أبناء الوطن. إن النظام الحالى يسمح بالإعارة لمدة عشر سنوات بالإضافة إلى نظام الأستاذ الزائر لمدة ثلاثة شهور كل عام!!! فهل يستفيد الطلبة من مثل هذا الأستاذ؟ هل يستفيد الطلبة من الأستاذ الذى أمضى عشر سنوات خارج جامعته ثم أضاف إليها ثلاثة شهور كل عام؟ ورغم ذلك نجد الترقيات الأدبية والمادية والجوائز التشجيعية تعطى لهؤلاء الذين يقضون أكثر من نصف خدمتهم بالجامعة، خارج وطنهم الأم. الله وحده يعلم مدى إخلاصى فى دعوتى للوقوف وقفة موضوعية إزاء نظام الإعارات، وكاتب هذه السطور لم يقبل فى حياته إعارة واحدة إلى أية دولة من دول البترول أو غيرها من الدول.

أما عن الدراسات العليا بجامعاتنا، فالأمر فيها أعجب وأغرب. لن ينصلح حال الدراسات العليا إلا بالعناية أولا بمستوى الخريج، لأن فاقد الشيء لا يعطيه. لن تتقدم الدراسات العليا إلا بتوفير المشرفين الجادين وتشجيعهم تشجيعا أدبيا وماديا، وأيضا تقديم كافة الإمكانيات من معامل وكتب أمام طلاب البحث ونشر بحوثهم التى أفنوا حياتهم من أجلها. لابد من التدقيق فى اختيار الموضوعات التى تصلح لدرجات الماجستير والدكتوراة، إذ على الرغم من أن اللائحة الحالية تشترط فى موضوعات رسائل الدكتوراة بصفة خاصة أن تكون موضوعات جديدة وأصيلة، فإن ما نجده حاليا بالنسبة لأكثر الرسائل لا يخرج عن كونه مجرد تلخيصات لا فائدة منها لمجموعة من الكتب القديمة. فأين الجديد إذن؟ هل انتشرت عدوى الكتب الجامعية بحيث وصلت إلى رسائل الماجستير والدكتوراة؟ صحيح أن الجامعة ورجالها يبذلون كل جهدهم وطاقتهم فى سبيل بحوثهم وطلابهم ولكننا نطمع فى المزيد حتى تتحقق كل الأهداف التى من أجلها تقوم الجامعات.

(٣)

النظرة النقدية لمناهج تدريس الفلسفة بالجامعات

"لابد من التأكيد على القول بأننا داخل مناهج الفلسفة لا نستطيع التقدم إذا نظرنا إلى التراث قديما من خلال قوالب ضيقة متحجرة. نعم لن يكون بإمكاننا السعى نحو الأمام حتى لو ملأنا أرجاء العالم كله صراخا وضجيجا. فليست العبرة بالفهم الضيق، ولكن العبرة أساسا بالفهم المتفتح والإيمان بمبدأ الإجتهد والتأويل".

(٣)

النظرة النقدية لمناهج تدريس الفلسفة بالجامعات

يبدو لنا أن مناهج الدراسات الفلسفية في جامعاتنا المصرية تحتاج إلى كثير من التعديلات، ومنها تعديلات جوهرية وذلك حتى يمكن أن تكون وسيلة لخدمة مجتمعنا الذى نعيش فيه.

وسنحاول فى هذه الدراسة الموجزة التركيز بصفة خاصة على مناهج الفكر الفلسفى وبيان مدى ملاءمتها لمجتمعنا مع عرض الإقتراحات التى يمكن أن تؤدى إلى تطوير هذه المناهج، تطورا نحو الأفضل والأكمل.

ونود أن نشير إلى أن علماء التربية على اتفاق فى أن المنهج يعد وسيلة لا غاية ومن هذا المنطلق يجب أن يكون تصورنا لأى منهج من المناهج المختلفة المتعددة، ومن هذه المناهج، المناهج الخاصة بالفكر الفلسفى. ومما لاشك فيه أن أهم غاية من غايات التعليم والتربية، هى إعداد الفرد للحياة فى حاضرها ومستقبلها وتنمية قدراته على مواجهة مشكلاتها والمساهمة النافعة فيها.

وإذا وضعنا نصب أعيننا هذه الجوانب والإعتبارات، فإننا نعتقد أن المناهج الحالية فى حاجة إلى الكثير من التعديلات والتطويرات والتغييرات، بحيث تكون نابعة أساسا من كيفية تصورنا لما ينبغى أن يكون عليه مجتمعنا الإسلامى، وذلك حتى لا تكون مناهج الدراسات الفلسفية بمعزل عن واقعنا المصرى المعاصر، بل ينبغى أن تواكب تيارات العصر.

وسنعرض فيما يلي لمجموعة من الإقتراحات الخاصة بهذه المناهج
مناهج الفكر الفلسفى، وستتضح لنا مواضع القصور فى أكثر المناهج الحالية
لجامعاتنا المصرية وكيف يمكن تلافى هذه الأوجه من أوجه القصور.
نقول إن من أوجب واجباتنا، الإهتمام بالتركيز على تنمية البعد النقدى
عند الدارسين للفلسفة.

إننا إذا نمينا الجانب النقدى فستكون لدى الدارس القدرة على نقد ما
يراه من آراء باطلة وعدم الوقوع أسيرا لبريقها. إن العالم تسوده الآن آراء
باطلة وهدامة ويجب علينا أن ننمى لدى شبابنا المصرى القدرة على التحليل
والموازنة والإجتهد. وفى اعتقادى أننا إذا اهتمنا بهذه الجوانب، فسوف نجد
أن شباب المستقبل سيكون أفضل من شباب اليوم. سنجد أن الشباب لديه
القدرة على الرد على الآراء التى تعد بعيدة تماما عن العقل ولصيقة بالهوى
والتعصب.

يضاف إلى ذلك أنه لابد من التركيز على الجانب العقلى. وهذا
الجانب يرتبط بالجانب السابق، ونعنى به أنه من الضرورى الإعتماد على
التفسيرات العقلية بحيث تكون تلك التفسيرات مدعمة للجانب العلمى. إننا
فى أشد الحاجة إلى هذا الجانب حتى ينظر الدارس إلى تراثه الفكرى نظرة
إكبار وإجلال واحترام فلو رجعنا إلى بعض كتب التراث، لوجدنا أن بها
أحيانا تفسيرات غير عقلية، بل بعيدة عن واقعنا الذى نحياه، ولا يمكن أن
تكون مؤدية إلى مجتمع أفضل. ولنا فى أسلافنا قدوة حسنة. لقد تمسك
أسلافنا بالعقل وذلك حين نادوا بالإجتهد إننا من خلال دروس كثيرة يمكننا
التمييز بين ما يعتمد على العقل وبين ما لا يعتمد على العقل ولو ركزنا
على هذا الجانب تركيزا كبيرا فإننا نكون قد أعدنا ثقة شبابنا وطلابنا
بتراثهم العظيم الخالد.

ونستطيع من خلال مناهج الفكر العربي المتعددة. أن ننمى هذا الجانب العقلي اقترح على سبيل المثال حين نقوم بدراسة أفكار اعتمدت على الجانب العقلي إبراز المجهود الذى بذله القائلون بهذه الأفكار ومدى حاجة مجتمعاتنا العربية إلى هذه الأفكار بحيث نبرز لهم أن مجتمعاتنا العربية ستأخذ فى التقدم إذا تمسكت بهذه الأفكار، وأن شيوع الأفكار الخرافية واللاعقلية، سيؤدى على العكس من ذلك إلى تأخر مجتمعاتنا العربية، ولا نعدم فى مناهجنا الحالية الكثير من المواضع التى يمكن أن تكون مجالا للتمسك بالجانب العقلى. ونود الآن أن نطرح من جانبنا العديد من القضايا والمشكلات التفصيلية ونعرض لمجموعة من التصورات والتى تدور أساسا حول مناهج الدراسات الفلسفية حتى يمكن أن نجد فيها تمسكا بالطريق العقلانى وحتى لا يتم الإغتراب عن العقل وأحكامه وخصائصه.

فالدارس لتاريخ الفلسفة العربية يجد التزاما من جانب كثير من الممثلين للفلسفة العربية بالعقل وخصائصه وأبعاده.

صحيح أننا لا نجد عند بعض من يدخلون فى إطار الفلسفة العربية التزاما بالبعد العقلانى، ولكن الصحيح أيضا أننا نجد أفرادا كثيرين يمثلون بعض الفرق الإسلامية بالإضافة إلى أكثر فلاسفة العرب، نقول نجد عندهم دعوة إلى إعلاء كلمة العقل نجد عندهم تقديسا للعقل وما يدعو إليه من آراء.

ويمكن القول بأننا إذا كنا ندخل فى دائرة الفلسفة العربية من نسميهم بمتكلمي الإسلام كالمعتزلة والأشاعرة، ومن نطلق عليهم فلاسفة العرب ابتداء من الكندى فى المشرق العربى وانتهاء بابن رشد فى المغرب العربى، ومن يعبرون عن الطريق الذوقى الوجدانى أى الصوفية سواء مثلوا التصوف السنى أو مثلوا التصوف الفلسفى. نقول إذا كانت دائرة الفلسفة العربية يدخل فى إطارها المتكلمون والفلاسفة والصوفية فإننا لا نجد موقف هؤلاء جميعا من العقل يعد موقفا واحدا، بل يمكن القول بأن موقف الممثلين للدائرة

الكلامية، غير موقف المعبرين عن الإتجاه الفلسفى، وبالتالي موقف كل من الفريقين يختلف عن موقف الصوفية، وليس هذا فحسب بل أننا نجد داخل الإتجاه الواحد كالاتجاه الكلامى أكثر من فرقة من الفرق الإسلامية وموقف كل فرقة من هذه الفرق من العقل يتراوح بين التأييد بكل قوة والتأييد بنوع من التحفظ يصل أحيانا إلى درجة التقليل والتشكيك فى قدرة العقل.

وإذا استعرضنا أمامنا آراء الممثلين لكل دائرة من الدوائر الثلاث التى تدخل بدورها فى دائرة الفلسفة العربية بمعناها الواسع فإننا نجد المعتزلة من جهة والفلاسفة من جهة أخرى هم من بين الممثلين للفلسفة العربية الأكثر تأييدا للعقل والأكثر ذهابا إلى أن العقل هو المعيار، وهو الحكم، هو الدليل والمرشد.

وأعتقد من جانبى بأننا إذا وضعنا فى اعتبارنا واقعنا العربى المعاصر وما نتحدث عنه من قضايا ومن بينها قضية التجديد، قضية الأصالة والمعاصرة، قضية التراث بوجه عام فإن الإتجاه العقلى عند الفلاسفة يعد أكثر فائدة لنا من الإتجاه العقلى عند المعتزلة - لقد غلب على المعتزلة إثارة مجموعة من القضايا التى يغلب عليها الطابع اللفظى، أى تعد بعض مباحثهم كلاما فى كلام، بالإضافة إلى أننا لا يمكن أن ننسى أنهم حاربوا خصومهم فى رأى بشدة وعنف بل وصل بهم الحال إلى أن ينظروا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر نظرة غير موضوعية.

لقد بلوروا هذا الأصل الخامس الذى يعد أساسا أصلا عمليا وليس أصلا نظريا وهذا يقلل من قيمة النظرية الفلسفية العقلية، أقول لقد بلوروا هذا الأصل حول آراء تتفق مع أقوالهم (المعروف) وآراء لا تتفق مع أقوالهم (المنكر). لقد اتجهوا إلى التعصب والعقلانى لا يتعصب لرأيه بأى صورة من الصور وهل يمكن أن ننسى ما حدث بالنسبة لمشكلة خلق القرآن، هل نجد مفكرا عقلانيا قديما كان أو معاصرا يستطيع الجمع بين العقلانية من جهة،

والتعصب من جهة أخرى، إن التعصب لا يأتي إلا من معسكر اللامعقول - ولا يدلنا إلا على ضيق الأفق بل البلادة في الفهم. هذا جانب لا بد من التركيز عليه في مناهجنا الفلسفية.

وإذا قيل بأن المعتزلة اتجهوا إلى العقل فهذا صحيح ولكنهم إلى حد كبير جدا قد حصروا العقل في دائرة تأويل الآيات القرآنية، وإذا رجعنا إلى معجم من المعاجم الفلسفية فلن نجد من معاني المذهب العقلي، قصر استخدام العقل على تأويل النص الديني.

ومهما يكن من أمر فهم أفضل فرقة كلامية. وإذا أثرنا مجموعة من الأسئلة تدور حول الربط بين الماضي والحاضر، تدور حول ما يمكن أن نأخذه من التراث فإننا سنجد مجموعة من الحلول والإجابات على هذه الأسئلة في تراث المعتزلة في حين أننا نقول لبقية الفرق الإسلامية ودائما لقد أدت دورا في الماضي، الماضي البعيد، وليس من الضروري أن يكون لكم دور، أي دور في حاضرتنا أو في مستقبلنا.

ونود أن نقف وقفة قصيرة عند أصل من أصول المعتزلة وهو أصل العدل وذلك حتى يتسنى لنا الربط بعد ذلك بين دور العقل في تراثنا الماضي وبين الإحتكام إلى العقل في حياتنا المعاصرة كما سنقف من خلال حديثنا عن التأويل وقفة قصيرة عند ابن رشد.

لقد بحث المعتزلة في أصل العدل بحثا دقيقا مستفيضا ويمكن القول بأن هذا الأصل يعد من أهم الأصول التي بحثوا فيها والتي فرعوا عنها مجموعة من الفروع الهامة.

لقد تفرع عن أصل العدل ذهاب المعتزلة إلى القول بحرية الإرادة وذهابهم إلى القول بالحسن والقبيح العقليين كما قالوا بالصلاح والأصلح إلى آخر تلك الآراء والأفكار والنظريات التي تحتل أهمية كبيرة ليس عند المعتزلة فحسب بل في فكرنا العربي.

إنَّ المعتزلة حين قالوا بأصول خمسة وهى التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد ركزوا كثيرا وتركوا الكثير من الدراسات والكتب والرسائل حول الأصل الأول والأصل الثانى من هذه الأصول الخمسة ولذلك يقال عن المعتزلة إنهم أهل العدل والتوحيد.

بالإضافة إلى أن الأصول الثلاثة الأخرى إنما يرتبط بعضها بأصل العدل الذى يعد أهم أصولهم كما سبق أن قلت، فالأصل الثالث وهو الوعد والوعيد يعد متفرعا إلى حد كبير عن أصل العدل عندهم إذ أن الثواب (الوعد) والعقاب (الوعيد) يترتب على القول بعدالة الله سبحانه وتعالى ويترتب على القول بحرية الإرادة وقد سبق أن أشرت إلى أن القول بحرية الإرادة يعد بدوره متفرعا عن أصل العدل عندهم.

لقد ذهب المعتزلة فى دراستهم لأصل العدل إلى القول بأن الإنسان يعد مخيرا لا مجبرا ومن أجل ذلك نجدهم يقومون بالرد على الحجج التى قدمها الجبرية أو الجهمية أتباع جهم بن صفوان وأرسلوا الوفود لمناظرة جهم وأصحابه من القائلين بالجبر وأن الإنسان لا يعد حرا بأى وجه من الوجوه.. هذه دعوة تفيدنا إذا ركزنا عليها فى مناهج الفلسفة بمدارسنا وجامعاتنا.

قلنا إنَّ المعتزلة قد اتجهوا إلى حد كبير اتجاها عقليا، وذلك على الرغم من فهمهم القاصر فى بعض الأحيان لما تعنيه كلمة العقل ولما يعنيه الإتجاه أو المذهب العقلانى.

ونود الإشارة إلى أننا نلاحظ أن درجة الإقتراب أو الابتعاد من العقل إنما يحددها مدى التزام المفكر أو ابتعاده عن التأويل.

وسنقف وقفة قصيرة عند فلسفة ابن رشد نظرا لأننا نعتقد من جانبنا إذا أردنا الربط بين الماضى والحاضر والمستقبل فلا مفر من الإعتماد على

التأويل وإذا قلنا للعقل وداعا. فمعنى هذا أننا سنجد مناهج الفلسفة وكأنه لا فائدة منها في حياتنا الحاضرة أو المستقبلية.

يذهب ابن رشد في مجال دفاعه عن التأويل والقياس العقلي إلى أن طباع الناس متصلة. فمنهم من يصدق بالبرهان، ومنهم من يصدق بالأقوال الجدلية تصديق صاحب البرهان، إذ ليس في طباعه أكثر من ذلك، ومنهم من يصدق بالأقوال الخطابية تصديق صاحب البرهان بالأقوال البرهانية.

وهكذا يتبين لنا كيف أن ابن رشد كواحد من الفلاسفة كان يدعو إلى تأويل الظاهر واللجوء إلى القياس العقلي، محددا لنا معنى التأويل وشروطه وقواعده، هذا جانب لا بد من التركيز عليه في مناهجنا الفلسفية.

إحياء التراث على أساس العقل يعد واجبا علينا إذن إذا أردنا أن نجد فلاسفة في عالمنا العربي الإسلامي بعد انقطاع طال واستمر ثمانية قرون ومهما يكن من أمر فإن إنشاء أول قسم للفلسفة وهو قسم الفلسفة بآداب القاهرة يرجع إلى نصف قرن تقريبا ونصف قرن لا يكفي لأن يكون لدينا فيلسوف من الفلاسفة.

لا بد في مناهج الفلسفة وحين القيام بإحياء التراث، من خلع مفهومات جديدة على أفكار فلاسفتنا ومن هنا فإننا يمكن أن نأخذ منهم الطريق أو المنهج وليس من الضروري أن نأخذ منهم المشكلات التي بحثوا فيها وخاصة إذا كانت مشكلاتنا تاريخية مرتبطة بزمان معين أو مكان معين، نأخذ منهج المنهج العقلي وعلى أساس هذا المنهج العقلي نبحث في مشكلاتنا.

وإذا تساءلنا عن أهمية وضرورة الفلسفة في عالمنا العربي الإسلامي فإننا نستطيع القول بأنها من ألزم الأشياء لنا. فمهما تقدم العلم فلن يستغنى عالمنا العربي عن الفلسفة العربية وعن فلاسفة عرب يمثلون دور الرواد

والمعبرين عن حضارة عصرنا. فلاسفة يتأثرون بقيم الإسلام وما أعظمها من قيم يجد فيها الدارس عمقا وأصالة ويستفيد منها في بلورة أفكار مذهبه.

الحاضر إذن - إذا التزمنا بالدقة والموضوعية - لا يوجد فيه فلسفة

دقيقة ولا يوجد فيه فلاسفة، فما هو الحال بالنسبة لمستقبل الفلسفة العربية؟

سؤال يتردد كثيراً ومن جانبي أقول إننا لو التزمنا بإحياء التراث

وتقدمنا خطوة أو خطوات نحو مشكلة الأصالة والمعاصرة فقد نجد في

المستقبل فيلسوفاً أو أكثر من فيلسوف وإذا كان هذا يعد أمراً صعباً إلا أنه يعد

واجباً علينا للأهمية الكبرى للفلسفة والفلاسفة، إن ماضى الفلسفة كان مزدهراً

وحاضراً الآن - يعد مظلماً تماماً. ومستقبلها قد يكون مشرقاً إذا تجاوزنا

الأسباب التي أدت إلى انهيارها في الحاضر وهذه الأسباب منها ما أشرنا

إليه، ومنها ما فضلنا أن نسكت عنه ونخفيه وما خفى كان أعظم، ولكن أملنا

أن نجد فلاسفة في عالمنا العربى في مستقبل أيامنا نظراً لأننا لا نستطيع

الإستغناء عن الفلسفة العربية في تكوين شخصيتنا المصرية.

ونود في آخر دراستنا أن نشير إلى مجموعة من النقاط والعناصر

والتي تدور حول الدفاع عن الفلسفة وسنركز على بيان مدى ارتباط وظيفة

الفلسفة بواقعنا المصرى المعاصر وذلك من خلال تحديد معنى الفلسفة من

جهة، وخصائص التفكير من جهة ثانية، والربط بين إجابيات ماضى تراثنا

وما نحتاج إليه في حياتنا المعاصرة من جهة ثالثة.

نود أن نشير إلى أن الفلسفة لا تعد كما يزعم الكثيرون بعيدة عن

الحياة والمجتمع. فالفيلسوف لا يعيش في برج عاجى كما يظن خطأ. وكل

فيلسوف ترك لنا مذهباً فلسفياً إنما كان متأثراً ومعبراً عن الواقع الذى يعيش

فيه وفى نفس الوقت كان قائلاً بأفكار خلاقة مبدعة تتير للإنسان طريقه

وتؤدى وظيفة اجتماعية محددة. فأغلب الثورات الإقتصادية والسياسية إنما

قامت على أساس أفكار فلسفية محددة وكل تغيير أو إصلاح جذرى إنما يتم بناء على الإيمان بفكرة من الأفكار الفلسفية.

ومن هنا يمكن القول بأن للفلسفة وظيفة اجتماعية أى لها بعدها الاجتماعى وما يرتبط به من بعد سياسى.

وإذا قلنا ببساطة شديدة إن الفلسفة تعنى البحث عن حقيقة الأشياء وتجاوز ظاهر الشئ إلى البحث والتتقيب عما وراء هذا الظاهر. إذا قلنا إن الفلسفة لا تكتفى بقراءة السطور، بل تبحث فيما بين السطور، فإنه بناء على ذلك يمكن القول بأن الفلسفة لها وظيفتها التحليلية ووظيفتها التركيبية.

ونود الآن أن نشير بإيجاز ووضوح إلى الفرق بين الوظيفتين حتى يتسنى لنا إدراك صلة الفلسفة بواقعنا العربى.

فبالنسبة للوظيفة التحليلية لا يخفى علينا أن الفلسفة تؤمن بهذه الوظيفة سواء فى ميدان العلوم أو فى حياتنا اليومية، والدليل على ارتباط هذه الوظيفة بالجانب الخاص بميدان العلوم أننا نجد فلاسفة وعلماء فى نفس الوقت كنيوتن ورسيل، وأينشتين. والدليل على ارتباط هذه الوظيفة بحياتنا اليومية أننا حينما نقول إن النار قد أدت إلى إحراق مسكن من المساكن فمعنى هذا أننا نؤمن بوجود سبب ومسبب أى سبب وراء كل ما يحدث من ظواهر فى حياتنا اليومية.

هذا عن الوظيفة التحليلية، أما الوظيفة التركيبية فإنها تعنى أساسا إقامة بناء تركيبى للكون والإنسان وتبين العلاقة بين الكون المادى من جهة والإنسان من جهة أخرى ووجه التفاعل بينهما، كما أن الفلسفة بمقتضى وظيفتها التركيبية تبحث فى مشكلات عديدة من بينها هل نجد للحياة هدفا أم لا؟ وما معنى الحياة؟ وهل هناك ضرورة لوجودنا على ظهر الأرض؟ وما معنى التشاؤم؟ وما معنى التفاؤل؟ وما معبرنا بعد الموت، وهل نحن أحرار أم نحن مجبرون لا حول لنا ولا قوة، هل تخضع أخلاقنا للأنانية أم أنها

تسودها الغيرية وحب الخير للآخرين إلى آخر تلك التساؤلات والمشكلات التي تبحث فيها الفلسفة.

والم تأمل في واقعنا العربي المعاصر، واقعنا الذي نعيشه ونحياه، يلاحظ أن واقعنا في واد، والفلسفة في واد آخر، وهذا لا يعد تقصيرا من جانب الفلسفة، بل التقصير من جانبنا نحن، فإذا قلنا إن الفلسفة تهتم بالبحث فيما وراء الظاهر، تهتم بالبحث في حقيقة الأشياء إلا أننا في حياتنا نميل إلى السطحية وعدم التعمق. ويغلب على كثير من كتابنا حين يتناولون بالدراسة والبحث في أية مشكلة من المشكلات، الميل إلى عدم التعمق، الميل إلى عدم الإحاطة بكل جوانب الموضوع الذي يبحثون فيه.

يضاف إلى ذلك انتشار التفكير الخرافي في حياتنا الاجتماعية وواقعنا الذي نعيش فيه ونحياه، إن مساحة اللامعقول في عالمنا العربي المعاصر تعد أضعاف أضعاف مساحة المعقول. وللأسف الشديد نجد أناسا من المشهورين كتابا أو متحدثين هم الذين يدعون إلى الخرافة واللامعقول، ونظرا لشهرتهم إعلاميا فإن الناس بالتالي تصدقهم في أقوالهم، في حين أن الشهرة عمياء، وليس من الضروري للشخص المشهور أن يكون كلامه صوابا.

إننا لو حكمنا العقل في حياتنا، العقل الذي على أساسه تقوم أكثر المذاهب الفلسفية فإن أحوال مجتمعاتنا ستكون على أحسن صورة ممكنة بحيث تلحق بركب الحضارة.

إن الفلسفة كأى علم من العلوم، كأى فن من الفنون لها خصائصها والتي بدونها لا يعد الفكر فكرا فلسفيا. وللأسف الشديد لا نجد صدى لهذه الخصائص في حياتنا الفكرية وفي واقعنا الاجتماعي. والقارئ لا بد أن يدرك صدق ما نقوله إذا عرف أن من خصائص الفكر الفلسفي، الإستقلال بمعنى عدم تقليد أفكار الآخرين، والتفكير الهادئ المتزن الذي يبعدنا عن

التعصب، أيضا المرونة بمعنى أن الإنسان يجب ألا يتردد في التخلي عن آراء يعتقد بها إذا تبين له أنها ليست صحيحة.

وإذا أردنا أن نبين أهمية النقد كخاصية من أهم خصائص الفكر الفلسفي في حياتنا وواقعنا الإجتماعي وربطها بمناهجنا الفلسفية قلنا إن النقد يعنى فتح باب الإجتهد فى كل ما يعرض لنا من قضايا، النقد يمثل الحركة لا السكون والجمود .. إن المعتزلة على سبيل المثال قد حاربوا الجمود والإنغلاق ودعوا إلى الشك الذى يعد خيرا من اليقين الذى لا أساس له. فالشك عندهم يعد ضروريا لكل معرفة وإن أول واجب على المكلف هو الشك بحيث أن النظر العقلى إذا لم يسبقه حالة شك فلا فائدة منه ولا جدوى منه. ومن هنا كان المعتزلة حريصين على التفرقة بين وظيفة العقل من جهة وبين ما تؤدي إليه العادات والتقاليد والقيود الموروثة من جهة أخرى. إن العقل يؤدي إلى الإنفتاح، والعادات والتقاليد تؤدي إلى الإنغلاق إذا كانت عادات نكون فيها مجرد مقلدين لغيرنا دون فهم.

إن التفكير النقدي عند المعتزلة وعند الفلاسفة يمكن أن يفيدنا فى محاربة الخرافات والأوهام التى مازالت للأسف الشديد منتشرة بين كثير من الأفراد.

ولعل الشيخ محمد عبده كان على حق فى دعواته الإصلاحية لأن هذه الدعوات كانت تقوم أساسا على النقد، لقد دعا إلى إصلاح الأزهر فى عصره وذلك بطرق عديدة من بينها المطالبة بإلغاء دراسة الكتب العقيمة كالشروح والحواشى التى يلقتها الشيوخ لمريديهم وطلابهم المغلوب على أمرهم دون فهم. والدعوة إلى إدخال المواد الحديثة فى مناهج التعليم الأزهرى حتى ينفتح طلابه على الحضارة الأوروبية الحديثة. صحيح أن ما دعا إليه محمد عبده كان مجالا للهجوم عليه ولكن هذا الهجوم كان صادرا عن أناس يرتضون الكسل لأنفسهم بحيث أنهم ينفرون من تغيير الأوضاع

التي كانت سائدة، وكلما نفّض الناس عن أنفسهم رداء الكسل وتكون لديهم الحس النقدي كلما ابتعدوا عن الهجوم على التجديد.

والواقع أن أى حركة تجديدية لابد وأن تقوم على العقل والنقد فيكون مصيرها فى النهاية الخلود والإستمرار فطه حسين خالد لحسه النقدي ومحمد عبده خالد لحسه النقدي و هكذا نجد أن العقل أو النقد يعد قادرا على أن يواكب بين الماضى ، والحاضر والمستقبل. هذا ما يجب التركيز عليه فى مناهجنا الفلسفية.

والتيار الفلسفى لكى نجعله مستمرا فلا مناص من الرجوع إلى العقل لكى نواكب تيار الحضارة وعلى أن ندفع بأمتنا العربية إلى الأمام. إن أى فكرة تقليدية تعبر عن التخلف، تعبر عن الرجوع إلى الخلف أو الوراء، وإذا زعم أصحاب الأفكار التقليدية فى مجتمعنا العربى المعاصر أن أفكارهم تؤدى إلى الصعود إلى الأمام فإن حقيقة الأمر أنه يعد صعودا إلى الهاوية.

إن الدارس المحلل لحركة النهضة الأوروبية يجد أن أوروبا لم تتقدم إلا لأنها تمسكت بالنقد، رفعت فلاسفة العقل ومنهم ابن رشد فى أعلى مكانة. أما نحن العرب فقد فضلنا من بين الإتجاهات الفكرية إتجاهات لا تعد إتجاهات عقلية ولا يعد أصحابها فلاسفة كاتجاه الغزالي واتجاه ابن تيمية وغيرهما من إتجاهات تهاجم العقل ولذلك تقدمت أوروبا وتأخر الشرق، تأخر العرب.

إننا لو تأملنا حياتنا الفلسفية اليوم فأعتقد من جانبى أن الإعتقاد بالتساؤم أفضل من الإعتقاد بالتفاوت، لقد أسرفنا فى طبع التراث دون أن نسأل أنفسنا أولاً هل التراث كله يعبر عن العقل أم أن بعضه يعبر عن اللاعقل ومن هنا فلا يؤدى إلى وجود فلاسفة إن إجابتي عن هذا السؤال إذا كانت تدخل فى مجال التساؤم فإن سبب ذلك أننى لا أريد أن أحلق فى سماء الخيال والأحلام، سماء اللامعقول. وأعتقد أن من يقول بغير ذلك هو فرد قد غلبت عليه العاطفة والإنفعال وهما لا صلة لهما بالتفكير الفلسفى من قريب أو من بعيد.

ولكن هذا كله لا يمنع من السعى بكل قوتنا إلى أن نقدم للعالم أيديولوجية عربية عصرية، إيماناً من جانبنا بأن الفكر العربي في حد ذاته يعد فكراً متفتحاً يعد فكراً يمكنه أن يستوعب الكثير من التيارات والإجتهادات. وإذا كان فكرنا العربي يعد فكراً متفتحاً فإنه بالإمكان إذن أن نقيم على أساسه أيديولوجية عصرية نقدمها إلى عالمنا المتحضر شرقاً وغرباً.

ولابد من التأكيد على القول بأننا داخل مناهج الفلسفة لا نستطيع التقدم إذا نظرنا إلى التراث قديماً من خلال قوالب ضيقة متحجرة. نعم لن يكون بإمكاننا السعى نحو الأمام حتى لو ملأنا أرجاء العالم كله صراخاً وضجيجاً فليست العبرة بالفهم الضيق ولكن العبرة أساساً بالفهم المتفتح والإيمان بمبدأ الاجتهاد والتأويل.

لقد ابتعدنا وابتعدنا كثيراً للأسف الشديد عن الدعوة إلى الاجتهاد، الدعوة إلى التأويل، فوصلنا إلى ما وصلنا إليه من حالة يرثى لها، ولن نفيق من تلك الحالة إلا إذا اعتقدنا بأن الخير كل الخير هو في النظرة المتفتحة، النظرة التي تجعل العقل معياراً وأساساً. وكلما ابتعدنا عن العقل، كلما باعدنا بيننا وبين الأمم المتحضرة ووصلنا إلى حالة من التخلف يسودها الظلام من كل جانب.

إننا أمام طريقتين لا ثالث لهما: إما أن نؤمن بالعقل في فهم الدين وهذا فيما أرى، طريق الحق، طريق الصواب، الطريق إلى تقديم أيديولوجية عصرية وإما أن نباعد بيننا وبين العقل، أو نسخر من العقل، وهذا هو طريق الضياع، الطريق المغلق، إننا إذا سخرنا من العقل فسيسخر منا العالم كله ويجعلنا مادة للضحك ونكون نحن بأنفسنا قد تسببنا في ضياعنا وأصبحنا مجالاً للسخرية بين الأمم، أصبحنا - كما قلت - أضحوكة للعالم كله. هذا ما يجب أن ننبه إليه في مناهجنا الفلسفية وهذه هي الرؤية النقدية لمناهجنا الفلسفية. الرؤية التي ستؤدي بنا مستقبلاً إلى أن يكون الحال غير الحال، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ولا يعقلون ولا يدركون.

الفصل السادس: العرب ونماذج من القضايا السياسية (من منظور نقدي)

ويتضمن هذا الفصل العناصر والمجالات التالية:

أولاً: كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة؟

ثانياً: العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسي

ثالثاً: أزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل

رابعاً: هل تسهم الأحزاب في البناء الثقافي؟

خامساً: حرب أكتوبر والرؤية المستقبلية

" الدليل على أن أكثر من يكتبون التاريخ عندنا تغلب عليهم الجوانب الشخصية، أنهم يقولون بآراء حول هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات السياسية، وذلك في أثناء حياتها، ولكنهم سرعان ما يقولون بآراء أخرى تختلف اختلافاً جذرياً عن الآراء الأولى. نعم يقولون بآراء أخرى تتعارض مع آرائهم الأولى، ومن هنا كان ما يكتبونه داخلاً في مجال تصفية الحسابات الشخصية، وإن كان أكثرهم لا يعلمون ولا يعقلون ولا يدركون".

أولاً

كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة ؟

"إن الخلافات فى الرأى بين بعض الكتاب الذين يزعمون
لأنفسهم أنهم من المؤرخين، وهم ليسوا بمؤرخين من قريب أو
من بعيد، تؤدى إلى كتابة التاريخ بطريقة مشوهة، طريقة
عرجاء، طريقة كسيحة".

أولاً:

كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة؟

القارئ والدارس لما يكتب الآن من دراسات فى مجال التاريخ، وخاصة تلك التى تتناول دراسة وتقييم إنجازات بعض الشخصيات السياسية، يجد أن تلك الدراسات لا تعد داخلة فى مجال التاريخ كما ينبغى أن تكون كتابة التاريخ، وخاصة الكتابة عن الشخصيات. إنها أقرب إلى المهارات وتصفية الحساب مع أناس يغلب على أكثرهم أنهم غادروا الحياة الدنيا.

إن الخلافات فى رأى بين بعض الكتاب من جهة وأفكار بعض الزعماء وإنجازاتهم من جهة أخرى، تؤدى إلى كتابة التاريخ بطريقة مشوهة، طريقة ليست داخلة فى التاريخ من قريب أو من بعيد. إن الكاتب يجد الفرصة أمامه لى يقول ما شاء له القول، ويتخيل أشياء مجرد تخيل ليس لها بالواقع أية صلة ويأخذ فى الكتابة ونسبة أشياء لنفسه أو غيره، لم تحدث.

والدليل على أن أكثر من يكتبون التاريخ عندنا تغلب عليهم الجوانب الشخصية، أنهم يقولون بآراء حول هذه الشخصية أو تلك من الشخصيات السياسية وذلك فى أثناء حياتها ولكنهم سرعان ما يقولون بآراء أخرى تختلف عن تلك الآراء الأولى. نعم يقولون بآراء أخرى تتعارض مع آرائهم الأولى ومن هنا كان ما يكتبون داخلاً فى مجال تصفية الحسابات الشخصية.

من العجيب أننا فى عالمنا العربى بالذات، لا نجد التزاماً بالتخصص. فمن السهل جداً أن يزعم أى فرد لنفسه أنه مؤرخ ويكتب فى مجال التاريخ وليس عنده أى معرفة بمنهج البحث التاريخى ولا بالأسس التى على أساسها

يكتب الفرد منا في مجال التاريخ، نعم لا نجد عندنا في مصر أى إلتزام بالتخصص. وما يقال عن مجال التاريخ يقال عن مجالات أخرى مما يدلنا على أننا لا نحترم التخصصات. ويقينى أن تاريخ مصر لو قام بكتابته أناس متخصصون لما وجدنا هذا الخلط وهذا الإضطراب وهذا التشويه وهذا التجريح سواء للوطن من جهة أو للزعماء والحكام من جهة أخرى.

لقد وضعنا هالة كبيرة حول بعض الكتاب وفتحنا لهم أبواب الصحف والإذاعة والتلفزيون وتكلموا كثيراً فاعتقد الناس بأن هؤلاء الناس لابد وأن تكون كتاباتهم في مجال التاريخ كتابات صحيحة، لأنهم موضع الثقة في وسائلنا الإعلامية، في حين أن ما يكتبونه هو مجموعة من المهارات الشخصية. ولو شئنا الصراحة لقلنا إن الصحافة مسئولة عن هذا، لأن الصحافة نادراً ما تلتزم بالرجوع إلى المتخصصين في كل مجال من المجالات ومن بينها مجال التاريخ. إذا شئنا الصراحة لقلنا إن التلفزيون بالذات هو المسئول عن هذه الظاهرة التي يؤسف لها، أى ظاهرة كتابة التاريخ دون التزام بقواعد البحث التاريخي، لأنه سلط الأضواء حول أناس يتكلمون في كل شئ ونادراً ما يفهمون أى شئ، أى لا نجد التزاماً في وسائلنا الإعلامية بالتخصصات وهذا قد انعكس على مجال التاريخ كمجال من المجالات المتخصصة. ولذلك كان شيئاً طبيعياً أن تظهر كتابات يزعم أصحابها أنها كتابات تاريخية وهى ليست من التاريخ في شئ حتى وقع الشباب في حيرة من أمرهم. كل يوم تصدر كتابات من صحفيين وغير صحفيين، من أدباء وغير أدباء حتى عانت مطابعنا من كثرة ما يطبع من كتب يقال عنها إنها كتابات تاريخية وهى مجرد مجموعة من الشائعات والمهارات. ومما ساعد على رواجها وعدم الكشف عما فيها من أخطاء هو أننا في مصر حالياً لا نجد مؤرخين بارزين ومن هنا فإن المشتغلين بالتاريخ عندنا حين يقدمون لنا كتباً فإنها كتب لا تعنى إلا بسرد الحوادث.

إن المشتغلين بالتاريخ عندنا إذا كان لديهم القدرة على إدراك الجزئيات إلا أننا لا نجد عند واحد منهم القدرة على ربط الحوادث بعضها ببعض الآخر، بالإضافة إلى أننا لا نجد عند واحد منهم مذهباً في التاريخ.

وفى تصورنا أننا لو تساءلنا عن كيفية كتابة التاريخ دون تجريح فإن هذا لن يتم إلا بما يلي على سبيل المثال لا الحصر:-

١- ينبغي الالتزام بذكر الروايات المتعارضة دون تشيع. وإذا تشيعنا لرأى فينبغى أن نبين أسباب تشيعنا لهذا الرأى. إن ذكر الروايات المتعارضة يجعل القارئ فى موقف الموازن بين مجموعة من الآراء. أما التركيز على رأى وإهمال بقية الآراء فإن هذا لا يعد التزاماً بمنهج البحث التاريخى.

٢- لابد من الإشارة إلى المراجع والمصادر الموثوق بها إذا أردنا كتابة التاريخ دون تجريح. وإذا كنا نجد الآن كتابات تاريخية هى أقرب إلى التجريح فإن هذا يعد شيئاً متوقعاً لأن من يكتبون تلك الكتابات لا يعتمدون على مصادر ومراجع موثوق بها.

٣- الدقة فى النقل، إذ لا يمكن كتابة التاريخ دون تجريح إلا إذا التزمنا بالدقة فى النقل ومن النادر أن نجد عند من يكتبون فى التاريخ التزاماً بالدقة فى النقل وهذا قد أدى إلى كتابات سطحية مليئة بالأخطاء.

٤- أن ننظر إلى كل خبر نظرة خالية من المحبة والبغض. إذ لا يخفى علينا أن التجريح أساساً إنما يتمثل سببه فى أن أحكامنا على الأحداث التاريخية إنما تكون متأثرة بمحبة شخص ما وبغضنا لشخص آخر، وهذا يدفعنا إلى تجريح ما نبغضه.

٥- ينبغي الالتزام بالشروط الخاصة بالمتواترات فلا يوجد تاريخ دون الاعتماد على المتواترات والعجيب أننا نجد أغلب إن لم يكن كل من يتصدون للتاريخ عندنا فى مصر لا يلتزمون بشروط المتواترات ومن

هنا نجدهم يقعون في أخطاء لا حصر لها. ومما يؤسف له أننا نجد عند الغربيين التزاماً بتلك الشروط ولا نجد ذلك عند العرب بوجه عام. إن الباحثين الغربيين يضعون مقاييس صارمة يحكمون بمقتضاها على كل حادثة من الحوادث التاريخية أما نحن فلا نجد لدينا أى نوع من الإلتزام بتلك الشروط والمقاييس.

٦- ينبغي أن تكون عند المؤرخ نظرة فلسفية. إن المفكر الغربى كروتشى يذهب إلى أن كل من يحمل بحق لقب مؤرخ هو فيلسوف أراد ذلك أم لم يرد. وإذا طبقنا ذلك فإن ذلك يؤدى إلى القول بأننا لا نجد مؤرخاً إطلاقاً في مصر المعاصرة.

٧- البحث التاريخى له مراحل وشروطه. وكل من يتصدى عندنا في مصر لدراسة التاريخ، لا يلتزم بتلك المراحل والشروط. إن مراحل البحث التاريخى تتمثل في مرحلة التجميع ومرحلة النقد ومرحلة التأويل. فهل نلتزم بذلك في دراستنا للأحداث التاريخية وفي أحكامنا على الزعماء والأبطال. الجواب هو كلا. إننا لا نلتزم بتلك الشروط والمراحل والدليل على ذلك أننا نجد عند من يتصدون للدراسات التاريخية فى مصر، ضعفاً فى ملكة النقد.

أقول أخيراً إننا يجب أن نلتزم بتلك الشروط، كما ينبغي أن نرضى ضمائرنا فى حكمنا على الأحداث وفى حكمنا على الأفراد. ولا شك أنه مما يساعد على التخلص من التجريح الذى يلتزم به كثير ممن يتصدون للتاريخ عندنا ، نقول إنه مما يساعد على ذلك أن يكون الدارس مطلعاً اطلاعاً واسعاً. إن هؤلاء الذين يزعمون لأنفسهم أنهم من المؤرخين يجهلون حتى أسماء مؤرخينا العرب من أمثال ابن خلدون والمسعودى وابن شاكر وابن الأثير والبيرونى والقزوينى والخطيب البغدادى والطبرى وابن قتيبة وابن النديم. إنهم يجهلون حتى دراسات الغربيين وفلاسفة التاريخ فى الغرب من أمثال شبنجلر وهيجل وأوجيست كونت والقديس أوغسطين وغيرهم. هذا كله يؤدى بنا إلى القول بأن أكثر كتاباتهم إنما تعد جهلاً على جهل.

ثانياً

العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى

"نحن العرب بين طريقين لا ثالث لهما: إما أن نرتضى لأنفسنا أيديولوجية محددة المعالم للعمل الفكرى والسياسى وهنا يكون التقدم، تكون الحياة، وإما أن ندور حول أنفسنا فى دوائر مغلقة، دوائر ترفض كل فكر عقلى تقدمى بناء، دوائر تسرف فى إصدار أحكام تكفير الإنسان لأخيه الإنسان، وبحيث أصبحت أشد خطراً من محاكم التفتيش، وهنا تكون الرجعية، يكون الصعود إلى الهاوية، وبئس المصير، وإن كان أكثرهم لا يعلمون".

ثانياً

العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى

قرأت بإمعان واهتمام مقال الدكتور عبد الصبور شاهين بعنوان: إسلام... أو قومية على صفحات جريدة الأهرام والذى تفضل فيه بالرد على الأستاذ محمد أحمد خلف الله.

وأبادر بالقول بأننى إذا كنت سأثير مجموعة كبيرة من الاعتراضات على مقال د. عبد الصبور شاهين، فإن ذلك لا يعنى بالضرورة اتفاقى مع الأستاذ محمد أحمد خلف الله. وكم التقينا فى أكثر من حوار أو ندوة (ندوة مجلة المصور على سبيل المثال) واختلفنا فى نقاط كثيرة. ولكننى أجد واجباً على تصحيح كثير من الآراء الخاطئة والتناقضات العديدة التى وقع فيها د. عبد الصبور شاهين فى مقالته المذكورة، بل إن ضمير الكاتب يأبى نغمة السخرية والتهكم، تلك النغمة السائدة فى مقالته كلها من أولها إلى آخرها . إنها نغمة مرفوضة قلباً وقالباً ولكننا للأسف الشديد نجدها فى مقالته: "إسلام أو قومية". ولا يخفى علينا أن الكاتب إذا لجأ إلى السخرية أو التهكم، فإن ذلك قد يكون إحساساً من جانبه بضعف حججه وأنه لا يملك الدفاع عنها بالعقل والدليل المنطقى ومن هنا يلجأ إلى البلاغة والخطابة تارة، والتهكم والسخرية كما قلت تارة أخرى.

وأود أن أقف مع القارئ عند بعض الأمثلة والنماذج التى تكشف عن أخطاء وتناقضات سواء من حيث المنهج أو من حيث الموضوع. أولاً: يشير الكاتب إلى أن مفهوم القومية قد طرح فى لجنة الفكر فى الحزب الوطنى عام ١٩٨٦ وأن رأى قد استقر على أن القومية لا تعدو

أن تكون من منظور الحزب، مجرد إطار تاريخي حديث يربط بين مصر وجيرانها من الشعوب العربية. وإننى أسأل الكاتب قائلًا: ألا يعد ذلك متناقضاً مع الجهد الذى يقوم به الحزب الوطنى فى مجال إعادة العلاقات بين الدول العربية. إننا حين نقول بأيدولوجية العمل السياسى، فإن الأيدولوجية لابد أن تركز على أساس فكرى محدد وثابت وإلا لما كانت أيدولوجية. أليست أقوال كاتب المقالة تؤدى إلى تحميل الحزب الوطنى ما لا يتحملة وتؤدى إلى تأويل خاطئ لفكره. إن الإطار التاريخى - ولعلم كاتب المقالة - يعنى الفكرة التى عفا عليها الزمن، الفكرة التى أصبحت غير مناسبة لعصرنا وأيامنا، وذلك كما نقول مثلاً إن موضوع التوفيق بين الدين والفلسفة قد أصبح موضوعاً تاريخياً. إننى أسأل كاتب المقال هذا السؤال لأنه عضو لجنة الفكر واللجنة الدينية للحزب الوطنى الديمقراطى كما جاء فى آخر المقال.

ثانياً: ألا تعد العروبة جنسية وذلك حين نقول إن فلاناً يعد عربى الجنسية والآخر يعد مثلاً أوروبى الجنسية وهكذا. ألا يمكن أن تقوم أيدولوجية العمل السياسى على فكرة العروبة. وإذا لم تقم على تلك الفكرة فماذا يتبقى لنا إذن كعرب. هل نقول إننا أصبحنا أوروبيين، أصبحنا مواطنين أمريكيين؟؟!! هل استحققت فكرة العروبة هذا النقد من جانب كاتب المقال وذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة. إننا نقول إن حضارتنا عربية، إن فلسفتنا عربية، إن تاريخ العلوم قد أسهم فيه العرب . وإذا كان كثيراً من مفكرينا غير عرب من حيث الأصل، فإنهم يعتبرون عرباً لأنهم عاشوا فى ظل الحضارة العربية وكتبوا أكثر مؤلفاتهم باللغة العربية وينطبق ذلك على الفارابى وعلى ابن سينا... إلى آخر هؤلاء المفكرين.

ثالثاً: ألم يكن أجدر بكاتب المقال أن يميز بين الفكرة أو الدعوة، وتطبيقاتها. فإذا وجدنا أخطاء في التطبيقات (تطبيق فكرة القومية العربية) فهل معنى ذلك أن الفكرة نفسها تعد فكرة خاطئة. من الأمور التي يؤسف لها أن كاتب المقال يذكر أحداثاً تاريخية ويفسرها تفسيراً خاطئاً لأنه لا يفرق بين الأيديولوجية من جهة، والعمل أو التطبيق من جهة أخرى. وبنفس المنطق أرد على الكاتب وأقول: ما رأيك في مقتل الحلاج، ومقتل السهروردي، ومحنة ابن رشد ونفيه، ومحنة القول بخلق القرآن، وحرق آلاف الكتب الفلسفية وغير ذلك من مئات الحوادث المؤسفة، هل أنسبها إلى الإسلام، أم أقول بأنها أفعال أناس فهموا الإسلام فهماً خاطئاً. بل ما رأي كاتب المقال في التجارة بالدين. هل أقول إن السبب في ذلك هو الدين أم هؤلاء الناس من ذوى النفوس الضعيفة والذين أشار إليهم الكندي والغزالي وابن رشد وغيرهم. ولا أريد أن أضع النقاط فوق الحروف أكثر من ذلك لأن القارئ يدرك تماماً ما أعنيه وأقصده.

رابعاً: يقول الكاتب إن الإسلام هو الذى أوجد ما يسمى بالعروبة. والعبارة التى يقول بها كاتب المقال تحتاج إلى تعديل بل تصحيح. إننا نتحدث عن العرب بعد الإسلام ومعنى هذا أننا نجد عرباً قبل الإسلام. وأنصح الكاتب بالرجوع إلى المؤلفات الكبرى التى تتحدث عن العرب قبل الإسلام. أليس هذا أفضل من إلقاء الأحكام المتسرفة.

خامساً: يصف الكاتب دعوة الذين يميزون بين الدين والدولة، بين الدين والسياسة، بأنها تعد إفلاساً فكرياً. هكذا وبهذه البساطة. وكنت انتظر من كاتب المقال مناقشة هذه الفكرة. ألا تحتاج فكرة الفصل بين الدين والدولة إلى مناقشة وسواء اتفقنا معها أم اختلفنا. ألم يكن أجدر بكاتب المقال مناقشة أفكار الخوارج وما فيها من تطرف وبدائية، وبعض

أفكار ابن تيمية والتي قد لا تخلو من سطحية، وذلك رغم بعض أفكاره الأخرى، ومغالطات بعض أقوال أنصار الدولة الدينية. وإذا كان الكاتب يتحدث عن الحضارة العالمية الراهنة، فمن الذى قال له إن الحضارة العالمية الراهنة تقوم على فكرة الدولة الدينية إننا إذا قلنا بأن الغرب يمثل الآن إلى حد كبير جداً فكرة الحضارة العالمية، فهل النظام

السياسى فى الغرب يقوم على الدين؟؟!!

سادساً: يقول الكاتب إن الحل القومى كان هو الحل السعيد فى نظر الإستعمار... وأن الغرب قد اعتبر الإسلام هو عدوه الألد ووجه إليه كل الحروب والمؤامرات منذ الحروب الصليبية فى المشرق وفى الأندلس فى العصور الوسطى إلى مطلع العصر الحديث مع التوسع الإستعماري على حساب تقليص الإسلام وهزيمته لو أمكن. والقارئ لهذه الأقوال والأحكام يتساءل قائلاً: ألا يتحمل العرب والمسلمون جزءاً كبيراً من المسؤولية. ماذا ننتظر من القوى؟ هل نقول له لا بد أن تكون ضعيفاً مثلنا أم أن الأجدى هو أن نقوى أنفسنا حتى نلحق به. إننا الآن وللأسف الشديد نتحدث عن قضايا زائفة، قضايا فكرية وقضايا سياسية. نهاجم علوم الغرب ونصف حضارتهم بالظلام فى حين أن عقليتنا العربية لم تقدم لنا البديل. نقول إن الغرب يهاجم الإسلام والمسلمين ولا نسعى من جانبنا إلى وضع إطار لأيدولوجية العمل السياسى. نقول عن كل مستنير بأنه كافر. لا نتيح للعقلانى جزءاً ولو قليلاً من الفرصة التى تتاح للعقلانى. أصبح الظلام فينا نحن وليس من الغرب. نتوهم وجود غزو ثقافى وكأن الغزو الثقافى أصبحت له جيوشه وبحيث أصبحنا كالدون كيشوت يحارب طواحين الهواء. إن فكرة القومية لا تحتاج إلى هذا الهجوم، لا يصح أن تصدر عليها تلك الأحكام الجائرة المتعسفة

والمتسرعة. وهل العروبة لا تعد هوية للشخص. وإذا كان الكاتب يشير إلى ما يحدث في لبنان فإننا نقول له وبنفس المنطق ومن نفس المنطلق: وماذا فعل المسلمون؟

سابعاً: يشير كاتب مقال: إسلام أو قومية، إلى موضوع الصحوة في الأوطان الإسلامية، وكيف بدأ كثير من غير العرب في أمريكا وأوروبا يدخلون في الدين الإسلامي. لقد قلت لنفسى وأنا أقرأ هذه العبارات أو الأفكار، إن من أسباب تخلفنا وصعودنا إلى الهاوية أننا نهتم بالفروع الجزئية ولا ندخل في لب القضية. ما الصلة بين فكرة القومية كما يذهب كاتب المقال، ودخول مجموعة من الأفراد في الديانة الإسلامية. وإذا كان يقصد أساساً المفكر جارودى فإننى أفضل أن يكون الحديث عن جارودى بينى وبين كاتب المقال، وسيدرك كاتب المقال أبعاداً جديدة تماماً في هذا المجال. ثم إن الحديث عن الصحوة الإسلامية يعد حديثاً خاطئاً فيما أرى من جانبى، فالإسلام ثابت ومستمر منذ وجد وإلى انتهاء الخليقة. والعيب ليس في الإسلام، ولكن العيب في التفسيرات الخاطئة للإسلام. ورحم الله الشيخ محمد عبده حينما تحدث عن مسلمين بلا إسلام وإسلام بلا مسلمين. لقد تحدث عنهم حينما قارن أفعال غير المسلمين في أوروبا وأفعال المسلمين في بلاد إسلامية. هل نوجه اهتمامنا إلى مجموعة أفراد أو مجموعة منات أو آلاف يدخلون في الدين الإسلامي ولا نهتم بنفس القدر من الإهتمام بالبحث في قضايا فكرية وسياسية تعد على جانب كبير من الأهمية لأنها قضايا مصيرية ومن بينها: لماذا تخلف العرب الآن بعد أن كانوا سادة في الماضى؟ ما موقفنا من قضية الأصالة والمعاصرة؟ ما موقفنا من بعض الخرافات التى قد توجد في بعض كتب التراث؟ ما هي أبعاد أيديولوجية العمل السياسى المشترك بين كل الدول العربية؟ لماذا توجه بعض الدول ذات الثراء الكبير، جزءاً من أموالها لحماية الفكر الرجعى التقليدى وشن الحرب على الأنظمة التقدمية والعقلانية والتي تسعى إلى النور وتدعيم التنوير

وتحارب الظلام، تحارب كل نوع من أنواع الإرهاب الفكرى. هل من المعقول ونحن في عصر الصراعات الكبرى أن نهتم بأن جنياً قد أشهر إسلامه على يد أحد الوعاظ في إحدى البلدان الإسلامية، وكيف أن الوعاظ طلب من الجنى إشهار إسلامه فاقتنع الجنى الذى تلبس جسد فتاة (إحدى جرائدنا اليومية نقلاً عن صحيفة تصدر فى بلدة إسلامية بتاريخ ١٧/٤/١٩٨٧). إن العرب إذا كانوا فى الماضى قد تركوا لنا ثماراً فكرية، فإن ذلك لم يتحقق لهم إلا بعد استفادتهم من الأمم الأخرى وإلا كيف نبرر عدم وجود علوم عربية وفلسفة عربية إلا ابتداء من العصر العباسى. وهكذا إلى آخر الأمثلة. هذه كلها أمور وقضايا ومشكلات ينبغى علينا مواجهتها والبحث فيها. ونحن العرب بين طريقين لا ثالث لهما: إما أن نرتضى لأنفسنا أيديولوجية محددة المعالم الفكرية للعمل السياسى و هنا يكون التقدم، تكون الحياة. وإما أن ندور حول أنفسنا فى دوائر مغلقة، دوائر ترفض كل فكر عقلى تقدمى بناء، دوائر تسرف فى إصدار أحكام تكفير الإنسان لأخيه الإنسان، وبحيث أصبحت أشد خطراً من محاكم التفتيش، وهنا تكون الرجعية، يكون الفناء، يكون الصعود إلى الهاوية وبئس المصير.

ثالثاً

أزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل

"إذا كنا نشكو من وجود دعوات خبيثة وتيارات تسعى إلى إيجاد الوقيعة بين العرب، فإننا من جانبنا كعرب خلال أزمة الخليج وما قبلها وما بعدها قد قدمنا لتلك الدعوات كل مساعدة ممكنة، بطريق مباشر تارة، وطريق غير مباشر تارة أخرى. قدمنا لها الوقود الذي تستعين به في زيادة إشعال النار".

ثالثاً

أزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل

إن صح تقديرى فإن أزمة الخليج سوف تتجاوز أبعادها أيامنا الحاضرة حتى تؤثر تأثيراً كبيراً فى مستقبل الأمة العربية. ومن الأمور التى يؤسف لها أن تتقاتل دولتان قتالاً رهيباً وتطلب دولة منهما العون من بلدان غربية بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك فى الوقت الذى يشكو فيه العرب من سطوة الغرب ومن الدول الإستعمارية، بل يجاوزون ذلك إلى الحديث عما يسمونه "الغزو الثقافى".

إننى أعتقد من جانبى اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك، أن مستقبل الأمة العربية بعد أحداث غزو الخليج سيكون مظلماً تماماً، وأكثر انهياراً مما نجده فى حاضر أيامنا. فهذه الأزمة لم تكن مجرد حدث عابر لا يترك إلا بصمات من السهل إزالتها والتخلص منها والقضاء عليها، بل إنه ترك آثاراً رهيبة ستظل تحدث أثرها فى العلاقات بين الشعوب العربية بصفة خاصة. وإذا رجعنا إلى تاريخ الشعوب والأمم، فإننا نجد الأبعاد الإعلامية والثقافية والدينية تترك آثاراً أشد بكثير من الآثار السياسية. أقول هذا لكى أنبه الأذهان إلى أننا يجب ألا نخدع بمجموعة من اللقاءات السياسية التى تحدث فى الحاضر وقد تحدث فى المستقبل بين هذا الحاكم أو ذاك من حكام الدول العربية، فإن هذه اللقاءات سوف لا تزيل الجروح الكبيرة والعاهات المستديمة التى حدثت قبيل حرب الخليج وأثناء تلك الحرب، بل امتدت إلى الحاضر الحالى.

ونود أن نسأل سؤالاً محدداً هو: ماذا يريد العرب؟ ما هو تصورهم لمستقبل بلدانهم؟ ما هو موقفهم إزاء التغيرات العالمية الهائلة وخاصة ما يتعلق منها بمستقبل الاتحاد السوفيتي والدور الذي قام به جور باتشوف. من الغريب، بل من المؤسف، أن أكثر بلداننا العربية تتصرف وكأنه ليس على خريطة الدنيا إلا هي وحدها، ولا تضع في الاعتبار أن العالم أصبح قرية صغيرة كما يقول رجال الإعلام، وبحيث أن أي حدث يتم بالنسبة لبلدة من البلدان، فلا بد أن يكون مرتبطاً أو متأثراً ببقية الأحداث التي تنسم في سائر أرجاء الدنيا من قطبها الشمالي إلى قطبها الجنوبي.

لقد تم تعاون بين العراق والكويت أثناء مواجهة إيران. واعتقد حكام بعض البلدان العربية، بأن الخطر كل الخطر إنما سيتمثل في الغزو الفارسي، وبالتالي تم التعاون بين العراق وبين بعض البلدان العربية ومن بينها الكويت على مواجهة هذا الغزو. وكان هذا التعاون متمثلاً بصفة خاصة في المساعدات المالية التي تقدمها الكويت للعراق. وبصرف النظر عن حقيقة الخلاف بين العراق وإيران، ووقفه بعض البلدان العربية مع العراق، فإن هذا على الأقل كان يمثل موقفاً محدداً. أما بعد ذلك فماذا نجد؟ نجد التقارب بين بعض البلدان العربية من جهة، وأمريكا والدول الغربية من جهة أخرى، يمثل ما نجد التباعد، بل القطيعة بين دولة ودولة أخرى من البلدان العربية، وبحيث أصبح الحديث عن التعاون العربي المشترك، الحديث عن جامعة للدول العربية، الحديث عن القومية العربية، أصبح الحديث عن هذه الأبعاد أو المجالات، أو الجوانب، حديثاً لا معنى له، لأن الحديث لابد أن يقوم على موجة مشتركة، كاللغة تماماً، فحين أتحدث مع شخص بلغة لا يفهمها، فإنه سوف لا يكون متابعاً لي، وسوف لا أكون متابعاً له إذا كنت لا أفهم اللغة التي يتحدث بها. نعم أصبح حديثاً لا معنى له، لأنه لا توجد قنوات مشتركة، لا توجد جسور متصلة، بل إن الجسور قد تم هدمها، والحوار قد

أصبح كالحوار بين الطرشان، لا يفهم الواحد منا ما يقوله الآخر، فاللغة غير اللغة.

إننا في عصر لا يفهم غير لغة القوة. هذا من جهة الواقع. ولنعترف بهذا بصراحة وموضوعية. والتغنى بأمجاد العرب في الماضي لن يجعل البلدان العربية في حالة إشفاق عليها من جانب الدول القوية، سواء تمثلت في أمريكا أو تمثلت في بعض البلدان الأوروبية. ولم تقف الدول القوية الغربية ولا أمريكا بجانب الكويت من أجل قيم ومثل عليا، بل وقفت معها رعاية لمصالحها. هذا هو المنطق السائد في العصر الذي نعيش فيه. وإذا لم يتحدد العرب حول هدف واحد مشترك، ورؤية مستقبلية، فإن العرب سيصبحون في خبر كان إن صح هذا التعبير، سيصبحون كالهنود الحمر، رغم أنهم ليسوا هنوداً وليسوا حمراً. قلنا هذا منذ سنوات. ولا نتردد في قوله الآن. وعلى العرب فهم الدرس جيداً وإلا فإنها الكارثة الكبرى والمستقبل المظلم والصعود إلى الهاوية وبئس المصير.

وإذا كنا نشكو من وجود دعوات خبيثة وتيارات تسعى إلى إيجاد الوقيعة بين العرب، فإننا من جانبنا كعرب خلال أزمة الخليج وما قبلها وما بعدها قدمنا لتلك الدعوات كل مساعدة ممكنة بطريق مباشر تارة، وطريق غير مباشر تارة أخرى. قدمنا لها الوقود الذي تستعين به في زيادة إشعال النار. ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء إن العيب قد يكون فينا نحن، وليس من الضروري أن يكون العيب في بلدان أخرى نتصور أنها تقوم بشن الحروب علينا، وبحيث أصبح هذا التصور من جانبنا يماثل تماماً محاربته طواحين الهواء في الدون كيشوت، الرواية الخالدة.

لقد وجدت أمام العرب العديد من الفرص لإثبات مكانتهم الكبرى بين دول العالم، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر، أمجاد الماضي، وثراء بعض البلدان العربية الآن، والمركز الجغرافي، سواء لدول الخليج العربية،

أو بقية البلدان العربية، والثقافة التي تعبر عن رسالة السماء الخالدة (كنتم خير أمة أخرجت للناس)، (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)، بالإضافة إلى المزج الذي تم في الماضي، أي التفاعل بين الثقافة العربية والحضارات الهندية والفارسية واليونانية، وقوة الروابط الاجتماعية بين أبناء الأمة العربية وخاصة في الماضي، وسواء تمثلت تلك الروابط في تاريخ الأمة العربية، من حيث واقعها، أو تمثلت في الآيات والأحاديث النبوية، كقوليه تعالى (المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض)، (إنما المؤمنون إخوة) وقول الرسول (ص) (المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسلمه ولا يخذله).

هذه الجوانب كلها سواء تمثلت في الماضي، أو تمثلت في حاضر الأمة العربية قبل أحداث الخليج، تجعل الفرد منا يتأمل في حسرة وألم أحوال ومصير البلدان العربية مستقبلا.

وإذا قيل بأن حرب الخليج قد أدت إلى خروج النظام العربى عن النظام العربى ، بمعنى أن النظام العربى قد أصبح مرتبطا ارتباطا شديدا الآن وفي المستقبل أيضا بالنظام الدولى العام فإننا يجب أن نفرق تفرقة حاسمة بين التعاون على أساس نظرة القوى إلى الضعيف، والتعاون الذى يتم لخوف دولة عربية أو أكثر من غيرها من البلدان العربية. وما أكثر المعاهدات الدفاعية التى ستتم مستقبلا بين أكثر من دولة عربية وبين أمريكا على وجه الخصوص باعتبارها تكاد تكون أقوى دولة فى العالم الآن. وهذا سيؤدى إلى فقدان الثقة بين كل دولة عربية وكل دولة عربية أخرى. إننا نرى أن فقدان الثقة ستزداد مجالاته فى المستقبل أكثر منه فى الحاضر وفى الماضى أيضا.

وما يقال عن الجوانب الدفاعية العسكرية، يقال عن الجوانب الإقتصادية لقد أحدثت حرب الخليج أثارا مدمرة فى اقتصاد العديد من البلدان العربية وعلى رأسها العراق والكويت. وهل يمكن أن نقلل مستقبلا من

الآثار الإقتصادية الخاصة بحرب الخليج وما يرتبط بها من قوة النفط الهائلة وحركة العمالة وغيرهما. فرق وفرق كبير بين أنابيب للنفط تم إشعال النار فيها وبحيث يكون الجهد مركزاً حول القيام بإطفائها تجنباً لآثارها المدمرة الهائلة في أكثر المجالات الصحية وغيرها، وبين القوة النقدية الهائلة التي تعد نتيجة لوجود النفط في هذه البلدة العربية أو تلك. فرق وفرق كبير شاسع، بين دولة عربية كانت تتحكم في النفط الذي تملكه، وبين فرض حصار على النفط الموجود بها.

هل يمكن أن نقلل من الآثار الإقتصادية المدمرة التي ستظل عشرات السنين القادمة وكأنها الشبح المخيف والمارد الجبار الذي يلوى أعناق الشعوب العربية وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن النفط بالنسبة للعديد من البلدان العربية يكاد يكون المورد الإقتصادي الوحيد والذي على أساسه تملك هذه البلدة أو تلك أسباب قوتها و ثرائها في عالم لم يصبح فيه أى مجال لحياة الضعيف والفقير.

ومستقبل أزمة الخليج في المجال الدينى سيكون مظلماً أيضاً. وهل يمكن أن ننكر أن حرب الخليج قد أدت إلى إنقسام الحركة الإسلامية؟ لقد قامت بعض الدول الإسلامية بالوقوف ضد الكويت، وقامت دول أخرى إسلامية بالوقوف ضد العراق !!! وهذا يؤدي بالفرد منا حتى برجل الشارع إلى القول بأن ذلك كله يدلنا على ضعف مركز التيار الإسلامى، والتيار الأصولى بصفة خاصة. نعم هذا يعد صحيحاً وسواء أكان بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ونقصد بها أن التعاون مستقبلاً سيكون بين دول إسلامية ودول غير إسلامية، أكثر من التعاون بين دولة إسلامية ودولة أخرى إسلامية. إن المصالح وحدها هي التي ستحدد وجه العلاقة بين الدول العربية وبصرف النظر عن تيار إسلامى أو تيار غير إسلامى. نقول هذا

ونؤكد على القول به ولنعتزف صراحة بهذا الواقع والذي ستتضح الرؤية بالنسبة له مستقبلا أكثر من الحاضر أو الماضي.

وما يقال عن المستقبل المظلم للتيار الإسلامي بعد انقسامه بالنسبة لحرب الخليج وإزدياد هذا الإنقسام فيما نرى مستقبلا، يمكن أن يقال عن الواقع الثقافي مستقبلا. إن المطالب الرئيسية للعراق مستقبلا وللكويت أيضا لن تكون معبرة عن هموم ثقافية، بقدر ما ستكون معبرة عن هموم اقتصادية. ولا يمكن بأي حال من الأحوال التقليل من هذا المجال، المجال الثقافي مستقبلا. لقد خرجت كل دولة من الدولتين بأثقال وأحمال لا حصر لها. والحرب عادة لا تزول آثارها بين يوم وليلة، بل تمتد آثارها إلى سنوات وسنوات طوال، تمتد آثارها إلى المستقبل القريب والمستقبل البعيد أيضا. سنسمع في السنوات القادمة عن ترشيد ثقافي إن صح هذا التعبير، كما نسمع عن ترشيد للإستهلاك في المجال الإقتصادي. صحيح أننا لا نجد حضارة فكرية بالنسبة للكويت، بمعنى أن أكثر الكتاب والمفكرين الذين يكتبون في مجلاتها ودورياتها، إنما هم من غير الكويتيين، ولكن لابد أن نضع في اعتبارنا أن الآثار المستقبلية للحرب، حرب الخليج، ستضع بصماتها المؤسفة على الإهتمامات الثقافية بالنسبة للكويت. وسينطبق هذا على العراق أيضا وذلك على الرغم من الفروق بين شئون الفكر بالنسبة للكويت، وقضايا الفكر والثقافة بالنسبة للعراق، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار تاريخ شعب العراق الحضاري والذي يمتد إلى أعماق الزمان وقبل الميلاد.

نعم ستؤدي حرب الخليج إلى وجود قضايا ثقافية تختلف في بعض أبعادها عن القضايا التي كانت موضع اهتمام من جانب الباحثين قبل حرب الخليج. ستؤدي إلى إثارة العديد من التساؤلات الفكرية والثقافية وإعادة ترتيب الأوراق في مجال الثقافة. نعم لابد أن نؤكد على هذا التوقع المستقبلي في

المجال الثقافي، بل ما يرتبط به من مجالات إعلامية عديدة ستركز على جانب محوري مستقبلاً وإلى حد كبير وهو ما يتعلق بالحديث عن حرب الخليج ودفاع كل دولة من الدولتين عن موقفها، بل إعلام العديد من الدول العربية أساساً والذي سيدور في فلك محور أساسي واحد إلى حد كبير وهو حرب الخليج.

وإذا كنا نتحدث عن حاضر الأزمة ومستقبلها، فلا بد من الإشارة إلى ما يتعلق بآثارها بالنسبة للقضية الفلسطينية. لقد فقدت العراق أكثر قوتها العسكرية. وليس من الضروري - كما كانت تقول العراق - أن تكون تلك القوة قد أعدت من أجل القضية الفلسطينية، ولكن لا بد أن نضع في اعتبارنا أن نظرة إسرائيل مستقبلاً إلى البلدان العربية ستصبح غير النظرة إليها في الماضي. فما الذي تخشاه إسرائيل الآن بعد أن قامت البلدان العربية بإثارة العديد من الخلافات بينها، ووصل الخلاف إلى شن الحرب والتأكيد على الفرقة والخصام بين دولتين، كل دولة منهما تعد عضواً في جامعة الدول العربية. لقد أدت الحرب إلى إضعاف موقف الفلسطينيين وخاصة أن بعض مواقفهم حتى قبل الحرب كانت تدعو إلى الأسف والأسى والحزن. وما طلبه منهم أنور السادات لحل المشكلة أصبح حلاً الآن قد يكون غير قابل للتحقيق. فما بالنال لو وضعنا في اعتبارنا زوال القوة العسكرية بالنسبة لأكثر من دولة عربية، وقيام الحرب الإعلامية ليس بين إسرائيل والدول العربية، بل بين الدول العربية بعضها والبعض الآخر. هل من الممكن أن يتحدث العرب مستقبلاً عن أن الخطر لا يتمثل إلا في إسرائيل. وما الرأي الآن بعد أن تم عقد العديد من المعاهدات بين الكويت وبين أمريكا، أكبر سند لإسرائيل، لدرجة أن العديد من المواليد في دولة عربية قد أطلقت عليهم أسماء أمريكية وغربية، من بينها اسم بوش. وما الرأي في الإحتفالات الكبرى

التي تتم في دولة عربية في مناسبة قدوم حاكم لدولة غريبة تقف موقف المؤيد لإسرائيل.

ينبغي علينا أن نضع في اعتبارنا أن حرب الخليج ستكون لها الكثير من الآثار مستقبلاً أكثر من الحاضر الحالي. وهي آثار للأسف الشديد، مدمرة ومظلمة ينبغي أن نعترف بهذا رغم ما فيه من تساؤم، فهذا أفضل لنا من الإفراط في التفاؤل الساذج الذي أدى بأممنا العربية إلى نوع من أحلام اليقظة، الأحلام السعيدة التي لا تخرج إلى دائرة الواقع بكل قسوته، بل تدور في فلك التمنيات، وبحيث أصبحت أحلاماً في أحلام، أي كلاماً في كلام.

بل إنه من الصعب مستقبلاً الحديث عن أيديولوجية عربية مشتركة، بكل أبعاد تلك الأيديولوجية. فالأيديولوجية تستند إلى ركائز ضرورية من الفهم المشترك، لقد أصبح العربي يخاف من أخيه العربي في أكثر من دولة عربية. شاع الخوف حتى من العملة العربية في أكثر من دولة عربية. ساد الخوف من مشروعات تقدمها دولة عربية لصالح دولة عربية أخرى أليس هذا هو الواقع؟

إننا إذا تساءلنا وهل سيستمر هذا الواقع الحالي وبحيث يتخطى الحاضر إلى المستقبل، فإننا نقول نعم، ونؤكد على القول بنعم بعد التأمل في كل جوانب حرب الخليج وتحليل ما كتب عن مقدمات حرب الخليج وما حدث أثناء تلك الحرب. وإذا كنا نجد المفرطين في الأحلام السعيدة يرون غير ما نرى، فلهم دينهم ولنا دين.

إن تزايد الدور غير العربي وتدخله في شئون الدول العربية ستزداد درجته في المستقبل وهذا يعد أثراً من آثار حرب الخليج. وهل ستظل العلاقة بين الكويت وإيران، أو بين العراق وإيران مستقبلاً كما هي الآن. هل سيكون موقفنا من أمريكا والعديد من الدول الغربية في المستقبل القريب والمستقبل البعيد كموقفنا قبل حرب الخليج وأثناء حرب الخليج مباشرة وما بعدها

مباشرة. في تصوّري أن أكثر المواقف الماضية والحاضرة ستحدث بالنسبة لها العديد من التغيرات الجذرية. لقد كان الدرس مؤلماً. لقد ترك الدرس آثاراً لا حد لها في نفوس وعقول ووجدان أبناء الأمم العربية وبحيث اهتزت العديد من القيم والمفاهيم. وهذا الإهتزاز فيما نرى ليس اهتزازاً عارضاً بل سيكون اهتزازاً له آثاره الكبرى في المستقبل، لأنه يعد اهتزازاً جوهرياً ورئيسياً.

سنجد كل دولة عربية مستقبلاً حريصة على التركيز على ما يؤكد أمنها ومصالحها الخاصة أكثر من النظر إلى ما يربطها بغيرها من البلدان العربية. وسبب ذلك راجع إلى أن الحرب كانت مؤلمة، كانت قاسية، أدت إلى تدمير هائل لقوى استراتيجية لابد أن توضع في الاعتبار، فالحل إذن كما ستراه كل دولة عربية مستقبلاً هو التأكيد على المقولة الشائعة: أنا ومن بعدى الطوفان. وهذا يعد شيئاً يكشف عن مستقبل مظلم، إذ أن الدول الكبرى القوية ستجد الفرصة سانحة للتأكيد على وجودها داخل العديد من البلدان العربية، لأنها ستجد ترحيباً حاراً من تلك البلدان، طالما أن الدرس أدى إلى تغيير هائل في النظر إلى ما يسمى بالمصلحة العربية.

وإذا تساءلنا عن مصير العلاقات بين دول الخليج مستقبلاً وخاصة العلاقات الثنائية، فإنه يمكننا القول بأننا نتوقع حدوث العديد من التغيرات التي ستطرأ على تلك العلاقات مستقبلاً، بل يمكن القول بأن ما سيؤدي إلى حدوث التغيرات المتوقعة هو إمكانية تغيير نظام الحكم في دولة أو أكثر من دول الخليج، وليس بطريقة متشابهة، وليس أيضاً في وقت واحد. وعدم وجود طريقة متشابهة وفي توقيت واحد، سيؤدي ذلك إلى زيادة التغيرات المتوقعة بين دولة ودولة أخرى من دول الخليج. وستحاول العديد من الدول الغربية القوية العمل على ذلك حتى يتأكد للمواطن العربي أن القرار لن يكون عربياً وصادراً عن إرادة هذه الدولة العربية أو تلك. ستسعى الدول الغربية

إلى ذلك للتأكيد على نظرتها الماضية لتاريخ الأمة العربية وكيف أن العربي سيظل على خلاف مع العربي الذي يعيش في بلد أو في وطن عربي آخر وهكذا ستتداخل الدوائر وبحيث يقوى في نفوس أبناء الأمة العربية الإحساس بضعف البناء العربي وفقدان الأيديولوجية العربية.

بل إن النظرة من جانب العرب أنفسهم إلى تراثهم في الماضي ستحدث لها مجموعة من التغيرات، والتي - يكشف بعضها عن تغييرات كبيرة وجوهرية. فإذا كنا نتحدث عن الهوية الثقافية لأبناء الوطن العربي، نتحدث عن الخصائص العامة المشتركة التي تربط بين العربي في دولة، والعربي في دولة أخرى. فهل سيظل ذلك موجوداً في المستقبل. وهل القيم الخلقية والإنسانية التي تغنى بها شعراء العرب في الماضي ستظل كما هي؟ إنني أعتقد من جانبي أنه ليس ببعيد أن يقع العربي في حالة الإغتراب حتى وهو يزور دولة عربية أخرى، وبحيث لا يقع في هذا الإغتراب إذا زار بلدة أوروبية أو ولاية من ولايات أمريكا.

لقد وجدت أمام العديد من الدول العربية الكثير من الفرص في المجالات السياسية والإقتصادية والثقافية، ولكن تلك الدول للأسف الشديد قد أضاعت استخدام تلك الفرص. ولو كان الحكم السائد في البلدان العربية هو الحكم الديمقراطي، فهل كان سيحدث ما حدث قبيل حرب الخليج وأثناء تلك الحرب؟ هل قامت الدول العربية باستخدام أموال البترول للتأكيد على القيم العربية التي كانت راسخة في الماضي؟ هل وضعت بعض البلدان العربية التي رزقها الله بالبترول، وما أدراك ما البترول في قوته الهائلة الإقتصادية، هل وضعت تلك البلدان في اعتبارها القيام بخطة ثقافية تنويرية شاملة وبحيث تعيد إلى الأذهان أمجاد الأمة العربية في الماضي، وأقصد العصر العباسي بصفة خاصة حين انتشرت كل الأفكار وتم الحوار بين الثقافات؟ غير مجد في ملتي واعتقادي الحديث عن أزمة الخليج وكأنها حدثت بطريقة عارضة

فجائية. الحديث عن أزمة الخليج وكأنها لم تحدث إلا بين دولتين عربيتين. إن الواقع يخالف هذا التصور قلبا وقالبا. فكم من الجذور التي رسخت في الماضي والتي مهدت لهذه الحرب وهذه الأزمة. فلا شيء يحدث من العدم لا شيء يحدث من فراغ. إن للحرب أبعادها الثقافية والإقتصادية والعسكرية. وإذا كانت لها جذورها في الماضي، فلا بد أن تكون مستمرة ليس في الانتقال من الماضي إلى الحاضر فحسب، بل في أن تتخطى الحاضر إلى المستقبل. وهذه نتيجة مفزعة حقا، ولكن الجزاء من جنس العمل. وإذا كنا نقول إن أزمة الخليج وقد كانت لها جذورها في الماضي، فإن أبعاد تلك الأزمة لا يمكن أن يتم اقتلاعها اقتلاعا في زمان بسيط هين، بل إننا نرى بأن الحاضر بالنسبة لأزمة الخليج والذي لا يخلو من ظلام لا بعد أن نعترف بوجوده، سيمتد إلى المستقبل بصورة أو بأخرى، وماذا نتوقع غير ذلك وقد انتهى عصر المعجزات.

لماذا لا نعترف بأخطائنا؟ لماذا ندور في حلقة مفرغة ترتكز على التغنى بأمجاد الأمة العربية في الماضي، كأن نقول أمجاد يا عرب أمجاد. وهل ما تم في هذه الحرب، حرب الخليج يتواكب أو يبارك أو يتفق مع أقوالنا هذه. ينبغى أن ندرك تمام الإدراك أنه من الضروري أن ننق في أنفسنا وفي قدرتنا على اتخاذ القرار. هذا أمل قد يكون بعيد التحقيق بعد أن حدث ما حدث بالنسبة لأزمة الخليج، ولكن لا بد أن يظل يراودنا تحقيق هذا الأمل حتى نثبت وجودنا على خريطة العالم. العالم الذي يتقدم من حولنا. ومن الضروري الاعتراف بأن أزمة الخليج لم توجد إلا لكي تبقى إلى زمان طويل. نقول هذا ونؤكد على القول به رغم أن هذا القول فيه ما فيه من تشاؤم، ولكنه الواقع بكل أبعاده.

رابعاً

هل تسهم الأحزاب فى البناء الثقافى؟

"إن من يدرس خطط وبرامج الأحزاب عندنا بدقة وموضوعية وأمانة، يكاد لا يجد فى تلك الخطط والبرامج خريطة ثقافية، خريطة لبناء الإنسان المصرى والعربى، وبحيث أصبح من الصحيح تماماً أن نقول إن البرامج الحزبية فى واد، والثقافة وهمومها ومشكلاتها فى واد آخر، يبعد عنه بعد المشرق عن المغرب".

رابعاً

هل تسهم الأحزاب في البناء الثقافي؟

يخطئ من يظن أن الثقافة لا تؤدي إلا دوراً هامشياً في المجتمع. إن هذا الظن من جانب الكثيرين الذين يهتمون بكل شيء ما عدا الثقافة، سببه أنهم لا ينظرون إلا إلى المحسوس ومن هنا فقدوا كل ارتباط بينهم وبين الأفكار والمعنويات، تماماً كالأطفال الصغار ومن يعانون نقصاً في الذكاء وتخلفاً عقلياً، فهم لا يعرفون إلا ما يمسكونه بأيديهم ويرونه بأعينهم، لأنهم لم يصلوا بعد إلى إدراك أي بعد ثقافي وما يرتبط به من أفكار وقيم عليا تماماً كالمرأة في مصر التي تنظر إلى الثقافة على أنها نوع من الهموم.

وحال الأحزاب عندنا للأسف الشديد هو هذا الحال الذي يدعو إلى الحزن والأسى. لقد باعدت الأحزاب بين برامجها من جهة، والثقافة وقضاياها ومشكلاتها من جهة أخرى. لقد أصبح التباعد بينهما أكبر من التباعد بين الإنسان والجن، بين المعقول واللامعقول.

إن من يدرس خطط وبرامج الأحزاب عندنا بدقة وموضوعية وأمانة، يكاد لا يجد في تلك الخطط والبرامج خريطة ثقافية، خريطة لبناء الإنسان المصري، بحيث أصبح من الصحيح تماماً أن نقول إن البرامج الحزبية في واد، والثقافة وهمومها في واد آخر يبعد عنه بعد المشرق عن المغرب.

ويقيني أن حال الأحزاب عندنا بمصر إذا استمر على هذه الصورة من التباعد بينها وبين الثقافة فسنصل إلى حالة من الإنهيار الثقافي لا يعلم مداها إلا الله تعالى، وبحيث نربط بين الأحزاب وإعلان الحرب على الثقافة ربطاً ضرورياً تماماً كما نقول إن من الأشياء البديهية في حياتنا الفكرية

العداء بين المرأة من جهة والفلسفة من جهة أخرى بحيث يصبح حال من يريد أن يجد اهتماما بالفلسفة عند المرأة كحال من يريد أن يضيع وقته عبثا بمحاولة العثور على الغول والعنقاء وغيرهما من كائنات خرافية.

غير مجد في ملتي واعتقادي أن تركز الأحزاب في برامجها على الجوانب الإقتصادية والجوانب الجسمية البدنية بالإضافة إلى المناقشات اللفظية الجوفاء. إن مجتمعاتنا العربية تكاد تكون المجتمعات الوحيدة التي تنظر إلى الإنسان نظرتها إلى الحيوان . تنظر إلى الإنسان وكأنه مجرد جسم لا بد من حشوه وملئه بالطعام. تنظر إلى أن أقصى ما نهتم به هو كرة القدم، وكان الأرجل والقدمين أفضل من الرأس والدماغ. تنظر إلى الثقافة على أنها مجموعة من المناقشات اللفظية كأن تتركز مثلا على تعريف من هو العامل ومن هو الفلاح؟ من هو العامل ومن يدخل في الفئات الأخرى؟ وهكذا كلها ألفاظ في ألفاظ، تماما كما تركز المرأة في مصر على كل شيء ماعدا الثقافة وقضاياها.

إننا نطمح أن يكون للثقافة وجودها المتميز في خطط الأحزاب عندنا. فالأحزاب تعكس أحوال المجتمع، وفاقد الشيء لا يعطيه. ويقيني أن أحزابنا لو سعت بكل قوتها إلى البحث في أسباب تراجع الثقافة في مجتمعنا سواء تمثلت تلك الأسباب في جوانب اجتماعية أو جوانب سياسية أو جوانب اقتصادية وعملت على تلافى تلك الأسباب، فسيكون للأحزاب عندنا جانب حي متميز . أما إذا لم تفعل ذلك فستكون أحزابا راكدة، مسطحة، لا يجد من يحترم عقله وفكره عندها شيئا أى شيء.

لماذا لا نجد لجانا ثقافية فعالة مؤثرة في كل حزب من الأحزاب. لماذا لا نجد دار نشر ثقافية خاصة بكل حزب من الأحزاب ولا يكون عمل هذه الدار مجرد طبع جريدة للحزب أو طبع أوراق للدعاية.

إن البضاعة الجيدة تعلن عن نفسها ولن يكون لحزب من الأحزاب احترامه وقديسته عند الجماهير إلا إذا نظر إلى الثقافة كما ينظر إلى جوانب أخرى اقتصادية وجسمية، بل لابد أن ينظر إلى الثقافة على أنها تأتي قبل تلك الجوانب الأخرى. لماذا لا يكون من حق الأحزاب أن ترشح رجالاً منها لجوائز الدولة على سبيل المثال بحيث ننظر إلى الأحزاب نظرتنا إلى أية هيئة ثقافية لها احترامها وتقديرها.

إننى أقول من جانبى إن الثقافة بمعناها الدقيق، الثقافة التى تعيد تشكيل الإنسان المصرى عقله ووجدانه، نكاد لا نعثر عليها، بل لا نجدها إطلاقاً فى برامجنا الحزبية. ومن يفتش عن الثقافة بهذا المعنى فى كل ما يصدر عن أحزابنا من جرائد ومجلات فوقته ضائع عبثاً.

أليس من مصائب الزمان أيها القارئ العزيز، أننا فى الوقت الذى نقول فيه إننا دولة نامية تحتاج إلى دعم وتدعيم لكل جوانب حياتها الثقافية ومجالاتها الفكرية، لا نجد إلا انصرافاً عن الثقافة، ابتعاداً عن الفكر. إن الدول المتقدمة والغربية منها على وجه الخصوص رغم أنها وصلت إلى أقصى درجات التقدم الفكرى ما زالت حتى الآن تركز على الإهتمام بقضايا الثقافة والفكر. أما نحن الذين فى أمس الحاجة إلى تدعيم وجودنا عن طريق الثقافة والفكر، فإننا نضرب بالثقافة عرض الحائط، ننظر إلى الثقافة كنظرة المرأة فى مصر إليها على أنها نوع من الهم والغم والشئ الثقيل الذى يجب أن نتخلص منه وتدعو لأبنائها قائلة: ربنا يجنبك شر الفكر، وكأن الفكر أصبح شراً، شراً مستطيراً. أين برامج الأحزاب للنهوض بأجهزتنا الثقافية، أجهزتنا الإعلامية، تلك الأجهزة التى تحولت فى أكثرها إلى أدوات للتخلف الثقافى والفكرى. أين برامج الأحزاب للإثراء بحياتنا الفكرية، أين برامجها الخاصة بالبحث فى قضايانا الفكرية كقضية المحلية والعالمية، كقضية الأصالة والمعاصرة. إننا فى الوقت الذى ندعو فيه إلى أن تتحول المقاهى

مثلاً إلى نواد ثقافية، نجد اختفاء للثقافة في برامجنا الحزبية إن الأحزاب يجب أن تكون قوة مؤثرة في المجتمع وناهضة به. وإذا كان رجال الأحزاب عندنا يبررون عدم اهتمام أحزابهم بالثقافة بالقول بأن أفراد مجتمعنا لا يهتمون بالثقافة وينظرون إليها كشئ ثقيل، فإن هذا يعد عذراً أقبح من الذنب، إذ أننا لو نظرنا إلى الأحزاب كقوة مؤثرة في المجتمع، فإن تلك النظرة تؤدي بنا إلى القول بأن وظيفة الأحزاب ليست مجرد التعبير عن الواقع، بل السعي نحو واقع أفضل وحياة أكثر ازدهاراً فكرياً وثقافياً. إن أحزابنا لو التزمت بما أقوله الآن عن يقين واعتقاد لأصبح حالها مستقبلاً غير حالها الآن ولوجدنا مدارس فكرية عندنا مستقبلاً وثراء ثقافياً منقطع النظير نتباهى به بين الأمم الأخرى.

فالمأمل في برامج الأحزاب عندنا من جهة صلتها بالثقافة سرعان ما يشعر بالغيثان والإكتئاب والتشاؤم والظلام. وإذا ظلت أحزابنا مبتعدة عن الثقافة فسوف تصبح في المستقبل خطراً على الثقافة أكثر من خطر الجامعات المحلية الإقليمية في مصر على الثقافة، أكثر من خطر الزواج على الإبداع أدبياً كان أو فلسفياً أو فكرياً بوجه عام. إن أحزابنا لو نظرت إلى الثقافة بعين الاحترام والتقدير وعلى أنها تعد مطلباً رئيسياً يحتاج إليه الإنسان أكثر من حاجته إلى الطعام والملبس، فسوف تعود للثقافة مكانتها في اهتمامات الناس بحيث نجد الناس حتى في الشوارع يتناقشون في قضايا الفكرية كما كان يحدث في الماضي. ينبغي على الأحزاب أن يكون العقل نبراسها وأن تسعى إلى الربط بين مشكلاتنا الاقتصادية والاجتماعية وبين العلم والثقافة فنحن في عصر العلم عصر الثقافة الرفيعة ولا يصح ونحن في هذا العصر أن نتقدم الأمم حولنا بما فيها من أحزاب وتدور أحزابنا في حلقة مفرغة، أو أن تصعد إلى الهاوية. ينبغي على أحزابنا أن تكون الثقافة هي أهم ما تسعى إليه وكفانا جموداً وتخلفاً وحفظاً لكتب التراث دون وعي فمشكلاتنا الثقافية

اليوم غير مشكلات أمم عاشت قبلنا ومطالبنا الثقافية غير مطالبهم وبعض تراث الماضي إذا كان شيئاً ذا قيمة في أزمان السابقين فإنه قد يعد خرافة وجهلاً في أيامنا التي نحياها.

بل أقول إن أحزابنا يجب أن تتحول إلى قلاع ثقافية كبرى بحيث يكون كل حزب كالطود الشامخ يسعى لخدمة مصرنا العزيزة ثقافياً. وأقول من جانبي عن يقين لا أخرج عنه قيد أنملة: إن أحزابنا الحالية إذا استمرت على هذه الصورة من الابتعاد عن الثقافة والضرب بها عرض الحائط فستظل أحزاباً جوفاء، أحزاباً كالطبل الأجوف،

خامساً

حرب أكتوبر والرؤية المستقبلية

"إنّ انتصار أكتوبر لم يتحقق إلا بفضل الإيمان بقوة العلم،
وحكومة المستقبل إنما هي حكومة العلماء والمفكرين الذين
يؤمنون بالتخطيط العلمى الدقيق".

خامسا

حرب أكتوبر والرؤية المستقبلية

قد لا أكون مبالغاً إذا قلت بأننا لم نستفد حتى الآن استفادة كاملة من الدروس الخاصة بحرب أكتوبر. إن هذه الحرب إذا نظرنا إليها من خلال منظور المستقبل، فيقيني بأن عطاءها سوف يظل مستمرا لعدة أجيال وقرون. وكم من بلدان أوروبية ركزت على بعض معارك انتصاراتها، وقد أدى بها هذا التركيز من جانبها إلى الاستفادة استفادة هائلة من المعارك التي قامت بها.

ولكننا للأسف الشديد في مصرنا العزيزة، رغم أن نصر أكتوبر يعد من أهم الانتصارات الحربية في تاريخ مصر المعاصرة، إلا أننا نظرنا إلى حرب أكتوبر من خلال الوجهة الحربية العسكرية، ولم ننظر إليها من خلال الربط بينها وبين ما يمكن أن تحققه لنا من إنجازات فكرية هائلة. إنجازات تتعلق بصميم الإرادة المصرية العربية، وعقل ووجدان أمتنا العربية من مشرقها إلى مغربها.

إن حرب أكتوبر جديرة بأن نستفيد منها العديد من الدروس الممتازة والقيم الخلاقة المبدعة، وذلك إذا تأملنا في حقيقتها ومغزاها.

ودليلنا على ذلك أن حرب أكتوبر تدلنا على أن الهدف من أى حرب لا يصح أن يكون متمثلاً في الغزو والإعتداء، بل رد المعتدى. فنحن لم نقم بالحرب لضم أراضى جديدة داخل حدودنا المعترف بها دولياً، بل إن هدفنا هو رد اعتداء العدو على أرضنا. وإذا وضعنا ذلك نصب أعيننا فإننا يجب أن نكون دعاة سلام لا دعاة حرب. واتفاقية السلام بيننا وبين إسرائيل، إنما تعد

اتفاقية ممتازة ومشروعة لأنها تمت بعد أن قمنا برد الإعتداء. إنها لم تكن تسليماً أو استسلاماً من جانبنا ورضوخاً لإرادة المعتدى، بل إنها تعد معبرة عن انتصار الإرادة المصرية، معبرة عن أن دعوتنا، إنما هي دعوة سلام، لا دعوة حرب واعتداء.

لقد بين لنا أكثر مفكرى وفلاسفة العالم منذ قرون عديدة، أن السلام يمثل قيمة كبرى فى حياة الإنسان، يمثل استمرار الحياة، وليس القضاء عليها عن طريق الإعتداءات التى لا مبرر لها. فإذا قام الشعب المصرى بحرب أكتوبر، فإن هذا يعد من جانبه إيماناً وتمسكاً بقيمة حضارية كبرى، قيمة يحترم من خلالها الإنسان أخاه الإنسان، تمسكاً بالعدل والسلام. فمرحباً باتفاقية كامب ديفيد طالما أنها تعد تعبيراً عن التمسك بالعدل والسلام واحترام حدود كل دولة من الدول.

نعم يجب أن نضع فى اعتبارنا أن الحرب إذا كان القصد منها رد المعتدى فمرحباً بالحرب، ولكن أن يكون القصد من الحرب الإعتداء والغزو وضم الأراضى التى لا تدخل أصلاً فى حدود هذه الدولة أو تلك من دول العالم، فلعنة الله على الحرب بتلك الصورة وهذا الهدف.

لقد ساعدنا على النصر فى حرب أكتوبر، أننا كنا دعاة حق، دعاة سلام. والسلام من القيم الإيجابية - كما أشرنا - والتى تؤدى إلى استمرار الدول وحفظ حقها فى الحياة. وكم دعانا إلى ذلك القديس أوغسطين من فلاسفة العصور الوسطى، والفيلسوف الألمانى كانت Kant فى العصر الحديث حين كتب مشروعه للسلام الدائم. فالرؤية المستقبلية إذن بالنسبة لدرس من دروس حرب أكتوبر، تلك الحرب التى نقول عنها ما أعظمها وما أروعها، تتمثل فى أننا يجب أن نتمسك بالسلام القائم على العدل. فنحن لم نقف عند هزيمة ١٩٦٧م، بل تجاوزنا تلك الهزيمة، بأن قمنا بحرب أكتوبر، فمن

المنطقي إذن أن ندافع في المستقبل عن قيم العدالة والسلام، وبحيث نظل باستمرار معبرين عن مبادئ الإنسانية والحضارة.

وإذا كان انتصارنا في حرب أكتوبر لم يحدث مصادفة ولا بنوع من الحظ أو البخت، بل تم بناء على التخطيط العلمي والإيمان بأن النتائج لا تحدث إلا عن مقدمات ضرورية، فإن هذا يعد درساً من أبلغ الدروس التي يجب أن نضعها في اعتبارنا في مستقبل حياتنا.

إن انتصار أكتوبر لم يتحقق إلا بفضل الإيمان بقوة العلم، وأن حكومة المستقبل، إنما هي حكومة العلماء والمفكرين الذين يؤمنون بالتخطيط العلمي الدقيق. فهل استفدنا من هذا الدرس في حياتنا التي نحياها، وهل نضع ذلك نصب أعيننا في مستقبل حياتنا؟ هل من المعقول أن يقوم نفر منا الآن بالهجوم على العلم، بالهجوم على الحضارة الغربية، بالقول بأنه يوجد تعارض بين التقدم العلمي والأخلاق. إن أقوال هؤلاء الناس تعد جهلاً على جهل، تعد تعبيراً عن عصور التخلف والظلام وحياة أهل الكهف. فالسلاح الذي حاربنا به وحققنا به نصر أكتوبر، إنما هو نتاج الحضارة الغربية الأوروبية. ولولا الإنفتاح على الغرب، والاستفادة من علوم الغرب ما حققنا أكثر جوائز انتصارنا في حرب أكتوبر. إن هؤلاء الذين يعبرون في أقوالهم عن نوع من التخلف العقلي حين يهاجمون إنجازات العلم، إنجازات الحضارة الأوروبية وما أعظمها، وما أروعها، إنما تعبر أقوالهم عن الرجوع إلى الوراء، تعبر كتاباتهم عن الصعود إلى الهاوية، وبئس المصير.

إننا يجب أن نعتز بالعلم، وبإنجازات العلم ونقول لهؤلاء الناس إن الدليل على أهمية العلم في حياتنا، هذا النصر العظيم في حرب أكتوبر. وهل من المعقول أن يقوم نفر منا بالهجوم على العلم، بالهجوم على منجزات الحضارة الأوروبية، وذلك في نفس الوقت الذي يسعون فيه إلى الاستفادة من المطبعة، من السيارة، من الطائرة. هل تم نصر أكتوبر عن

طريق استخدام الحصان والجمال، هل تم النصر عن طريق استخدام أسلحة خشبية. كلا ثم كلا. إن النصر لم يتحقق إلا بمنجزات علمية حضارية. فيجب علينا إذن في حياتنا العامة وفي مدارسنا وجامعاتنا أن نقول لأفراد الشعب إن الدليل على عظمة العلم، الدليل على أهمية الإنفتاح على الغرب، إنما هو نصر أكتوبر والذي لم يتحقق إلا بفضل الأسلوب العلمي، والتخطيط الحضارى الدقيق. أليس هذا يعد درسا من أبلغ الدروس يجب أن نضعه فى اعتبارنا الآن وفى مستقبل حياتنا حين نتحدث عن نصر أكتوبر؟ ألم أقل لكم أيها القراء الأعزاء إن الأسباب المحددة هى التى تؤدى إلى نتائج دقيقة؟ إن عصر المعجزات قد انتهى أوانه، ولا شئ يحدث إلا بأسباب محددة وفى غاية الدقة.

نعم إن حرب أكتوبر يجب أن نستفيد منها فى حاضرنا ومستقبلنا. فإذا كنا نستفيد منها فى التمسك بالسلام. نستفيد منها فى ضرورة الإعتراز بالعلم والإنفتاح على الحضارات الأخرى، فإننا يجب أن نستفيد منها فى الإيمان بإرادة الشعوب. وكم عبر عن هذه القيمة الكبرى شعراء ومفكرون وفلاسفة عظام. إن إرادة أى فرد تعد من الأشياء الثمينة التى يجب أن يعتز بها. فلا يوجد شئ يسمى بالمستحيل. ولا يقول بالمستحيل إلا ضعيف الإرادة، مختل العقل. ودليلنا على ذلك أن هزيمة يونيو قد تحولت إلى انتصار أكتوبر تحول اليأس إلى أمل. انتقلنا من التشاؤم إلى التفاؤل. عبرنا الهزيمة إلى تحقيق الإرادة. إن تحقيق الذات، أى تحقيق الإرادة يعد شئنا جوهريا فى حياة الإنسان. وكم عبر عن ذلك مفكرون كبار من أمثال الشاعر محمد إقبال. ولم تصل اليابان إلى ما وصلت إليه عن طريق ما يسمى بالمعجزة اليابانية، ولكنها حققت أهدافها عن طريق الإرادة الحيوية الجوهرية.

غير مجد فى يقينى واعتقادى، التقليل من دور الإرادة، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الشعوب. إن نصر أكتوبر يدلنا على ذلك تمام

الدلالة. وإذا أراد الشعب الحياة، فلا بد أن يؤمن بإرادته، وأن العمل هو الطريق إلى الإنجازات الحضارية الهائلة. فلا مكان في العالم للضعيف. لا مكان في العالم لضعيف الإرادة، ولا للكسول. إننا إذا كنا قد حققنا نصر أكتوبر، فإن هذا النصر لم يحدث إلا عن طريق الإرادة، طريق العمل المستمر والشاق. يجب علينا إذن أن نغرس في نفوس شبابنا أهمية العمل. أن نبين لهم أنه لا يصح اللجوء إلى الخضوع والاستسلام والتواكل. فالدعاء لا يحقق الانتصار إلا إذا عمل الإنسان أولاً وقبل كل شيء. وإذا كانت أمتنا العربية تمر بحالة من الركود الفكري والحضاري، فإن السبب الرئيسي فسي ذلك، أنها تلجأ إلى التواكل والاستسلام، تكثر من حديثها عن الجن والسحر. تضرب عرض الحائط بالإرادة الإنسانية، الإرادة التي تقوم على الحرية، وتستطيع القضاء على المشكلات التي يواجهها أفراد كل أمة من الأمم لقد قابلت بعد حرب أكتوبر الكثير من المواطنين داخل مصر وخارجها، وكنت قد التقيت بهم بعد هزيمة ١٩٦٧. وقد حدث ما توقعته. لقد وجدت لديهم الحماس والتفاؤل والإيمان بالإرادة والعمل. وهذا يعد شيئاً منطقياً، إذ أن الهزائم تؤدي إلى هلاك النفوس والقضاء على كيان الأمم، وعلى العكس من ذلك تماماً نجد أن الانتصارات تؤدي إلى إنعاش الوجدان، وبث روح الأمل في النفوس.

يجب إذن أن نتخذ من حرب أكتوبر دليلاً ودليلاً قوياً على أنه بالإمكان إنجاز أى مشروع من المشروعات. ألسنا نتحدث بيننا وبين أنفسنا حين نجد نوعاً من الكسل عند نفر منا، ونقول لأنفسنا إننا إذا اتخذنا من حرب أكتوبر مثلاً لنا في حياتنا، فإننا سوف لا نعجز عن إدارة أى مشروع من المشروعات. سوف نحقق العديد من الأعمال التي تؤدي إلى رفاهية الإنسان المصري وسعادته في الحاضر، وسعادة أبنائه في المستقبل.

ومن الدروس التي تتعلق بالمستقبل أساساً والتي يمكن أن تكون معبرة عن الدلالات الفكرية لحرب أكتوبر، التمسك بالمواطنة، الفخر بتراب الوطن.

الإيمان بأن الحقوق لا بد أن ترتبط بالواجبات. إن وطننا عزيز علينا جميعاً ولا بقاء لنا إذا فرطنا في تراب وطننا، وانظروا إلى ما يحدث الآن في العديد من الأمم والشعوب. فإذا كان من حقنا أن نحيا، فإن من واجبنا أن نعمل باستمرار على الحفاظ على وطننا والدفاع عنه. إن كلمة الأمة من الأم، فينبغي إذن أن تكون علاقتنا بأمتنا المصرية، كعلاقة الأفراد بأمهاتهم. ويوم أن ينظر كل فرد منا إلى أمته، أي وطنه المصري، كما ينظر إلى أمه، فإننا سنتحول من حال إلى حال. وأشرف ما في حياة الإنسان، هو أن يفخر بوطنه، أن يتمسك به، أن يلجأ إليه، كما يلجأ الطفل إلى صدر أمه حيث يجد الحنان والاستقرار. فشعبنا عظيم بين الشعوب. وأماجدنا لا حصر لها ولا عد، وحضارتنا من أقدم وأعظم الحضارات، ومما يقوى فينا هذا الاعتقاد، أننا حين أردنا أن نحول الهزيمة إلى انتصار، فقد نجحنا في ذلك.

إننا إذا كنا قد استفدنا في حياتنا الحاضرة بعض الاستفادة من نصر أكتوبر وتلك لأننا لم نستوعب درس الحرب والانتصار كاملاً وجيداً، فإنه يجب علينا في رؤيتنا المستقبلية أن نستفيد تماماً من الدروس التي تعلمناها من تلك الحرب، وما أعظمها من دروس. وإذا كان من حقنا أن نفخر بحرب أكتوبر في أيامنا الحاضرة، فإن من واجبنا في مستقبل حياتنا الاستفادة من القيم الفكرية المبدعة والتي أشرنا إلى نماذج منها. إنها دعوة من جانبنا، فهل يا ترى ستجد صداها في نفوس وعقول أبناء وطننا العزيز في كل زمان وكل مكان؟.

الفصل السابع

دفاع عن الإستشراق والمستشرقين (رؤية نقدية)

"ماذا نفعل حيال أناس من أشباه الباحثين والدارسين، ومن أنصاف الأساتذة، يحلو لهم توجيه الاتهامات الظالمة إلى المستشرقين دون أن يدركوا أعمالهم العظيمة ومناهجهم الأكاديمية الدقيقة . نقول هذا ولا نمل من تكراره، إذ أن هؤلاء الأشباه يكتبون في كل شئ، ولا يفهمون أى شئ".

الفصل السابع

دفاع عن الإستشراق والمستشرقين (رؤية نقدية)

تعد قضية الإستشراق من أهم القضايا الفكرية التي تثار الآن. وترجع أهميتها إلى أننا بقدر ما نجد أحكاما فيها نوع من الإنصاف لفكرنا العربى من جانب بعض المستشرقين فإننا نجد أحكاما أخرى فيها نوع من التعسف والإبتعاد عن الصواب من جانب مستشرقين آخرين، وذلك فى مجال فكرنا العربى على اختلاف أنواعه وميادينه ومن بينها الأدب والعلم والفلسفة وغيرها.

ونود فى هذه الدراسة أن نركز على زاوية واحدة رئيسية، وهى الزاوية الخاصة بفلسفة الإستشراق.

هذه الزاوية تعد على درجة كبيرة من الأهمية وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن موضوع الإستشراق قد أثير منذ منتصف القرن الماضى، أى القرن التاسع عشر، وما زال ماثرا حتى الآن. بالإضافة إلى أن العديد من الأحكام التى أطلقها أكثر المستشرقين فى منتصف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، قد جاءت أحكام أخرى تختلف معها إلى حد كبير وذلك منذ بداية النصف الثانى من القرن العشرين ، وذلك على النحو الذى سنشير إليه خلال هذه الدراسة.

ويمكننا القول بأننا إذا كنا نجد بعض المستشرقين والباحثين الغربيين ممن ذهبوا إلى إنكار المجهودات التى قام بها مفكرو العرب فإننا نجد فريقا آخر منهم قد ذهب إلى الدفاع عن أهمية الفكر العربى وإثبات مكانة الكبيرة التى احتلها مفكرو العرب فى تاريخ الفكر العالمى.

فلنحاول الآن توضيح هذا الجانب الخاص بفلسفة الإستشراق حتى نتضح لنا الصورة كاملة:

لم يسلم بعض المستشرقين بأهمية وأصالة الفلسفة العربية الإسلامية. ومعنى هذا أن قضية وجود فلسفة عربية، لم تكن موضع اعتراف من جانب كل المشتغلين بها، بل وجد من المفكرين من وضع جده وأصالة وأهمية الفلسفة الإسلامية موضع الشك بل الإنكار.

فمن المستشرقين من يرى أنه ليس في طبيعة العرب التفلسف وإبداع المذاهب الفلسفية . ومنهم من يرى أنهم قد تأثروا بفلاسفة اليونان غاية التأثير، بحيث أن فلسفتهم لا تخرج عما أبدعه فلاسفة اليونان من مذاهب وخاصة أرسطو والأفلاطونية المحدثه.

قلنا إن هناك نفراً من المستشرقين يرجع عدم تفلسف العرب إلى طبيعتهم. وقد توصل هذا الفريق إلى ذلك، بالترفة بين ما يزعمونه من تقسيم الناس إلى جنس أرى وجنس سامى فالجنس الأرى هو وحده القادر على التفلسف وإبداع المذاهب الفلسفية أما الجنس السامى فلا يستطيع ذلك، بحيث كان كل عمله هو نقل دائرة المعارف الفلسفية اليونانية وعدم الخروج عليها.

والواقع أن تقسيم الناس إلى ساميين وآريين، هو ما فعله الباحثون في تاريخ اللغات فى القرن التاسع عشر فيما يقول مصطفى عبد الرزاق فى تمهيده لتاريخ الفلسفة الإسلامية.

وإذا كان علماء اللغات قد فعلوا ذلك، فإن بعض الباحثين فى الفكر العربى حاول أن يعمم هذا القول بحيث يجعله مميزاً لكل عقلية من العقليتين. أى أنهم جعلوا هذه التفرقة اللغوية أساساً للحكم على المباحث الفلسفية.

ومن المفكرين الذين يمثلون هذا الاتجاه أوضح تمثيل، أرست رينان E. Renan وإذا رجعنا إلى كتابه عن تاريخ اللغات السامية وجدناه يفرق تفرقة تامة بين جنس سامي وجنس آخر. ثم نراه يقول في كتابه عن "ابن رشد والرشدية" لا يمكننا أن نجد عند الجنس السامي مذاهب فلسفية، إذ أن هذا الجنس لم يثمر أى بحث فلسفى خاص، بحيث أن الفلسفة عند الساميين ما هى إلا مجرد اقتباس وتقليد للفلسفة اليونانية. وسنعود إلى مناقشة رأى Renan والذي تابعه فيه بعض الباحثين فى الفكر الفلسفى العربى.

وليون جوتيه هو الآخر قد ذهب هذا المذهب. أى أنه يسلم بقضية الجنس الأرى والجنس السامى. إنه يقول فى كتابه: مدخل لدراسة الفلسفة الإسلامية إن الجنس السامى والجنس الأرى يتجهان اتجاهين متضادين تماماً فالعقلية السامية تميل إلى قرن الأشباه والأضداد دون ربطها بما يجعل منها وحدة، بل تتركها منفصلة عن بعض، ثم لا تلبث أن تنتقل من إحداها إلى الأخرى دون واسطة بوثة فجائية. أما العقلية الأرية فإنها على العكس من ذلك. إنها تتجه إلى الربط بين هذه وتلك بوسائط تدريجية، بحيث لا تنتقل من طرف إلى آخر إلا بدرجات غير محسوس بها، مثلها فى ذلك، مثل الألوان المذاب بعضها فى بعض.

وهذا كله يعد امتداداً لدعوة Renan التى سبق أن أشرنا إليها^(١) دعوة التفرقة بين عقلية جنس سامى تمثل الفصل والمباعدة لا الجمع والتأليف، وتترك الجزئيات دون ترتيب وتناسق بحيث لا تتمكن من التوصل إلى القضايا الكلية والقوانين العامة - وإذا لم تتوصل إلى هذه القضايا الكلية والقوانين الشاملة، فقد عجزت عن تحقيق الأصالة والإبتكار. أما العقلية الأخرى، عقلية الجنس الأرى، فهى وحدها دون غيرها تحاول بفطرتها

^(١) راجع فى ذلك كله كتاب الشيخ مصطفى عبد الرزاق: مذهب لتاريخ الفلسفة الإسلامية.

التأليف بين عناصر الأشياء بتناسق وترتيب ونظام يؤدي إلى الجمع وامتزاج العناصر. ومن هنا تكمن القدرة على الدقة في البحث والتوصل إلى أعمق النتائج في الدراسات التي يقوم بها أصحاب الجنس الآرى. وإذا كان رينان ومن تابعه يصدرون حكمهم على الفلسفة العربية بالفرقة بين جنس سامى وجنس آرى، فإن هناك نفرا من المستشرقين ذهبوا إلى أن عدم إبداع فلاسفة الإسلام للمذاهب الفلسفية، يرجع إلى أسباب عديدة متنوعة، منها كتاب المسلمين المقدس أى القرآن الكريم، ومنها أن فى طبيعة العرب التأثير بالأوهام. وهذا التأثير بالأوهام يتنافى وإبداع المذاهب الفلسفية، إلى غير ذلك من دعاوى كثيرة.

والواقع أن هذه الدعاوى وما يدور فى فلكها قد تعد تعبيراً عن نوع من التعصب للجنس الأوروبى إذ نجد فيها قليلاً من شأن عقلية العرب، رغم أن المنصف لو اطلع على كتب فلاسفة العرب وعلماء العرب، الذين بحثوا فى الرياضيات والطبيعات وغيرهما من علوم وفنون، لعلم مبلغ الدقة التى توصلوا إليها.

وتعد أيضاً نوعاً من التعصب الدينى، لأن فيها قولاً بأن القرآن قد عاق العرب عن التفلسف. وهذا القول يعد فيما نرى قولاً جانراً، لأن القرآن يحث فى أكثر آياته على التأمل والبحث والنظر فى جنبات الكون. والمشكلة ليست فى القرآن فى حد ذاته، ولكن فى الفهم الخاطئ من جانب بعض رجال الدين.

من هذه الآيات قوله تعالى: "إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون".

وقوله تعالى: "فاعتبروا يا أولى الأبصار" وقوله تعالى "أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء" وقوله تعالى: "ويتفكرون في خلق السموات والأرض". وقوله تعالى "أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت".

أما عن Renan فإنه غير محق في أشياء كثيرة منها إلقاء اللوم على فلاسفة العرب للأخطاء التي حدثت في الترجمات عن اليونانية على النحو الذي نجده عند بعض فلاسفة العرب حين نسبوا آراء لأرسطو لم يقل بها، بل قال بها أفلوطين في كتابه التاسوعات. إن اللوم يجب أن يلقى إلى حد كبير على المترجمين لا على فلاسفة العرب الذين اعتمدوا على هذه الترجمات التي وصلت إليهم. بالإضافة إلى أن عصرهم لم يكن فيه ما عندنا الآن من وسائل النقد العلمي الدقيق والذي بواسطته نميز بين كتب هذا الفيلسوف وكتب غيره.

والواقع أن Renan يتناقض مع نفسه في بعض الأحوال. إنه في الوقت الذي يطلق فيه أحكامه على فلسفة مفكرى العرب، يقول في معرض دراسته لآراء ابن رشد الفيلسوف الأندلسي: إن ابن رشد إذا كان لم يطمح إلى مكانة الشارح لآراء أرسطو فإننا - فيما يقول رينان نفسه - يجب ألا ننخدع بهذا التواضع من جانب ابن رشد، إذ أن العقل البشري يطالب باستقلاله، وإذا ما قيدناه بنص من النصوص، عرف كيف يجد حريته في تفسير هذا النص وتكوين رأى حوله^(١)

قلنا إن رينان يقيم دعوته على التفرقة بين جنس أرى وجنس سامى، بيد أن هذه الدعوى لم يعد لها مكان في القرن العشرين بعد النفوذ الواسع الذي كان لها في القرن التاسع عشر. فهذا بول ماسون أورسيل: يقول "لقد

^(١) Renan: Averroes et l'Averroisme; p. 83.

ساد في القرن التاسع عشر اعتقاد بوجود عناصر وأجناس مختلفة ينقسم إليها الناس. لكن العنصرية مهما اشتدت الآن أصبحت مقصورة على مجرد وضع سياسى. ولا نريد معارضة ما جاء به علم الأجناس البشرية من الأسانيد المدعمة فيما يتعلق بتعيين الأشكال المتميزة، إلا أننا نعلم علم اليقين أنه لا وجود للعناصر النقية إلا فى بعض حالات التحديد. وعلى ذلك فالأمر خارج عن طور التجارب^(١)

ومعنى هذا أن الفروق بين الأجناس لا وجود لها - فيما يقول بول ماسون أورسيل - إلا فى الميدان اللغوى، بحيث تستند العنصرية إلى مقياس لغوى لا مقياس جنسى.

ننتهى بعد عرض آراء نفر من المستشرقين، إلى القول بأن الكثير من القضايا والأحكام والإتهامات التى وجهت إلى الفلسفة العربية، قد تلاشت أو فى طريقها إلى الزوال، ذلك لأن هذه القضايا والإتهامات والأحكام لم تقم على جذور ثابتة من البحث العلمى النقدى الدقيق، فهناك مشكلات خاصة بالفلسفة العربية دون غيرها من الفلسفات السابقة عليها والتالية لها، كما أنه ليس من المناسب إطلاقاً أن نقول أن عجلة الفكر الفلسفى قد توقفت فترة ونحدد هذه الفترة، بأنها الفترة التى وجد فيها فلاسفة العرب. إن العجلة كانت دائرة وفى دورانها أنتجت لنا العديد من الثمرات الفكرية الرائعة. كما أن هناك آراء قال بها فلاسفة العرب ولم يسبقهم إليها فلاسفة اليونان. وإذا كان فلاسفة العرب قد تأثروا بفلاسفة اليونان، فإن هذا التأثير يعد فى حد ذاته مظهراً من مظاهر الصحة لا مظاهر المرض. فمن من المفكرين لم يتأثر بغيره. إن الصحيح إلى حد كبير جداً أن نقول مع ول ديورانت فى معرض دفاعه عن

(١) الفلسفة فى الشرق ص ٢٠ من الترجمة العربية.

ابن سينا: إن نزلاء المستشفيات العقلية هم وحدهم الذين لا يتأثرون بعقول غيرهم.

ولكى ندلل على أن أكثر أحكام المستشرقين والتي قامت على فلسفة معينة، فلسفة خاصة بالإستشراق، والتي تتبلور حول التمييز بين الجنس السامي (العرب) والجنس الأري (الجنس الأوروبي)، فإننا نود أن نشير إلى أحكام بعض المستشرقين والباحثين حول قضايا التصوف، وهو الذي يعد معبرا عن جانب من جوانب فكرنا الفلسفي العربي. إننا نجد مجموعة من المستشرقين قد ذهبوا إلى القول بأن التصوف يرجع إلى مصدر فارسي، لقد ذهب أمثال دوزي وثوأك إلى القول بأن التصوف قد وصل إلى المسلمين عن طريق فارس، وأن المسلمين قد استفادوا من هذا المصدر الفارسي في القول بأن العالم لا وجود له في ذاته، وأن الموجود الحقيقي هو الله تعالى. وهذه جوانب نجدها عند بعض صوفية الإسلام.

ولكن ليس معنى ذلك، أن التصوف يرجع أساسا إلى هذا المصدر الفارسي، ودليلنا على ذلك أننا إذا كنا نجد بعض الصوفية من أصل فارسي ككبي يزيد البسطامي ومعروف الكرمي، فإننا نجد أيضا مجموعة من الصوفية العرب ومنهم أبو سليمان الداراني ونو التون المصري وابن عطاء الله السكندري ومحيي الدين بن عربي.

وإذا كنا قد أشرنا إلى أن الصوفية الذين يرجعون إلى أصل فارسي، إنما كانت نشأتهم بعد ظهور النبي والصحابة والتابعين، فإننا إذن بناء على ذلك لابد أن نضع في الاعتبار، تأثر هؤلاء الصوفية بزهد وتعبد الرسول والصحابة.

ونتنتهي من هذا إلى القول بأنه من الصعب أن نوافق المستشرقين على رأيهم الذي يرجع التصوف إلى مصدر فارسي.

أما القول بأن التصوف الإسلامي يرجع إلى مصدر مسيحي، فإن هذا القول بدوره لا يمكن أن يعد صحيحا. صحيح أننا قد نجد بعض أوجه الشبه بين مسلك وحياة بعض الزهاد والصوفية، وبين حياة السيد المسيح والرهبان، إلا أن هذا الشبه لا يؤدي بنا إلى رد التصوف الإسلامي إلى مصدر مسيحي، وخاصة إذا وضعنا في الاعتبار أن فريقا من الزهاد والعباد كإبراهيم بن أدهم كان لهم بعض أوجه العمل في الدنيا والقيام ببعض أوجه النشاط.

صحيح أننا نجد بعض المصطلحات المسيحية عند بعض صوفية الإسلام كاللاهوت والناسوت وغيرهما من المصطلحات، ولكننا يجب أن نضع في الاعتبار أن هذه المصطلحات لم تظهر بصورة واضحة وحاسمة إلا في وقت متأخر نسبيا، أي بعد استقرار الزهد والعبادة وهما يعتبران مؤديان إلى نشأة التصوف الإسلامي. وإذا كنا نجد من الباحثين من يرجع التصوف إلى مصادر فارسية تارة ومصادر مسيحية تارة أخرى، فإننا نجد نفرا من الباحثين يرد التصوف إلى مصدر هندي ومن هؤلاء هورتن وهارتمان، فهما يذهبان إلى أن التصوف الإسلامي يستمد أصوله من الفكر الهندي. بل أننا نجد حججا كثيرة عند هارتمان لإثبات أن التصوف الإسلامي يمكن إرجاعه إلى مصدر هندي. ومن بين هذه الحجج أننا نجد كثيرا من الصوفية من أصل غير عربي كالبسطامي وإبراهيم بن أدهم على سبيل المثال. بالإضافة إلى أن المسلمين أنفسهم كالبيروني على سبيل المثال يعترف بذلك، أي يعترف بالأصل الهندي وذلك في كتابه "تحقيق ما للهند في مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة" حين عقد مجموعة من المقارنات بين عقائد الهنود من جهة وأفكار صوفية الإسلام من جهة أخرى. إن فكرة الرضا أو مقام الرضا من المقامات التي تحدث عنها صوفية الإسلام، نجدها عند الهنود،

بالإضافة إلى استعمال المصباح عند الصوفية. يضاف إلى ذلك أن التصوف قد انتشر، بل ظهر في البدلية في خراسان.

بيد أن هذه الحجج كلها لا تؤدي بنا إلى إرجاع التصوف الإسلامي إلى مصدر هندي، إلا إذا وضعنا في اعتبارنا التصوف الفلسفي أساساً وليس التصوف السني.

لابد أن نضع في اعتبارنا أن الصوفية كانوا مسبوقين بمجموعة من الزهاد والعباد وأقوال هؤلاء الزهاد والعباد تدلنا على استفادتهم أساساً من الآيات القرآنية. ومهما يكن من أمر، فإن المصدر الهندي يبدو لنا أقوى من غيره من المصادر.

هذا عن المصدر الهندي، أما بالنسبة للمصدر اليوناني أي رد التصوف الإسلامي إلى مصدر يوناني، فإننا نجد بعض الباحثين يرجحون القول به ومنهم أوليسرى. إن هؤلاء الباحثين يضعون في الاعتبار التصوف الفلسفي عند أفلوطين ونهايه إلى أن المعرفة تدرك بالمشاهدة حين الغيبة عن النفس وعن العالم المحسوس ولا شك أن العرب قد عرفوا فلسفة أفلوطين عن طريق كتاب أثولوجيا أرسطو طاليس الذي نسب خطأ إلى أرسطو في حين أنه مجموعة من مقطعات التاسوعة الرابعة والتاسوعة الخامسة والتاسوعة السادسة وقد أطلق العرب على أفلوطين اسم الشيخ اليوناني.

بيد أن هذا كله يجب ألا يؤدي بنا إلى إرجاع التصوف الإسلامي إلى مصادر يونانية عامة، وأفلاطونية محدثة على وجه الخصوص، إذ أننا يجب أن نضع في الاعتبار أن صوفية الإسلام إذا كان قد تأثر بعضهم بالمصادر اليونانية، فإن ذلك كان في وقت متأخر أي لم يكن واضحاً وظاهراً في القرون الأولى للتصوف.

عرضنا فيما سبق لكثير من الآراء حول مصادر التصوف الإسلامي. وقد تبين لنا كيف أن بعض المستشرقين قد أرجع التصوف إلى مصادر

غير إسلامية سواء أكانت تلك المصادر مصادر يونانية أو فارسية أو هندية.^(١)

وقد أشرنا إلى أننا إذا كنا نجد تشابها بين بعض الآراء التي قال بها مجموعة من الصوفية، وبين آراء ترجع إلى مصادر أجنبية، فإن هذا لا يعنى أن التصوف فى الإسلام يرجع أساسا إلى مصدر من هذه المصادر الأجنبية، صحيح أن بعض صوفية الإسلام قد استفادوا من هذه المصادر الأجنبية، ولكنهم قد استفادوا أساسا وبصورة رئيسية من المصدر الإسلامى يضاف إلى ذلك أن نشأة التصوف فى الإسلام إنما تمثلت فى الزهد والعبادة، ومن الصعب إرجاع الزهد والعبادة إلى مصادر غير إسلامية، فإننا لابد أن نضع فى الاعتبار أن هذا التشابه نجده بصورة رئيسية فى التصوف الفلسفى أكثر مما نجده فى التصوف السنى. وقد سبق أن بينا أن التصوف الفلسفى وحده لا يمثل التصوف الإسلامى، بل لابد أن نضيف إليه التصوف السنى.

إن المستشرق الفرنسى ماسينيون على سبيل المثال قد ذهب وهو بصدد البحث فى مصادر المصطلحات الصوفية، إلى أننا نجد هذه المصادر الخاصة بالمصطلحات تتمثل فى القرآن الكريم وفى بعض العلوم العربية الإسلامية كالحديث والفقه وفى الألفاظ والمصطلحات التى استعملها المتكلمون وأيضا فى تلك اللغة العلمية التى تكونت عبر قرون طويلة من لغات عديدة كال يونانية والفارسية.

ومعنى هذا أننا لابد أن نضع فى اعتبارنا أن التصوف فى الإسلام إنما يرجع أساسا إلى استفادة الصوفية من الكتاب والسنة.

^(١) راجع فى ذلك كتاب الدكتور أبو الوفا التفتازانى: مدخل لدراسة التصوف الإسلامى.

ونود أن نبين كيف أن المتصوفة في حديثهم عن المجاهدات الروحية وفي دراستهم للأحوال والمقامات قد استندوا إلى الكثير من الآيات القرآنية بالإضافة إلى أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

لقد استمد الصوفية من القرآن والسنة الكثير من آرائهم في مجال الأخلاق والسلوك فالسراج الطوسي في كتاب اللمع يذهب إلى أن الصوفية تخصصوا بمكارم الأخلاق والبحث عن معالي الأحوال وفضائل الأعمال اقتداء من جانبهم بالرسول وصحابته والتابعين وهذا كله يعد موجودا في كتاب الله عز وجل.

وإذا كان الصوفية قد تحدثوا عن مجاهدات النفس التي تعد الطريق إلى الله تعالى، فإنهم قد استندوا إلى الكثير من الآيات القرآنية. ومنها قوله تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين" وقوله تعالى: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم" وقوله تعالى: "قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن أتقى" وقوله تعالى: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى" وقوله تعالى: "واصبر وما صبرك إلا بالله".

بل إننا نلاحظ استفادة الصوفية من كثير من الآيات القرآنية حين دراستهم للمقامات كمقام الفقر ومقام المحبة، ودراستهم أيضا للأحوال كحال الخوف وحال الحزن وغيرهما من الأحوال ومن هذه الآيات قوله تعالى: "رضى الله عنهم ورضوا عنه" وقوله تعالى: "والله الغنى وأنتم الفقراء" وقوله تعالى: "واتقوا الله ويعلمكم الله" وقوله تعالى: "يدعون ربهم خوفا وطمعا" وقوله تعالى: "وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن" وقوله تعالى: "ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون".

لعله قد تبين لنا الآن وبالأدلة القاطعة كيف أن بعض المستشرقين قد جانبهم الصواب حين أصدروا العديد من الأحكام حول فكرنا العربي دون

أن يدركوا من جانبهم عظمة هذا الفكر وأثره البالغ على أوروبا أيام كانت تعيش في عصور الظلام.

إذا كانت هذه الدعوة التي تذهب إلى أن الدين الإسلامي الذي يعتنقه فلاسفة العرب يعوق حرية الفكر ولا يشجع على النظر العقلي، إذا كانت هذه الدعوة تعد خاطئة فإن الزعم بوجود فوارق بين الأجناس بمعنى القول بأن العرب الذين يرجعون إلى الجنس السامي لا يستطيعون بحكم طبيعتهم أن يبتدعوا فلسفات جديدة، بعكس الأوروبيين الذين ينحدرون عن الجنس الآري. نقول أن هذه الدعوة التي يرددها بعض المستشرقين والتي تعتمد على التمييز بين طبيعة عقلية سامية وطبيعة عقلية آرية، تعد خاطئة أيضا من بعض زواياها. لهذا وجدنا الكثير من المفكرين أمثال بول ماسون أورسيل فيما سبق أن أشرنا - يتجهون إلى إبطالها من بعض زواياها.

وإذا كان هناك من المستشرقين من ذهب إلى القول بأن العرب لم يفعلوا في حقل الفلسفة شيئا إلا نقلهم دائرة المعارف اليونانية فإن هذا القول لا يستند إلى أساس صحيح. إن مفكرى العرب قد تأثروا بمفكرى اليونان هذا لا جدال فيه، بل نقول إنه لو لا الفلسفة اليونانية لما وجدنا الفلسفة العربية، ولكن الصحيح أيضا أن مفكرى العرب قد أثروا بدورهم الحياة العقلية ثراء منقطع النظير. إنهم اضافوا إلى دائرة المعارف اليونانية إضافات جديدة. إنهم قد توصلوا إلى آراء وحلول جديدة خاصة بهم. وذلك يرجع إلى أن للفلسفة العربية قضاياها ومشكلاتها الخاصة بها والتي لم تعرف عند مفكرى الإغريق.

وإذا كان فلاسفة العرب قد تأثروا كثيرا بالتراث الفلسفى اليونانى، فإن هذا يعد شيئا طبيعيا إلى حد كبير أى أنه يعد مظهرا من مظاهر الصحة لا من مظاهر المرض، فالفلسفة اليونانية نفسها قد تأثرت بالعلوم الشرقية كما أخذ كل فيلسوف عن غيره. ففيتاغورث قد تأثر بعلوم الشرق. وأفلاطون -

فيما يقول المؤرخون - قد زار مصر القديمة وأعجب بمعارف الشرق. كما تأثر أرسطو بسابقه تأثراً كبيراً، وفلاسفة العصر الحديث قد تأثروا بفلاسفة اليونان.

وعلى هذا فلا توجد أصالة خالصة في كل زواياها. بمعنى أن كل فيلسوف قد تأثر بغيره. ويمكن أن نجد عند الكثير من الفلاسفة بعض العناصر التي استقوها عن الذين سبقوهم.

يقول ديورانت في كتابه "عصر الإيمان" في قصة الحضارة إن كتابا الشفاء والقانون من الكتب الخالدة على مر الزمان.

فالفلسفة العربية لها موضوعاتها التي تختلف في بعض زواياها عن موضوعات الفلسفة اليونانية. إذ أن الفلسفة الإسلامية قد تأثرت دون شك بالبيئة التي نشأت فيها والتربية التي نمت عليها وترعرعت. وحينما انتقل تراث فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو، إلى مفكرى العرب، أدركوا ما في مذهبه من نقض وما فيه من مسائل تخالف العقيدة الإسلامية وما فيه أيضاً من مسائل تركها أرسطو دون حل قاطع. ومن هنا بدأ فلاسفة العرب سد الثغرات التي وجدوها في مذهب أرسطو. ونظراً لإعجابهم الكبير بأرسطو وغيره من الفلاسفة، نراهم يحاولون الدفاع عن الفلسفة قائلين إنها لا تتنافى مع الدين. ومن هنا نشأ موضوع التوفيق بين العقل والوحى أو بين الفلسفة والدين، وحتى تبدو الفلسفة وكأنها لا تخالف العقيدة الدينية، وحتى لا يجد بعض المفكرين مجالاً للطعن على الفلسفة، ومحاولة تصويرها بأنها تخالف العقيدة الإسلامية. لقد حدث امتزاج عجيب بين فكر فلسفى يونانى وفكر طابعه وجوهره الديانة الإسلامية، ولا شك أن الدارس المقارن بين الفكر الفلسفى اليونانى والفكر الإسلامى، يجد أن المسلمين قد واجهوا مشكلات جديدة لم يثرها باستفاضة فلاسفة اليونان كمشكلة النفس وخلودها ومشكلة العلاقة بين الخالق والمخلوق ومشكلة الوحى الإلهى وغير ذلك من مشكلات.

إن هذه المشكلات لم يبحث فيها فلاسفة اليونان، لأن هذه الفلسفات لم تنشأ في إطار ديني كذلك الإطار الذي نشأت فيه الفلسفة الإسلامية.

يقول الدكتور مذكور (في الفلسفة الإسلامية ص ١٥): إن الفلسفة الإسلامية تعنى بمشكلة الواحد والمتعدد وتعالج الصلة بين إله ومخلوقاته وتحاول أن توفق بين الوحي والعقل بين العقيدة والحكمة، بين الدين والفلسفة... فالفلسفة الإسلامية وليدة البيئة التي نشأت فيها والظروف التي أحاطت بها وهي كما يبدو فلسفة دينية روحية.^(١)

فلاسفة العرب إذن قد وجهوا اهتمامهم إلى حد كبير ببحث مشكلة التوفيق بين العقل والنقل، وقد قيل إن هذه المشكلة معقد الطرافة في الفكر الفلسفي الإسلامي وأنها تميز هذا الفكر عما عداه. ولنا مقالات بصدد الرد على هذا القول ونكتفي بأن نذكر أنه على الرغم من أن محاولة التوفيق هذه لم يقدر لها النجاح أحياناً، بالإضافة إلى ما فيها من تعسف وتأويل لا يسمح به نص أرسطو، على الرغم من هذا كله فإن فلاسفة العرب حين حاولوا التوفيق بين دينهم الذي يدينون به وبين الفلسفة اليونانية، فإن هذا في حد ذاته يعد سمة تميز بها الفكر الإسلامي ولا نجدها بين ثنايا أبحاث الفكر اليوناني.

ننتهي بعد هذا كله إلى التأكيد على القول بأن هناك فلسفة عربية لها قضاياها ولها مناهجها ومشكلاتها التي تختلف في قليل أو في كثير عن قضايا ومناهج ومشكلات الفلسفة اليونانية.

والواقع أن هذه الإتهامات التي شاعت في القرن التاسع عشر، قد أثبت البحث العلمي الدقيق خطأها من أساسها، ووجد من المستشرقين والباحثين الغربيين من دافع عن أصالة الفلسفة الإسلامية وأثبت مكانة الكبيرة التي احتلها فلاسفة العرب في تاريخ الفكر الفلسفي العالمي.

^(١) في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه ص ١٥.

لقد ذهب الباحثون المنصفون إذن إلى أن دراسة كتب المتكلمين والفلاسفة العرب ومتصوفة الإسلام، دراسة دقيقة، لابد وأن تؤدي إلى التسليم بجدة وطرافة الفلسفة الإسلامية، وأن هذه الفلسفة لها موضوعاتها ومجالاتها التي تختلف عن موضوعات ومجالات الفلسفة اليونانية. صحيح أن فلاسفة الإسلام قد تأثروا بالفلسفة اليونانية، ولكنهم تأثروا أيضا بالمصدر الديني الإسلامي، بحيث كان هذا المصدر - كما سنرى - من المصادر الأساسية التي اعتمد عليها فلاسفة العرب.

ولا نريد الإطالة في هذا الموضوع، إذ ليس من المناسب ونحن في أواخر القرن العشرين أن ندافع عن الفلسفة العربية ونرد على الإتهامات التي وجهها نفر من المستشرقين إليها نظراً لأن الكثير من هذه الإتهامات، إن لم يكن كلها، قد أصبحت متهافة متناقضة بعد الدراسات العميقة التي قام بها الكثير من الدارسين المنصفين سواء في الشرق أو في الغرب والتي أثبتت بما لا يدع مجالاً للشك، أن هناك الكثير من العناصر الجديدة والأصيلة، والعديد من القضايا الفلسفية التي اختص بها فلاسفة العرب دون غيرهم ممن سبقهم من فلاسفة اليونان.

هذا يعني أن فلسفة الإستشراق التي تقوم على التمييز بين طبيعة عقلية الجنس السامي وطبيعة عقلية الجنس الآري، تعد أيضاً آراء خاطئة. ولهذا لم يكن من الغريب أن نجد - كما سبق أن أشرنا - كثيراً من الكتاب أمثال بول ماسون أورسيل يتجهون إلى إبطالها من بعض زواياها ويذهبون إلى أنها آراء لا أساس لها، إذ لا فرق بين الشعوب في التفلسف، والتفكير الفلسفي يعد خطأ مشتركاً بين الناس جميعاً شرقاً وغرباً.

نضيف إلى ذلك قولنا بأن الفلسفة العربية يكفيها فخراً أنها أنارت عقول مفكرى أوروبا في وقت كانت فيه أوروبا تعيش في ظلام الجهل. لقد لجأت أوروبا إلى مفكرى العرب تأخذ عنهم تراث اليونان، بالإضافة إلى

تأثرها ببعض أفكار هؤلاء المفكرين، وذلك عندما ترجمت كتبهم من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية. وإن ذلك إن دل على شئ فإنما يدلنا على أهمية ما تركه فلاسفة الإسلام من تراث عميق غاية العمق.

قلنا إن للفلسفة العربية خلافا لما ذهب إليه بعض المستشرقين موضوعاتها و مناهجها التي تختلف من بعض زواياها عن الفلسفة اليونانية إذ أن الفلسفة الإسلامية قد تأثرت دون شك بالبيئة التي نشأت فيها والتربة التي نمت عليها وترعرعت. وحينما انتقل تراث فلاسفة اليونان وخاصة أرسطو، إلى مفكرى العرب، أدركوا ما فى مذهبه من آراء قد تخالف العقيدة الدينية الإسلامية، وما فيه من مشكلات تركها أرسطو دون حل قاطع. ومن هنا بدأ فلاسفة العرب فى سد الثغرات التى وجدوها فى مذهب أرسطو وغيره من فلاسفة يونانيين كأفلاطون وأفلوطين. ونظرا لإعجابهم الكبير بأرسطو وغيره من الفلاسفة اليونانيين، فإننا نراهم يحاولون الدفاع عن الفلسفة قائلين إنها لا تتنافى مع الدين. ومن هنا نشأ موضوع التوفيق بين العقل والوحي أو بين الفلسفة والدين أو بين الحكمة والشرعية، وذلك حتى تبدو الفلسفة وكأنها لا تخالف العقيدة الدينية وحتى لا يجد بعض المفكرين مجالا للطعن فى الفلسفة ومحاولة تصويرها على أساس أنها تخالف العقيدة الدينية الإسلامية. لقد حدث امتزاج عجيب بين الفكر الفلسفى اليونانى ، وفكر طابعه وجوهره الديانة الإسلامية. ولا شك أن الدارس المقارن بين الفكر الفلسفى اليونانى والفكر الإسلامى، يجد أن المسلمين قد واجهوا مشكلات جديدة لم يثرها باستفاضة فلاسفة اليونان.

ننتهى من هذا كله إلى التأكيد على القول بأن هناك فلسفة عربية لها قضاياها ولها مناهجها ولها مشكلاتها التى تختلف فى قليل أو فى كثير عن قضايا ومناهج ومشكلات الفلسفة اليونانية. وهذه كلها جديرة بأن يشتغل بها

ويبحث فيها - ارسوا الفلسفة سواء فى سرو او فى الغر - لأنها تعد كم قلنا - حلقة من حلقات التراث الفلسفى الإنسانى العالمى .

وقبل أن نتحدث عن مجالات الفلسفة العربية والتي أنكر أهميتها نفر من المستشرقين نود أن نشير إلى أن فلاسفة العرب إذا كانوا قد استفادوا استفادة كبيرة من المصدر الدينى، بحيث كان هذا المصدر من المصادر الأساسية التى شكلت وبلورت الكثير من آرائهم، فإنهم استفادوا أيضا من المصادر الخارجية الأجنبية وخاصة المصدر اليونانى، استفادة كبيرة - ولكى نتعرف على هذا الجانب، لابد أن نشير بإيجاز إلى حركة الترجمة، إلى تلك الحركة العظيمة التى عن طريقها استطاع فلاسفة الإسلام التعرف على أفكار اليونان وفلاسفتهم.

يمكننا القول بأن حركة الترجمة قد انتشرت انتشارا واسعا أيام العباسيين، بل يمكن أيضا أن نجد عند الأمويين اهتماما بالترجمة. فيروى عن الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية أنه أمر بترجمة كتب الكيمياء من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية. ومما يدلنا على ذلك ما يقوله ابن النديم فى كتابه "الفهرست". فهو يقول: كان خالد بن يزيد بن معاوية يسمى حكيم آل مروان وكان فاضلا فى نفسه وله همة ومحبة للعلوم، خطر بباله الصنعة (الكيمياء) فأمر بإحضار جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل بمصر وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى اللسان العربى، وهذا كان أول نقل فى الإسلام من لغة إلى لغة.

ولكن حركة الترجمة أيام الأمويين كانت محدودة وغير مزدهرة، أما فى أيام العباسيين فقد انتشرت حركة الترجمة انتشارا واسعا، إذا بدأ العمل المنظم فى نقل كتب مفكرى اليونان فى الطبيعة والطب والمنطق وغير ذلك من علوم وفلسفات.

ونود أن نشير إلى أنه كان يوجد الكثير من المترجمين، ومن بينهم يوحنا أو يحيى البطريق وعبد المسيح بن ناعمة الحمصي، وقسطا بن لوقا البعلبكي، وحنين بن اسحق واسحق بن حنين، وحبيش بن الحسن، وأبو بشرمتي بن يونس، وأبو زكريا يحيى بن عدى المنطقي، وأبو على عيسى بن اسحق بن زرعة.

وإذا كان بعض المترجمين قد وقعوا في قليل من الأخطاء وغلطوا بين المدارس الفلسفية اليونانية^(١)، فإننا لا نستطيع أن ننكر أنهم قاموا بجهود كبيرة في عملهم وأدوا عملهم هذا على خير وجه تحت تشجيع ورعاية الخلفاء العباسيين، وخاصة بعد إنشاء بيت الحكمة الذي احتوى كتباً وضعت بلغات شتى، يونانية وفارسية وهندية وكانت الترجمة في بدايتها تتم من اللغة اليونانية إلى السريانية، ثم بعد ذلك أمكن نقل الكتب من اللغة اليونانية إلى اللغة العربية مباشرة. وقد استطاع فلاسفة الإسلام باعتمادهم على هذه الترجمات معرفة آراء المدرسة الآيونية، والمدرسة الآيلية، آراء فيثاغورث وآراء السوفسطائيين وغير السوفسطائيين وسقراط وأفلاطون وأرسطو، ولولا ذلك ما عرفوا آراء أفلوطين واطلقوا عليه اسم الشيخ اليوناني.

أما عن تحديد مجال الفلسفة العربية فإننا نود أن نشير إلى أننا إذا أردنا تحديد مجال الفلسفة العربية، فإننا نجد خلافاً بين الباحثين حول تحديد مجال هذه الفلسفة العربية.

فقد نفهم الفلسفة العربية بمعنى الآثار التي تركها لنا فلاسفة عاشوا في المشرق العربي كالكندي والفارابي وابن سينا، وفلاسفة عاشوا في المغرب العربي كابن باجه وابن طفيل وابن رشد.

^(١) راجع في ذلك كتابنا: الفلسفة العربية - مدخل جديد - دار لو نجمان - القاهرة.

وقد نضم داخل دائرة الفلسفة العربية متكلمي الإسلام على اختلاف فرقهم كالخوارج والشيعة والمرجئة والجبرية، والمعتزلة من أمثال واصل بن عطاء وأبى الهذيل العلاف وإبراهيم بن سيار النظام والأشاعرة من أمثال أبى الحسن الأشعري مؤسس فرقة الأشاعرة والجويني والباقلاني وعبد القاهر البغدادي.

فأكثر هذه الفرق الكلامية وخاصة المعتزلة والأشاعرة قد قدمت لنا فكرا يعبر عن المزج بين المصادر الإسلامية والمصادر الخارجية اليونانية. لقد استفادوا استفادة كبيرة من آيات القرآن الكريم وبذلوا جهدهم في تأويل هذه الآيات. بل إن هذا المصدر الديني كان واضحا منذ بداية نشأة المعتزلة. فلو رجعنا إلى كتاب الملل والنحل للشهرستاني لوجدناه يقول: إن واصل بن عطاء مؤسس الفرقة حين اختلف مع أستاذه الحسن البصري في قضية مرتكبي الكبائر، اعتزل مجلسه واستقل في زاوية من زوايا المسجد يلقي الدروس وحوله بعض الناس ومنهم عمرو بن عبيد الذي كان عضوا بارزا من رجال المعتزلة. وعندئذ قال الحسن البصري: اعتزلنا واصل. فسمى هو وأصحابه بالمعتزلة.

ويقول البغدادي في كتابه "الفرق بين الفرق": إن المعتزلة سميت بهذا الاسم لاعتزالها قول الأمة في دعواها أن الفاسق من أمة الإسلام لا مؤمن ولا كافر.

وما يقال عن المعتزلة، يقال أيضا عن الأشاعرة. إن الأشعري الذي التحق في بداية حياته بالمعتزلة ودرس أصول الاعتزال على الجبائي الذي يعد من أشهر رجال المعتزلة في تلك الفترة، قد خرج بعد ذلك على المعتزلة. وقد يكون خروجه راجعا إلى أسباب دينية.

وإذا كنا نجد عند الفرق الإسلامية مصادر إسلامية لفكرهم، فإننا نجد أيضا عندهم استفادة من المصادر الأجنبية ومنها المصدر اليوناني الذي ظهر

عند المعتزلة وخاصة المتأخرين منهم. ويبدو ذلك واضحاً في أصولهم الخمسة التي قالوا بها وهي التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. إن الاستفادة من المصادر الخارجية تبدو واضحة عند المعتزلة المتأخرين بصفة خاصة.

علم الكلام إذن له علاقة وثيقة بالفلسفة، إذ أنه اصطبح بها وتأثر بعلومها تأثراً كبيراً وقد ذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، منهم ابن خلدون في مقدمته، إذ رأى أن مسائل علم الكلام قد اختلطت بالفلسفة بحيث لا تتميز واحدة منهما عن الأخرى. وأشار إلى ذلك أيضاً عضد الدين الإيجي في كتابه "المواقف" والبيضاوي في كتابه "الطوالع" كما ذهب إلى ذلك الرأى بعض الباحثين والمستشرقين الأوروبيين أمثال جولد زيهر في كتابه "العقيدة والشرعية في الإسلام" ورينان Renan في كتابه "ابن رشد والرشدية".

ونود أن نشير إلى أننا إذا كنا نجد ارتباطاً بين علم الكلام وبين الفلسفة، إلا أننا لا بد أن نضع في الاعتبار أننا نجد خلافاً بينهما من حيث المنهج ومن حيث الموضوع أيضاً.

وقد ندخل في دائرة الفلسفة العربية، متصوفة الإسلام سواء كانوا من أصحاب التصوف السني كرابعة العدوية والغزالي أو كانوا من أصحاب التصوف الفلسفي كالحلاج ومحيي الدين بن عربي والسهري ووردى المقتول وابن سبعين. صحيح أننا لا نجد استفادة ظاهرة عند أصحاب التصوف السني أو من جانب الزهاد والعباد بالمصادر الخارجية، ولكننا نجد استفادة من جانب المعبرين عن التصوف الفلسفي حين دراستهم للحلول والإتحاد ووحدة الوجود والبقاء والفناء، وإن كان المنهج الذي يسير فيه الفلاسفة غير المنهج الذي يسير فيه الصوفية والذي يعد منهجهم منهجاً يعتمد على الجانب القلبي الذوقي الوجداني.

وقد ندخل في دائرة الفلسفة العربية، علم أصول الفقه والذي يسمى أيضاً بعلم أصول الأحكام. وهذا العلم في رأى بعض الباحثين، يتضمن بعض

المبادئ الكلامية ومن هؤلاء الباحثين الشيخ مصطفى عبد الرزاق الذى يقول فى كتابه "تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية: وإنه إذا كان لعلم الكلام ولعلم التصوف من الصلة الفلسفية، ما يسوغ جعل اللفظ شاملا لهما، فإن علم أصول الفقه المسمى أيضا علم أصول الأحكام، ليس ضعيف الصلة بالفلسفة، ومباحث أصول الفقه تكاد تكون فى جملتها من جنس المباحث التى يتناولها علم أصول العقائد الذى هو علم الكلام، بل أنك لترى فى كتب أصول الفقه أبحاثا يسمونها "مبادئ كلامية" هى من مباحث علم الكلام.

ولكننا لا نوافق على هذا رأى الذى قال به نفر من الباحثين وعلى رأسهم الشيخ مصطفى عبد الرزاق. إن خصائص الفلسفة، تختلف عن خصائص علم أصول الفقه، بل إن المعنى الدقيق كما سبق أن أشرنا يودى بنا إلى القول بأن فلاسفة العرب وحدهم هم الذين يدخلون فى إطار ما نطلق عليه الفلسفة العربية.

وقد نضم أيضا داخل دائرة الفلسفة العربية، الجانب العلمى من بحوث مفكرى وفلاسفة العرب إذ أن علاقة الفلسفة بالعلم تعد علاقة وثيقة وخاصة إذا وضعنا فى الاعتبار أن الفلسفة وخاصة فى العصر القديم والعصر الوسيط كانت تبتلع كل العلوم فى جوفها وذلك على أساس أنها تتضمن العلوم النظرية والعلوم العملية، وإذا وضعنا فى الاعتبار أيضا أن أكثر فلاسفة العرب كانوا بالإضافة إلى كونهم فلاسفة، علماء فالكندى مثلا قد برع فى الرياضيات وله رسائل كثيرة فى الطبيعيات. وابن سينا كان طبيعيا وألف كتابا من أعظم الكتب فى مجال الطب وهو كتاب القانون، بالإضافة إلى رسائل كثيرة فى الجوانب الطبيعية. وابن رشد الفيلسوف المغربى الأندلسى له العديد من الكتب والرسائل فى مجال الطب وعلى رأسها كتابه القيم "الكليات".

يضاف إلى ذلك، أننا نجد مجموعة من أعظم العلماء تركوا بصمات واضحة فى كل فرع من فروع العلم ومنهم على سبيل المثال الحسن بن الهيثم فى مجال الرياضيات وجابر بن حيان فى مجال الكيمياء والبـيرونى فى مجال علم الفلك أى علم الهيئة وغيرهم كثيرون.

بعد هذا كله نقول إننا نجد أفضالاً عديدة للمجهودات التي قام بها المستشرقون. ولولا هذه المجهودات من جانبهم، لما استطعنا التوصل إلى كتبنا التراثية. لقد تعلمنا منهم المنهج أيضاً. ومن النادر أن تجد ميداناً من ميادين الفكر العربي، إلا للمستشرقين فيه فضل. إن لهم البصمات القوية موضوعاً ومنهجاً. ومن الظلم التعسف في الحكم عليهم. ولكن ماذا نفعل حيال أناس من أشباه الباحثين والدارسين يحولهم توجيه الاتهامات الظالمة إلى المستشرقين دون أن يدركوا أعمالهم العظيمة ومناهجهم الدقيقة والأكاديمية. نقول هذا ولا نمل من تكراره، طالما أننا ما زلنا نجد العديد من اتهامات الأشباه ضد مجهودات المستشرقين وما أعظمها وما أروعها من مجهودات.

الفصل الثامن

روايات الخيال العلمى (برؤية نقدية)

"ينبغى علينا أن نضع فى اعتبارنا أن العلم فى تطور مستمر. وكم نجد فى روايات الخيال العلمى قديماً من تصورات كنا نحسبها داخلة فى إطار اللامعقول، إطار الأسطورة، ثم وجدنا بعد ذلك تلك التصورات وقد أصبحت بين أيدينا وقائع فعلية وتطبيقات تكنولوجية."

الفصل الثامن

روايات الخيال العلمى (برؤية نقدية)

لا أشك فى أن روايات الخيال العلمى تعد من فنون الأدب الهامة والتى تحظى باهتمام كبير من جانب الدارسين والأدباء والمهتمين بتاريخ الأدب عامة، وروايات الخيال العلمى على وجه الخصوص. ولا بد أن نضع فى اعتبارنا منذ البداية أن هذا اللون من الروايات، روايات الخيال العلمى إذا كان لم يحظ باهتمام كبير من جانب الدارسين للأدب، فإن من أسباب ذلك الخلط بين الفن والنقد من جهة، وأيضاً عدم التفرقة بين الخيال العلمى من جهة، والخرافات والأساطير من جهة أخرى... إلى آخر تلك الأسباب التى جعلت أغلب أحكامنا على روايات الخيال العلمى يسودها عدم الدقة والأخطاء التى لا حصر لها فى مجال نقد روايات الخيال العلمى والنظر إليها نظرة غير صحيحة.

فإذا كان الأدب ضرباً من ضروب الفنون التى لا يمكننا فصلها عن الرؤية الذاتية، رؤية الأديب، فإن النقد لا يصح أن ننظر إليه من خلال الرؤية الذاتية، بل إن النقد يعد فى الأساس علماً. ومن هنا فيجب علينا معشر الأدباء والنقاد أن نفرق بين الفن من جهة، وبين نقد الأعمال الفنية من جهة أخرى. ويقىنى أننا إذا التزمنا بذلك التزاماً دقيقاً فإننا سنقوم بتصحيح كثير من الأحكام التى يجانبها الصواب، ومن بينها الأحكام التى تدخل فى إطار روايات الخيال العلمى، سواء من جهة الرواية فى حد ذاتها، أو من جهة الأحكام النقدية التى تصدرها على تلك الأنواع من الروايات، روايات الخيال العلمى.

أليس من الصحيح أن نقول: الفن أنا والعلم نحن. إن هذه العبارة تدلنا عل أن البعد الذاتى إذا كان موجوداً فى الأعمال الفنية الأدبية، فإننا إذا نظرنا إلى النقد كعلم، فينبغى علينا إذن أن نلتزم بالقواعد العامة المشتركة والموضوعية، وذلك حتى لا نخلط بين مجال الفن من جهة، والنقد من جهة أخرى.

ينبغى علينا أيضاً أن نضع فى اعتبارنا أن العلم فى تطور مستمر. وكم نجد فى روايات الخيال العلمى قديماً من تصورات كنا نحسبها داخلية فى إطار اللامعقول، فى إطار الأسطورة، ثم وجدنا بعد ذلك تلك التصورات التى كنا نحسبها خيالاً فى خيال، وقد أصبحت بين أيدينا وقائع فعلية، بل تطبيقات تكنولوجية.

ويقينى أننا إذا وضعنا ذلك كله فى اعتبارنا، فإن ذلك سيكون كفيلاً بأن ننظر إلى موضوع إبداعية الخيال العلمى فى مجال الرواية، نظرة صادقة، نظرة موضوعية ونعتقد من جانبنا أن الجانب الإبداعى فى قصص الخيال العلمى سواء فى أوروبا أو عند العرب، لا يقل فى مستواه عن الجوانب الإبداعية التى نجدها فى ميادين وفنون الأدب الأخرى شعراً كان أو نثراً، وفى الملحمة والمسرحية والخطابة. وهذا يؤدى بنا إلى القول بأنه من الواجب علينا أن نهتم بالتركيز على روايات الخيال العلمى، تلك الروايات التى تتطلق فيها الطاقات الإبداعية للأديب أو الكاتب. وهل يمكن أن نقلل من أهمية قصص وروايات تدخل كلها أو بعض منها فى إطار الخيال العلمى والذى يتعلق من جوانبه باليوتوبيا العلمية أو باليوتوبيا المثالية، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر جمهورية أفلاطون والمدينة الفاضلة للفارابى وتديير المتوحد لابن باجه، وجول فيرن، وه. ج. ويلز، وألدوس هكسلى، وجورج أورويل، وتوفيق الحكيم.

إننا نستطيع التعرف على كثير من الجوانب الإبداعية فى روايات الخيال العلمى إذا ركزنا على تلك الروايات التى كتبت قديماً وأيضاً الروايات التى كتبها أدباء الغرب بصفة خاصة. أما ما نجده عند بعض كتابنا وأدبائنا المعاصرين من روايات يزعم لها أصحابها أنها تدخل فى مجال الخيال العلمى، فإن أكثرها للأسف يعد من قبيل الأعمال المشوهة والناقصة والتى لا نجد فيها طاقة إبداعية أو تصوراً جديداً من جانب مؤلفيها وكتابها، بل إن أكثرها أيضاً لا يخلو من تأثر إن لم يكن نقلاً شبه تام من الأعمال الأدبية القديمة تارة ومن كتابات الغرب تارة أخرى.

بالإضافة إلى أننا نلاحظ فى كتابات العرب المعاصرين من الأدباء خلطاً شبه تام بين الجوانب الدينية والجوانب الإبداعية الأدبية، كما نلاحظ نقصاً فى المعلومات العلمية وغيرها من الأشياء التى نلاحظها والتى تجعلنا نقول إن تلك الأعمال رغم الجهد المبذول فيها، فإنها لا تدخل دخولا مباشراً فى مجال الخيال العلمى ولا تنطبق عليها القواعد الفنية والأدبية. وليرجع القارئ إلى العديد من روايات كتاب أمثال مصطفى محمود وصبرى موسى وإيهاب الأزهرى ونهاد شريف. إن أكثر هذه الروايات لا تكشف عن جوانب إبداعية ولا نجد عند أصحابها رؤية أدبية أو علمية. لا نجد عند مؤلفيها اتجاهات محددة مما يجعلنا نقول إننا إذا طبقنا أسس الإبداع الفنى. إذا طبقنا القواعد الأدبية، فإننا سنستبعد أغلب أعمالهم من ميدان الرواية العلمية، أى رواية الخيال العلمى.

ولكى نكشف عن الجوانب الإبداعية فى روايات الخيال العلمى، فإنه لابد لنا أن نلاحظ أن الروايات الكبرى والخلقة إنما تكشف عن رؤية أو نظرية عند مؤلفيها. إننا نستطيع التعرف على آراء الأدباء الذين كتبوا تلك الروايات من خلال الحوار الدائر بين أشخاص الرواية أو القصة. وقد يتيح لك كاتب هذه السطور دراسة أكثر الأعمال الأدبية التى تدخل فى إطار الخيال

العلمى بكل أنواعه ومجالاته، وقد توصلت إلى القول بأن الأدباء الكبار فى الغرب بصفة خاصة إنما يكشفون عن طريق روايات الخيال العلمى التى قدموها لنا عن رؤية نقدية تارة، ومستقبلية تارة أخرى، بالإضافة إلى خلفيتهم العلمية والفلسفية التى يلاحظها الدارس بين ثنايا السطور التى تتألف منها الرواية أو القصة.

ودلينا على ذلك أن تلك الروايات إنما تنير العديد من القضايا التى تتعلق بقضايا التقدم العلمى والأخلاق والخير والشر والتشاؤم والتفاؤل والحرية والجبر وهل نتقدم إلى الأمام أم أننا نرجع إلى الوراء وهل العلم لديه القدرة على حل مشكلات الإنسان وهكذا إلى آخر القضايا البالغة الأهمية والتى تكشف عن جوانب إبداعية خلقة عند أصحابها. إنها قضايا لا نجدها واضحة ولا محددة فى الروايات العربية الحديثة والتى يزعم لها أصحابها أنها تدخل فى إطار روايات الخيال العلمى، فى حين أنها لا تكشف عن قيم إبداعية عند مؤلفيها، والفرق بينها وبين الأسس التى ينبغى توافرها فى روايات الخيال العلمى، أكثر من الفرق بين الإيس والجن، بين المشرق والمغرب. إن أكثرها لا يزيد عن كونه مجموعة من التصورات الفجة السانجة بل السطحية والتى لا تكشف عن رؤية نقدية أو مستقبلية ومن هنا فإننا نعتقد من جانبنا بأنه من الضرورى استبعاد تلك الروايات من المجال الإبداعى الخاص بروايات الخيال العلمى، وبحيث نعتقد أن الجوانب الإبداعية فى روايات الخيال العلمى لا تتكشف لنا إلا من خلال الأعمال الأدبية القديمة ومنها ما يدخل فى إطار اليوتوبيا أو المدن الفاضلة وهذه نجدها عند مؤلفين فى الغرب وفى البلدان العربية أيضاً وذلك على النحو الذى سبق أن أشرنا إليه، ويمكن أن نضيف إلى تلك الأعمال الأدبية، الأعمال التى نجدها عند الأدباء المحدثين والمعاصرين فى الغرب بصفة خاصة. وهذه الأعمال الأدبية الغربية تكشف

عن طاقات إبداعية خلّاقة وتطبق عليها أسس الإبداع الفنى كما يحددها لنا نقاد الأدب وعلماء النفس.

وإذا كانت روايات الخيال العلمى تكشف لنا عن رؤية مستقبلية، فإن ذلك يعنى أنها تتميز بالبعد الإبداعى. إذ أن الأديب الحق هو الذى لا يقف على سطح الأرض بطريقة مباشرة، بل إنه عن طريق ذكائه الحاد إنما يرى أبعد مما يراه الآخرون. إنه كمن يقف فى مكان أعلى من المكان الذى يقف فوقه عامة الناس والذين لا يرون أبعد من المجال الذى يتحركون فيه. أما هو كأديب حق، كأديب له شعلته الإبداعية، فإنه يمد بصره بحيث يخترق حجاب الجدران الأربعة التى يتحرك فيها عامة الناس، وذلك حتى يمد بصره نحو المستقبل، نحو الأمام البعيد، إن صح هذا التعبير.

هذه الجوانب الإبداعية نجدها فى العديد من القصص والروايات. ولا بد أن نلاحظ أننا قد نجد مجموعة من تلك القصص والروايات لا تعبر فى بعض أجزائها عن الخيال العلمى، بل فى بعض مواضعها، ولكن هذا لا ينفى أنها يمكن أن تدخل فى إطار قصص وروايات الخيال العلمى. ومما يدلنا على إبداعية تلك الروايات أنها كانت مؤثرة فى تشكيل وجدان العديد من الأدباء والمفكرين والعلماء طوال عصور عديدة.

فإذا رجعنا على سبيل المثال إلى الأدب المصرى القديم، وجدنا أقدم صورة من صور قصة السندباد البحرى، أو أقدم صورة من صور قصة روبنسن كروزو وقصة حى بن يقظان والتى يرجح البعض أن أصولها عند أدباء ومفكرى العرب إنما كانت قديمة جداً وأنها انتقلت إليهم عن طريق مدرسة الإسكندرية القديمة التى تفاعلت فيها الحكمة الشرقية القديمة مع الحكمة اليونانية.

إن هذه القصة، قصة السندباد البحرى فى الأدب المصرى القديم أو قصة الملاح الذى تحطمت سفينته تعد ترجمة ذاتية - فيما يقول ول ديورانت

في كتابه قصة الحضارة - لحياة ملاح تفيض حياة وشعوراً. إن هذا الملاح يقول في مطلع قصته: سأقص عليك شيئاً حدث لي حين اتجهت نحو مناجم الملك وتزلت البحر في سفينة طولها مائة وثلاثون قنماً وعرضها ستون وفيها مائة وعشرون من صفوة الملاحين المصريين الخبيرين بمعالم الأرض ومعالم السماء وقلوبهم أشد بلبساً من قلوب الأسود يتقلبون بأعاصير البحر وعواصف البر قبل أن تثور. وهبت علينا عاصفة ونحن لا نزال في البحر ونفقت الرياح حتى كنا نطير أملها وتلوت موجة علوها ثمانية أترع. ثم تحطمت السفينة ولم ينج أحد من كل فيها، وألفت بي موجة من أمواج البحر في جزيرة قضيت فيها ثلاثة أيام بمفردي لا رفيق لي إلا قلبي فلم تحت شجرة وأعلق الظلال ثم مدت قلمي أبحث عما أستطيع أن أضفه في فسي فوجدت أشجار التين والعنب، وكان في الجزيرة سمك ودجاج ولم ينقصها شيء قط، وبعد أن صنعت لنفسى جهازاً أو قد به الفار، أشعتها وقمت للآلهة قرباناً مشوياً.

والتفاصيل التي نجدها في هذه القصة تدخل في إطار الخيال العلمي وتكشف عن خلفية علمية عند كتابها كما تعرض الكثير من المشكلات التي تقوم على المزج بين الحوادث الطبيعية التي يمكن تفسيرها، وخوارق الطبيعة أي الأشياء غير المعقولة التي لا يمكن تفسيرها تفسيراً علمياً معقولاً، وإن كنا نجد فيها رؤية مستقبلية لا تخلو من أسس علمية.

ونجد أيضاً بعض جوانب الخيال العلمي والتي لا تخلو من جوانب إبداعية، في قصة ورواية حي بن يقظان لابن طفيل والتي قد تتشابه من بعض جوانبها مع قصة السندباد البحري في مصر القديمة والتي أشرنا إليها منذ قليل.

لقد وجد "حي" بجزيرة مهجورة، وحينما اشتد الجوع - "عثر بكى واستغاث حول الحركة بحيث سمعته طيبة فذقت ولدها، فحينما سمعت

الصوت ظننه ولدها فتتبع الصوت وهى تتخيل ولدها، فحنت الظبية على الطفل وأروته لبنها وأخذت تربيته وتدفع عنه الأذى.

ويعرض علينا ابن طفيل الكثير من التفاصيل التى تدخل فى مجال الخيال العلمى والتى لا تخلو من الإستناد فى نفس الوقت إلى أسس علمية. إنه يعرض علينا العديد من الجوانب التى تتعلق بالجسم والنفس وحقيقة الموت والحركة والسكون وموجودات العالم العلوى وموجودات العالم السفلى والصلة بين كل عالم والعالم الآخر، وكيفية اكتشاف النار من جانب "حى"، وكيف توصل إلى استخدام بعض الأشياء كغذاء له وكملابس له وكمسكن له إلى آخر التفاصيل التى لا تخلو من جوانب إبداعية.

بل إنه مما يملنا على أن الرؤية الإبداعية لا بد وأن ترتبط بموقف للأديب أو مذهب يعبر من خلاله عن موقفه الأدبى أو الفكرى أو الفلسفى أننا نجد فى رواية حى بن يقظان عرضاً لآراء ابن طفيل الأديب والمفكر الأندلسى فى فلسفة الخلود وفلسفة الدين وغيرها من المشكلات الفكرية الكبرى.

إننا نقول ونكرر القول بأن إبداعية روايات الخيال العلمى لا يمكن أن تتحقق إلا إذا كشفت تلك الروايات عن موقف لمؤلفها، عن اتجاه، عن رؤية شمولية، عن مبررات للقول برأى محدد دون رأى آخر. وعلينا لكى ندرك ذلك جيداً أن نرجع إلى ما كتبه أفلاطون (محاورة أيون) وأرسطو (كتاب الشعر) وسانتيانا (الشعور بالجمال) ودويل (العملية الإبداعية) وتودوروف (الرمز والتفسير) وبرتراند رسل (النظرة العلمية) وليفى بريل (العقلية البدائية) والفارابى (آراء أهل المدينة الفاضلة) وابن باجه (تدبير المتوحد) وجيمس فريزر (الغصن الذهبى) ويوسف مراد (مبادئ علم النفس العام) وجيلفورد (ميادين علم النفس).

وروايات الخيال العلمى تستند فى بعض جوانبها إلى الأسلوب الرمزى. ونعتقد من جانبنا أن هذا الأسلوب الرمزى يكشف عن إبداعية دقيقة فياضة عميقة وكم ارتبط هذا الأسلوب الرمزى بمواقف ارتبطت بالرؤية الإبداعية كالشك والقلق والحيرة والبحث عن مصير الإنسان وعن عالم الغد وكيف سيكون مستقبل البشرية والصلة بين الكوكب الأرضى وما قد يوجد من حياة فى الكواكب السماوية وعالم الفضاء. إن هذه الروايات تعتمد على نوع من الحدس العلمى والفنى والجمالى، ولا تقوم على مجرد سرد حوادث يومية عادية تقع لكل الناس، بل تستند إلى تجربة جمالية إبداعية لا يمكن أن يعبر عنها إلا الأديب الصادق، الأديب الذى له جهازه الفكرى العميق. الأديب الذى لديه القدرة على إدراك اللحظة الخاطفة وكأنها اللحظة أو الوقت الذى يتحدث عنه الصوفية إن وعيه العادى يكاد يتلاشى حين ينظر بعين الفن والوجدان، العين الثاقبة القوية الإشعاع وكأنه يرى عوالم غير العوالم التى يعيش فيها كإنسان عادى.

نعم إن هذه كلها جوانب إبداعية لابد أن نأخذها فى اعتبارنا ونحن نقرأ أعمال كثير من أدباء الخيال العلمى ومن بينهم ويلز وفيرن وصمويل بتلر وفرنسيس بيكون فى رائعته "أطلانتس الجديدة" ألم يتبأ هؤلاء الأدباء بأشياء تمت وتحققت بعد ذلك. ألم يتحدث بعضهم عن عوالم فضاء قبل أن يصل الإنسان إلى القمر. ألم يكتب ألدوس هكسلى عن عالم جديد، بل عوالم جديدة لا يمكن تفسير ما يكتبه عنها إلا بأن نقول بقدرته الإبداعية التى لا يمكن فصلها عن حصيلته الفكرية والعلمية. ألم يتحدث جول فيرن، هـ. ج. ويلز وغيرهما من أدباء كبار عن حرب الكواكب وعن رحلة إلى القمر، وعن سفن الفضاء.

بل إن العديد من النظريات العلمية كانت فى بدايتها مجموعة من الإرهاسات والتنبؤات التى تدخل من بعض زواياها فى المجال الأدبى. وهل

يمكننا فصل العلم عن الخيال العلمي. هذا الخيال العلمي الذي نجده من بعض رواياه حتى في الإلياذة والأوديسة لهوميروس.

والخيال العلمي له طاقته الإبداعية. إننا نجد ذلك واضحاً في العديد من المراحل والتطورات التي مر بها الخيال العلمي. ومن المعروف أن الخيال العلمي إذا تحقق فإنه لا يصبح بعد ذلك مادة للخيال العلمي في رواية في المستقبل. نوضح ذلك بالقول بأننا إذا كنا نجد مجموعة من الإجازات العلمية التي تحققت وكثفت في بدايتها من صور الخيال العلمي عند الأدباء من أمثال من أشرنا إليهم، فإن الأديب بعد تحقق مجموعة من الإجازات العلمية، لابد وأن يتخيل عوالم جديدة ومجالات أخرى غير المجالات التي تم تحقيقها على أيدي العلماء. والخيال لا حدود له ومن هنا فقلنا نتوقع أن يستمر أدب الخيال العلمي طوال حياة الإنسان على وجه الأرض، تملأ كما نقول بوجود مرحلة للعلم عند أينشتاين جاءت بعد مرحلة للعلم عبر عنها أرسطو قبل الميلاد، وعبر عنها نيوتن بنظرية الجاذبية قبل عدة قرون من أينشتاين.

ومن الواضح أن روايات الخيال العلمي إذا كثفت تستند في بعض جوانبها إلى الأسطورة وإلى الخيال، وإلى التجارب الشخصية للأديب، فإن هذا يدلنا على أهمية الروايات العلمية، إذ أن هذه الأشياء تعد ضمن مصادر الأدب المسرحي العالمي، والمسرح فن من الفنون الهامة.

وإذا كثفت روايات الخيال العلمي تعتمد في بعض جوانبها على اللغة الرمزية، فإن استخدام الرمز وتوظيفه في هذه الروايات له دلالات العميقة. إنها عن طريق لغة الرمز تعيد تشكيل العالم من خلال رؤية كاتبها. ليس هذا فحسب، بل إنها تقوم بتصوير عوالم جديدة وكائنات جديدة وعلاقات مبتكرة بين الأشياء.

هذه الجوانب نجدها في أوضح صورها في الأعمال التي تركها لنا أدباء الغرب بصفة خاصة، وهذا لا يقلل من محاولات بعض أدبائنا المعاصرين من أمثال توفيق الحكيم، وإن كان توفيق الحكيم متأثراً ببعض كتابات الغربيين من أمثال هـ. ج. ويلز وعلى القارئ الرجوع إلى بعض روايات توفيق الحكيم أديبنا العظيم، ومن بين تلك الروايات والقصص، "قلى مليون سنة" و"رحلة إلى الغد" و"الطعام لكل فم" وغيرها من الروايات والقصص التي لا تخلو من تعبير عن أدب الخيال العلمي وما فيه من طاقات إبداعية للأديب أو المفكر.

والواقع أننا في أمس الحاجة إلى إعادة النظر في كثير من أحكامنا حول روايات وقصص الخيال العلمي. إن أكثرنا للأسف الشديد يخلط بين روايات الخيال العلمي وبين الأعمال الفنية تماماً كما نخلط بين خصائص العمل العلمي والعمل الفني الأدبي. أكثرنا يظن أن العلم قد توقف عند إنجازاته الحالية ومن هنا ينظر إلى روايات الخيال العلمي نظرة خاطئة حين يعثر على مجالات لم تتحقق حتى الآن في صورة إنجازات وتطبيقات علمية، تماماً كما يخلط أكثر نقادنا بين عمل المؤرخ وعمل الأديب حين يكتب رواية تاريخية. كل هذه تعد أحكاماً خاطئة نجدها عند نقادنا من العرب، ونادراً ما نجدها عند نقاد البلدان الأوروبية. وارجعوا أيها السادة القراء إلى الكتب الهامة في مجال النقد الأدبي والتي أشرنا إلى بعضها منذ قليل عند كتاب أوروبيين وستجدون أن أحكامنا نحن العرب حول مشكلة الإبداع في روايات الخيال العلمي تحتاج منا إلى إعادة نظر وإعادة تقييم. إننا نخطئ كل الخطأ حين ننظر إلى حقيقة الإبداع في روايات الخيال العلمي وكأنها معزولة عن النظرة الشمولية للأديب الذي يحاول من خلال رواياته في مجال الخيال العلمي النظر إلى العالم نظرة مستقبلية، النظر إلى عالم جديد تسوده قيم غير القيم السائدة الآن. وكنا نود ضرب العديد من الأمثلة من خلال كل

روايات الخيال العلمى عند الأدباء الغربيين بصفة خاصة حتى يعرف القراء أن الأديب الذى يكتب فى مجال الخيال العلمى يملك قدرة إبداعية يعبر من خلالها عن مذهبه الفكرى واتجاهه الفلسفى، ولكننا اكتفينا بالأسس النظرية وبيعض الأمثلة التى تبين لنا حقيقة الإبداع فى روايات الخيال العلمى، وكيف أن الإبداع فى تلك الروايات لا يقل بحال من الأحوال عن الإبداع الذى نجده فى صور ومجالات الأدب الأخرى وما أكثرها. إنها دعوة من جانبنا نرجو أن تجد صداها عند نقادنا من العرب وعند من يريدون مستقبلاً للكتابة فى مجال الرواية العلمية.

الفصل التاسع

رؤية نقدية حول ما يسمى بأدب المرأة في عالمنا العربي

"منذ سنوات بعيدة، أخذت في قراءة الإنتاج المطبوع لمجموعة كبيرة من الكتاب والكاتبات، وقد ركزت بصفة خاصة وفي فترة من الفترات على إنتاج الكاتبات، وقد أثار دهشتي أن إنتاج الكاتبات، إنتاج النساء لا يدخل في دائرة الأعمال الأدبية من قريب أو من بعيد".

الفصل التاسع

رؤية نقدية حول المرأة في عالمنا العربي

لا أخفى على السادة القراء أنني ترددت كثيراً في الرد على تلك الحلقة^(١) الهوجاء والتي قامت على مجموعة كبيرة من الشتم التي نادراً ما نجد ما في أي قاموس للشتم. الحلقة التي قامت بها مجموعة من الكتبات والتي تصور خير تصوير طبيعة المرأة العربية، تلك الطبيعة التي تقوم على الخط والرغى والثرثرة والخروج عن الموضوع. نعم ترددت كثيراً في أن أقوم بالرد وخلصه أنني تعلمت من الكتات والأديب الكبير عجل العقال أن خير طريق للسخرية من الرأي وتجاهله، هو عدم القول بالرد عليه، إذ أن الرد قد يتضمن نوعاً من الإعتراف بأهمية الرأي الذي نقوم بالرد عليه، تلمأ كما نقول إن الضرب في الميت حرام، وهل نجد آراء ميتة مثل تلك الآراء التي تنشرت على لسان بعض الكتبات في تلك القضية قضية الألب والمرأة.

ولكنني وجدت أنه من الضروري القيام بالرد لتوضيح موقفى من جهة، ولانقضاء الآراء الإيجابية والبناءة التي وردت في رد بعض الكتبات وبعض القراء.

والواقع أننا في غياب الحركة النقدية، في غياب حلة اليقظة والرجوع إلى الكسل والنوم، يمكننا أن نفعل أي شيء. يمكننا أن نقول عن مجموعة من الكلمات المتقاطعة إنها تعد أدباً. يمكن لأي كاتب أو كاتبة أن يكتب أي كلام

(١) أثرت هذه الحلقة بحملة الإحالة والطعن التي تصدر بالتفاهة.

من نوع الكلام الذى يدور فى صالونات المنازل وداخل المطبخ، ثم تقوم أبواق الدعاية بالنفخ فيه وبحيث يتحول الكلام الفارغ، الكلام بلا معنى، كلام الثرثرة إلى أن يقال عنه إنه من الأعمال الأدبية العظيمة، والروايات الخالدة. لقد أصبحنا فى حالة يرثى لها. فقدنا معيار التمييز بين الأشياء. لم نعد نجد لدينا الشجاعة فى الرد والنقد. إننا فى الواقع فى أمس الحاجة إلى إعادة تقييم حركتنا الفكرية والأدبية والنقدية. وإذا لم نفعل ذلك وبكل شجاعة، فإن العالم سيسخر منا لأننا فضلنا المجاملة على النقد الجاد. قمنا بالدعاية لأعمال مكتوبة يقال عنها ظلماً وعدواناً إنها داخلية فى دائرة الأدب، والأدب منها براء. أعمال لا تساوى ثمن الحبر الذى استهلك فى طبعتها. أعمال تؤدي بالإنسان إلى حالة من التخلف الذهني. أعمال لا تدخل فى دائرة الأدب من قريب أو من بعيد. ومن هذه الأعمال، ما تسميه كاتبات مصر، بأنه أدب، وكأنهن يحسبن أن العمل الأدبي ليس له قواعد وليس له شروط محددة، شروط ينبغي مراعاتها.

ومنذ سنوات بعيدة أخذت فى قراءة الإنتاج المطبوع لمجموعة كبيرة من الكتاب والكاتبات وقد ركزت بصفة خاصة على إنتاج الكاتبات لأسباب عديدة سيعرفها القراء والقارئات بعد قليل. وقد أثار دهشتى أن إنتاج الكاتبات، إنتاج النساء لا يدخل فى دائرة الأعمال الأدبية من قريب أو من بعيد. لم أجد فى عالمنا العربى من مشرقه إلى مغربه امرأة واحدة يمكن أن نقول عنها إنها أديبة حتى إذا استعملنا الرأفة وجبران الخاطر. لقد فوجئت بأننا ما زلنا نخلط بين الكتابة الصحفية والكتابة الأدبية. أصبحت كل من تكتب فى الصحف تظن نفسها أديبة. تماماً كما نقول عن الشباب الذى يتم تعيينه بوزارة الثقافة، إنه لابد أن يكون مثقفاً، لابد أن يكون أديباً، لابد أن يكون مفكراً، فى الوقت الذى لا نجد صلة تربطه بالثقافة والأدب والفكر إلا فى كونه يعمل ولو عملاً إدارياً بوزارة الثقافة مثلاً.

لقد ركزت كما قلت منذ سنوات بعيدة، على قراءة إنتاج الكاتبات وذلك لمعرفة حقيقة الأقوال التي قيلت عن المرأة بصفة عامة، والمرأة العربية بصفة خاصة، الأقوال التي نجدها عند كثير من كبار الكتاب والمفكرين والفلاسفة.

فقل عن المرأة العربية أن طبيعتها تختلف عن المرأة الأوروبية. المرأة العربية تميل باستمرار إلى الخلط والجمع بين الأضداد والمتناقضات. لاحظوا أيها السادة القراء، نظام الطهي عند المرأة العربية - وذلك فيما يقول أحد المستشرقين الكبار - ستجدون نظام الطهي عند المرأة العربية قائماً على وضع كثير من الأشياء والتي قد لا نجد صلة بينها. وضعه في إناء الطهي وذلك حتى ينتج عنه طبخة أو لبخة قد تؤدي إلى ضرر كبير بمعدة الإنسان. هذا النظام الذي نجده في الطهي، بل نجده في زى المرأة العربية أيضاً يدلنا على التفرات الفجائية وعلى الجمع بين أضداد ومتناقضات.

وحينما أخذت في قراءة أعمال الكاتبات العربيات، قلت لنفسى إن هذا الرأي يعد صادقاً إلى حد كبير. لقد أخذت أنتقل من عمل إلى عمل من إنتاج الكاتبات وكلما انتهيت من القراءة، كان يتأكد لدى اعتقاد بأن ما أقرأه يمكن أن يكون داخلاً في أى مجال إلا مجال الأدب ومجال الفكر الفنى المتميز.

وتصحيحاً لكثير من المفهومات الخاطئة التي تثار في رد بعض الكاتبات على ما قلته حول قضية المرأة والأدب، أبادر بالقول بأنه ليس من الضروري أن نجد لمن يقوم بنقد عمل أدبى، أعمالاً أدبية. لقد خلط الرد أو الهجوم بين طبيعة العمل الأدبى والذي يعد نوعاً من الفن، وبين طبيعة النقد الأدبى والذي يعد علماً إلى حد كبير. يجب أن نضع ذلك فى اعتبارنا إذا أردنا لأنفسنا ازدهاراً فى مجال الإنتاج الأدبى والنقد الأدبى. أما إذا لم نفعل ذلك فسنظل فى حالة فقدان الوعي، فقدان العقل.

إننى حينما أصدرت حكمى على كتابات المرأة العربية، والتى يقال عنها خطأ، إنها تدخل فى دائرة الأدب، والأعمال الأدبية، لم أكن فى هذا الحكم متعجلاً. وأرجو من الكاتبات الفاضلات الرجوع إلى أقوالى حول أكثر القضايا الأدبية وقد قلت برأى محدد فى كل قضية من القضايا وكم دارت الآراء والمناقشات حولها. ولكن ماذا أفعل، وأرائى كلها منشورة فى صحف ومجلات أدبية وغير منشورة فى كتب الطهى والتفصيل. الكتب التى تحرص عليها المرأة باستمرار. أرائى لا توجد فى واجهات محلات الأزياء.

والقضية التى أثرتها فى اللقاء الصحفى بمجلة الإذاعة والتلفزيون لم تكن جديدة تماماً كما توهمت بعض الكاتبات، بل أثرتها فى أكثر من بلدة عربية ومن بينها السودان والجزائر وقد قامت بعض الكاتبات فى البلدين بالرد على، وإن كان الرد لم يتضمن أى نوع من أنواع السخرية أو الشتائم. كنت أنتظر من كاتبات مصر الوقوف وقفة متأنية عند كل كلمة أو كل مصطلح قلت به. ويقينى أنهم لو كن قد فعلن ذلك، لقمن بتجنيب أنفسهن والقراء أيضاً هذا الخلط الرهيب. إننى رجل اشتغل بالفلسفة منذ أكثر من ثلاثين عاماً وقد تعلمت من الفلسفة الدقة فى استخدام الكلمة أو المصطلح. إن أخطر شئ هو الكلمة المطبوعة، ومن هنا فلا بد أن نكون حريصين على الدقة، كل الدقة فى استخدام كلماتنا. وكم أدت كلمة إلى اشتعال الحرب بين دولة وأخرى.

لقد ذكرتتى ردود أكثر الكاتبات بتلك الحملة على كتاب الفتوحات المكية لابن عربى وقد تبين أن أكثر من اشتركوا فى تلك الحملة لم يكلف الواحد منهم نفسه قراءة مؤلفات الرجل. لقد ذكرتتى الردود، بالهجوم الذى حدث مؤخراً فى مصر على الفلسفة الوجودية ورجالها بعد قيام أحد الشبان بقتل والده ووالدته وقيل بوجود بعض الكتب فى الفلسفة الوجودية عنده فى

مكتبته. وقد تبين لى أن أكثر من قاموا بالحملة على الفلسفة الوجودية ورجالها، لم يكونوا مؤهلين للحكم على تلك الفلسفة ولم يقرأ الواحد منهم كتاباً فى الفلسفة الوجودية.

حينما قرأت ردود الكاتبات أو بعضهن قلت لنفسى: إننى كنت على حق إذن حينما قلت منذ سنوات بعيدة بأن المرأة العربية امرأة نمطية تقليدية لا صلة لها بالإبداع من قريب أو من بعيد. حينما فضلت المرأة الأوروبية على المرأة العربية. حينما قلت بالتعارض التام بين الزواج والإبداع الأدبى والفلسفى بصفة خاصة، إلا إذا اتجه الرجل إلى الزواج بعد تكوين أفكاره واتجاهاته الرئيسية. أما إذا اتجه إلى الزواج قبل ذلك. فالويل له كل الويل. سينتهى إبداعه إلى الأبد. سيحدث له أكثر مما حدث لسقراط الحكيم قلت ومازلت أقول: إن أكثر المصائب والأهوال وأوجه الشقاء والضيق والتى حدثت لعدد من المفكرين والأدباء والفنانين، إنما تسببت فى وجودها، المرأة بصفة خاصة. والمجال الآن لا يتسع لذكر أسماء وأمثلة لا حصر لها. نعم لقد أدركت تماماً صحة ما قلت به وما زلت أقول: إن المرأة العربية بصفة خاصة لا تجرى إلا وراء الشهرة ولفت الأنظار. فإذا سارت المرأة فى الجنازة مثلاً، فإنها تلجأ إلى العويل والبكاء ولطم الخدود لكى تلفت إليها الأنظار.

قلت هذا وقلت أكثر منه. وأنا - كما قلت - لا أعتقد برأى من الآراء إلا بعد دراسة متأنية وتأمل طويل فى صومعتى الفكرية وعزلتى التى اخترتها لنفسى. أقول هذا رداً على جانب من الجوانب التى جاءت فى ردود الكاتبات الفاضلات. أما الجوانب الأخرى التى جاءت فى الردود، ردود الكاتبات، وردود الأدباء والنقاد، فيهمنى جداً الإشارة إليها وذلك حتى لا تضيع الحقيقة وراء ضباب الأخطاء التى لا حصر لها:

أولاً: لم أستخدم إطلاقاً مصطلح الأدب النسائى. ومن جانبى أقول إن هذا المصطلح أو التعبير، يعد خاطئاً تماماً، بل لا نجد له وجوداً حقيقياً، تماماً كما نقول بأنه لا وجود للعفارىت والغول. ولا يعقل بعد تحرر المرأة أن نقسم الأدب إلى أدب رجالى وأدب نسائى. لم يكن منتظراً منى على الأقل وأنا أدافع طوال حياتى عن العقل والمعقول، أن ألبأ إلى هذا التقسيم. فلسنا الآن فى عصر الحریم. وفرق - فرق كبير - بين الحديث عن المرأة والأدب، وبين الحديث عن الأدب النسائى. وإذا كنت من جانبى أقول بأننا لا نجد امرأة أديبة على وجه الحقيقة، فكيف ينتظر منى إذن أن أتحدث أو أستخدم مصطلح الأدب النسائى.

ثانياً: مصطلح الذاتية استخدمته ولم يكن قصدى منه ما ورد على لسان بعض الكاتبات الزميلات، وما ورد على لسان بعض النقاد والأدباء، ومن منا ينكر الذاتية فى مجال الأدب أو الفن؟ إننا نقول: العلم نحن والفن أنا. وهذا تعبير المقصود منه أن الفن لا يمكنه أن يكون موضوعياً كما هو الحال بالنسبة لمجال العلم. لقد وردت كلمة الذاتية على لسانى أثناء الحوار قصدت منها القول بأن أعمال المرأة والتى تظن أنها تدخل فى مجال الأدب، لا تزيد عن نوع من الرغى الشخصى وأن أقوالها شخصية ملتصقة بذاتها، ولن ننتظر منها أدباً حقيقياً، أدباً عالمياً على وجه الخصوص. لقد كنت أتحدث عن شروط الأدب الحقيقى، أتحدث عن جائزة نوبل وموضوعيتها. أتحدث عن مقاييس الأدب العالمى والذى نجده فى أعلى صورته عند شكسبير ونجده بدرجة أقل نسبياً عند أبى العلاء المعرى والمتنبى. نجده يقترب من العالمية، عند أمثال توفيق الحكيم ونجيب محفوظ. لقد أخذت فى تحليل أعمال هؤلاء الأدباء، ودافعت من بعض الزوايا عن جائزة نوبل، وبعد ذلك سئلت عن موضوع الأدب عند المرأة العربية، وقلت بالرأى الذى

كونته لنفسى منذ سنوات طويلة وأعلنته فى أكثر من مناسبة وفى أكثر من بلدة عربية وما زلت أتمسك به.

ولا أخفى على القراء أننى إذا وجدت مستقبلاً عملاً أدبياً صادقاً للمرأة العربية فإننى سأكون من أول المحتفلين بصدوره وسوف لا أتردد يومها فى أن أقول: لقد آن الأوان لتغيير نظرتى لكتابات المرأة العربية. أما الآن فإننى لا أجد حولى أدبياً صادقاً، أدباً حقيقياً للمرأة العربية. وكم أحطنا شعر الخنساء قديماً بهالة أكبر من حجمها الحقيقى، وكم اختلطت علينا الأوراق الآن، وبحيث أصبح كل كلام يعد أدباً.

ما الفرق يا سادة بين هذا الرغى الذى تطلقون عليه أدباً وقصصاً وبين مجرد تسجيل حادثة من الحوادث فى دفتر يوميات أمين الشرطة. فهل نقول عن كل أمين شرطة إنه يعد أدبياً. هل نقول عن كل سيدة تقوم بالرغى والثرثرة مع جاراتها، هل نقول عنها بأنها أدبية؟!!!

من المؤسف له أننا وبعد ضعف الحركة النقدية عندنا وبحيث أصبحت فى خبر كان، اتجهنا إلى الدجل والفهلوة والحركات البهلوانية، حركات السيرك. ومع احترامى الشديد لوسائلنا الإعلامية والدور العظيم الذى تقوم به، إلا أننى لا أتردد فى القول بمسئوليتها فى مجال التركيز على أعمال تحسبها أدباً وما هى بأدب وإن كان أكثرهم لا يعلمون.

ثالثاً: لم أتحدث فى الحوار الذى أجرى معى عن الأدب عند المرأة غير العربية، أى المرأة الأوروبية بصفة عامة. ولذلك أقول بأن الأعمال التى تفضلت بذكرها الكاتبات الفاضلات فى ردودهن، وأيضاً الأدباء والنقاد، لا تدخل فى دائرة الحوار والمناقشة لأننى ركزت فى حديثى على كتابات المرأة العربية. ويوم أفرغ من قراءة أعمال الكاتبات الأوروبيات فى مجال الأدب، سأصدر حكى بشأن تلك الأعمال

لأننى ألتزم بعدم إصدار حكم إلا بعد دراسة طويلة متأنية، إحقاقاً للحق ووضعاً للأمور فى نصابها، والتزاماً بالشهادة أمام محكمة التاريخ.

رابعاً: توجد جوانب مشرقة ووضاءة فى ردود بعض الزميلات الكاتبات وقد استفدت منها الكثير وإن كنت اختلفت معهن فى رأى. توجد أيضاً جوانب تبشر بالخير فى بعض الردود لأنها تخلصت إلى حد كبير من الإنفعال الغاضب ولغة السخرية والشتائم.

خامساً: المناقشة الهادئة التى سادت فى تحليل القضية والتى نجدها عنهن مجموعة من الأدباء والنقاد، والمناقشة المليئة بالشتائم والعيول والبكاء على الأطلال والتى نجدها فى أكثر الردود من جانب الكاتبات، تجعلنى أسأل سؤالاً محدداً هو: ألم أكن على حق حين قلت بالحرف الواحد: فى مجال الأدب الصادق لا تتجح المرأة، لأن المرأة ذاتية، ومعظم أعمالها الأدبية - إن لم تكن كلها - لا تساوى شيئاً، ولكن الدعاية المكثفة هى التى تجعل لأعمال من يقال عنه، أدبيات، قيمة من أثر الضجيج. أما من خلال المنظور النقدى فإنها قد لا تساوى شيئاً ولن يكتب لها الخلود أو الإستمرار. هل كنت متجنياً على المرأة حين قلت بهذا الرأى؟ اعتقادى الذى لا أترجح عنه قيد أنملة، أننا إذا وقفنا طويلاً عند كلمة الصادق، أى الأدب الصادق، فلن نجد عند المرأة العربية فى قديمها وحديثها أدباً ذا قيمة. ومن يحاول البحث عن أدب صادق عند المرأة العربية فوقته ضائع عبثاً، تماماً كمن يحاول العثور على قطرة سوداء فى الظلام الدامس، أو من يحاول البحث عن الخرافة فى أرض المعقول.

إننا فى أمس الحاجة إلى إعادة تقييم الأحكام التى كونها لأنفسنا وما أكثر تلك الأحكام، بل إنه لا حصر لها. لقد قلت بعدم وجود فلاسفة فى عالمنا العربى ومنذ ثمانية قرون. وقد نشر هذا الرأى وقتها فى أكثر من مجلة

وصحيفة عربية وغير عربية وتمت مناقشته بطريقة موضوعية ولم يلجأ الرجال إلى الشتائم والهجوم. قلت إن شاعرية العقاد أعظم من شاعرية شوقى. قلت بأنه يجب علينا الاستفادة من كل ما هو غربى أوروبى وخاصة فى مجال الفنون والآداب. ويقينى بأننا إذا كنا قد سعينا إلى ذلك منذ زمان طويل لكنا قد جنبا أنفسنا الإنهيار الفنى والأدبى الذى نشعر به الآن فى وطننا العربى. فكل من تجيد الصراخ أمام الميكروفون، نقول إنها تعد مطربة رغم أنها قامت بإزعاج الناس عن طريق صوتها. وكل من تعبت أنامله بالآلات الموسيقية، نقول بأنه يعد موسيقاراً.... وهكذا إلى آخر الأمثلة التى لا حصر لها.

لقد قلت أثناء إجابتى عن السؤال الذى يتعلق بكتابات المرأة العربية، وهل نجد لدينا أديبة؟ بأننا إذا اعتقدنا بنظرية الفن للفن، أو بنظرية الفن للمجتمع، فإن ذلك سيكشف لنا عن التهريج الأدبى الذى نعيشه. سيتبين لنا أوجه الضعف والخروج عن القواعد الفنية إذا قمنا بتأليف أغنية وطنية، أو فيلم دينى أو مسلسل من المسلسلات الدينية، إنها تسميات خاطئة، وكان الأغاني الأخرى أو الأفلام والمسلسلات الأخرى تعد معبرة عن اللادين وعن الكفر!!!

سادساً: فيما يتعلق بالوجه المظلم من الحوار أو تلك الردود من جانب الزميلات الفاضلات، فإننى لا أود الدخول فى مهاترات كلامية. واعتقادى الراسخ أن الفرد منا لا يلجأ إلى لغة السخرية والشتائم إلا إذا فقد الحجة والدليل، تماماً كمن يلجأ إلى الإرهاب عن طريق استعمال يديه أو إطلاق الأعيرة النارية فى حالة عدم تمكنه من مناقشة الخصم عن طريق الكلمة الهادئة. أليس من حق الكاتب أن يقول برأيه. وهل استخدمت فى إجاباتى عن الأسئلة التى وجهت إلى عن قضية المرأة العربية والأدب كلمة تحمل فى طياتها

السخرية والشتائم. إننى لا أجد مبرراً لذكر كلمات الشتائم فى الردود، وليرجع القراء والقارئات الأعضاء إلى العددين، ٢٧٣٦، ٢٧٣٧ من أعداد مجلة الإذاعة والتليفزيون حتى يدرك تماماً صدق ما أقول به. وليقارن ما جاء بالعددين، وما جاء بالعدد ٢٧٣٣، وهو الذى تضمن الحوار معى، حتى يدرك تماماً صحة ما قلت به. أى شهرة أسعى إليها الآن، وأنا أقول بهذه الآراء منذ ما يقرب من ربع قرن من الزمان. كنت أنتظر من الكاتبات الفاضلات الرجوع إلى المجلات والصحف المصرية والعربية، وغير العربية، بل على الأقل كنت أنتظر منهن الرجوع إلى أرشيف المجلات والصحف وهذا أضعف الإيمان، وخاصة أنه يبدو لى أن المرأة العربية تتكلم كثيراً ولا تقرأ إلا أقل القليل. كنت أنتظر منهن متابعة بعض برامجنا الإذاعية والتليفزيونية حتى يدركن تماماً أننى طالما دافعت عن المرأة، بل إننى حاولت تأويل آراء توفيق الحكيم وبحيث يفهم منها أنها فى صالح المرأة وذلك اعتماداً على كتابه الرائع "تحت شمس الفكر".

لا أخفى على السادة، القراء الأعضاء بأننى حين قرأت الردود على بعض الزملاء والزميلات من البلدان الأوروبية، وممن لديهم الإهتمام بالثقافة العربية وقضاياها، لا أخفى على القراء أننى قد شعرت بالأسف الشديد. إننى حين تحدثت فى الحوار، تحدثت عن الأدب الحقيقى، الأدب الذى يحاول أن يشق طريقه نحو العالمية، وأننى ما تحدثت عن أدب الدرجة العاشرة المنخفضة، أدب الثرثرة والكلمات المتقاطعة، إن صح أن للثرثرة أدباً، أو أن الكلمات المتقاطعة تعد أدباً أو فناً.

ورغم ذلك كله فإننى أشكر للكاتبات الزميلات الفاضلات، الإهتمام الكبير بمناقشة أبعاد القضية التى أثرت، القضية التى خصص لها القائلون على مجلة الإذاعة والتليفزيون صفحات كثيرة فى أعداد متوالية. وكم استفدت

- كما قلت أكثر من مرة - من المناقشات المستفيضة من جانب الكاتبات الزميلات، والأدباء والنقاد واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية. وكما قال الفيلسوف أرسطو قديماً وقبل الميلاد: أحب أفلاطون وأحب الحق، ولكن حبى للحق أقوى.

وكم أرجو أن أجد فى عالمنا العربى وفى مستقبله القريب أو البعيد، امرأة واحدة تقدم لنا أدباً حقيقياً، أدباً صادقاً، أدباً لا تصنعه أبواق الدعاية والطبل الأجوف. أدباً لا يكون معبراً عن الصعود إلى الهاوية وبئس المصير. أدباً لا يستند إلى الضحالة الفكرية والفراغ الثقافى. هذا ما أرجوه، وإن كنت أعتقد اعتقاداً لا يخالجنى فيه أدنى شك، بأنه رجاء لا يمكن تحقيقه سواء فى المستقبل القريب، أو فى المستقبل البعيد.

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٧	الأهداء
٩	شكر وتقدير
١١	تصدير عام: النقد الحقيقي والنقد الزائف
	القسم الأول:
٢٩	قضايا ومشكلات من منظور ثورة النقد
٣١	الفصل الأول: أحكام خاطئة في مجال الفكر العربي
	الفصل الثاني: هل استعد العرب للدخول إلى ثقافة
٣٩	قرن جديد
٦٣	الفصل الثالث: متقنون وأشياء متقنين
٦٧	١- البتروفيكر
٧٥	٢- من هو المتقف ؟
٨٣	٣- المتقف والمجتمع
٩١	٤- شبابنا وقضية الثقافة
٩٧	٥- لغة النور ولغة الظلام
١٠٥	٦- ثقافة النور وأساطير الظلام
١١١	٧- أسطورة الغزو الثقافي
١١٥	٨- الفكر المصري وتقديس العقل والتتوير
١٢٣	٩- التلفزيون وإعلان الحرب على الثقافة
١٣١	١٠- التلفزيون وثقافة الجيل الجديد
١٣٩	١١- التلفزيون والاعتراب عن العقل
١٤٧	١٢- التكامل الثقافي .. برؤية فلسفية
١٥٥	١٣- الهجوم على الرواد والانهيار الثقافي
١٦٣	١٤- هل يوجد مستقبل لفكرنا العربي
١٧١	١٥- جائزة نوبل ومشكلة المحلية والعالمية

الفصل الرابع:

- التسامح الدينى ١٧٩
- ١- الارهاب : المشكلة والحل . ١٨٣
- ٢- الوحدة الوطنية بين طريق النور وطريق الظلام ١٨٧
- ٣- الكتاب الدينى وتيار العصر والحضارة . ١٩٩
- ٤- الرؤية القبطية فى الثقافة المصرية والعربية ٢٠٥
- ٥- طائر الحب والحوار بين الأدباء يخلق فى سماء إيطاليا ٢١٣

الفصل الخامس :

- جامعاتنا والطريق نحو المستقبل ٢٧٧
- ١- جامعاتنا العربية والاغتراب عن الثقافة ٢٣١
- ٢- جامعاتنا بين الكم والكيف ٢٣٩
- ٣- النظرة النقدية لمناهج تدريس الفلسفة بالجامعات ٢٤٥

الفصل السادس:

- العرب ونماذج من القضايا السياسية ٢٦١
- أولاً: كيف يمكن كتابة التاريخ بطريقة منهجية دقيقة ٢٦٥
- ثانياً: العقلية العربية وأيديولوجية العمل السياسى ٢٧١
- ثالثاً: أزمة الخليج بين الحاضر والمستقبل ٢٧٩
- رابعاً: هل تسهم الأحزاب فى البناء الثقافى ٢٩٣
- خامساً: حرب أكتوبر والرؤية المستقبلية ٣٠١

الفصل السابع:

- دفاع عن الاستشراق والمستشرقين ٣٠٩

الفصل الثامن:

- رواية الخيال العلمى (برؤية نقدية) ٣٣٣

الفصل التاسع:

- رؤية نقدية حول ما يسمى بأدب المرأة فى عالمنا العربى ٣٤٧

كتب للمؤلف

- النزعة العقلية في فلسفة ابن رشد - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السادسة.
- الفلسفة الطبيعية عند ابن سينا - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثانية.
- مذاهب فلاسفة المشرق - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الحادية عشر.
- تجديد في المذاهب الفلسفية والكلامية - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السادسة.
- ثورة العقل في الفلسفة العربية - القاهرة - دار المعارف - الطبعة السابعة.
- الميتافيزيقا في فلسفة ابن طفيل - القاهرة - دار المعارف - الطبعة الثالثة.
- الفلسفة الإسلامية - دار المعارف.
- العقل والتتوير في الفكر العربي المعاصر - القاهرة - دار قباء - الطبعة الثانية.
- الفلسفة العربية والطريق إلى المستقبل - القاهرة - دار الرشاد.
- الفلسفة العربية (مدخل جديد) - دار لونجمان.
- محاضرات في تاريخ العلوم عند العرب - القاهرة - جامعة القاهرة - فرع الخرطوم.
- محاضرات في الفلسفة الإسلامية - القاهرة - معهد الدراسات الإسلامية.
- الفيلسوف ابن رشد ومستقبل الثقافة العربية - القاهرة - دار قباء (أربعون عاماً من ذكرياتي مع فكره التتويري).
- الأصول والفروع لابن حزم - تحقيق بالاشتراك - دار النهضة العربية.
- الإسلام دين العلم والمدنية للشيخ محمد عبده - تحقيق ودراسة نقدية الطبعة الثانية - دار قباء - القاهرة.
- رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده - تحقيق وتصدير - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.
- يوسف كرم مفكراً عربياً ومؤرخاً للفلسفة - كتاب تذكاري - إشراف وتصدير المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.

- الدكتور أبو الوفا التفتازانى - كتاب تذكارى - إشراف وتصدير - دار قباء - القاهرة.
 - الشيخ مصطفى عبد الرازق - كتاب تذكارى - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة.
 - محمد اقبال وقضية التجديد (ضمن كتاب عن محمد اقبال - القاهرة - مكتبة مدبولي)
 - تصدير لكتاب الدكتور عثمان أمين (محمد عبده رائد الفكر المصرى) القاهرة - المجلس الأعلى للثقافة.
 - دراسات فى الكتب التذكارية التى صدرت عن د. إبراهيم مدكور، و د.عثمان أمين. وأحمد لطفى السيد، د. شوقى ضيف، والشيخ محمد عبده، د. توفيق الطويل، د. زكى نجيب محمود (جامعة الكويت)، د. زكى نجيب محمود (المجلس الأعلى للثقافة) د. على سامى النشار، والفيلسوف ابن رشد، ويوسف كرم، د. محمد عبد الهادى أبو ريده.
 - ثورة النقد فى عالم الأدب والفلسفة والسياسة - دار الوفاء - الإسكندرية.
- ويصدر قريبا للمؤلف:**

- هل فى عالمنا العربى المعاصر فلاسفة؟
- نحن والتراث.
- ابن باجة فيلسوفا مغتربا.
- ثقافة النور وخرافة الظلام.
- كتاب تذكارى عن الأب الدكتور جورج قنواى (إشراف وتصدير).
- كتاب تذكارى عن الدكتور زكى نجيب محمود (إشراف وتصدير).

منتدی سور الانزبکیہ

WWW.BOOKS4ALL.NET